

إبداعات عالمية

قصص برازيلية

تأليف

مجموعة من القصاصين البرازيليين

ترجمة

خليل كلفت

سحر توفيق

مراجعة

د. اسماعيل صافيه



العدد ٣٢٣
أبريل ٢٠٠٠

إبداعات عالمية

قصص برازيلية

تأليف
مجموعة من القصاصين البرازيليين

ترجمة
خليل كلفت
سحر توفيق

مراجعة
د. اسماعيل صافيه

إبداعات عالمية

المراسلات :
توجه باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
ص.ب ٢٨٦٢٣ ـ الصفاة . الكويت 13147

صدر العدد الأول في أكتوبر ١٩٦٩

تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي

أسسها الأستاذ / أحمد مشاري العدواني

(١٩٢٣ - ١٩٩٠)

تصدير

هذه ترجمة لمجموعة مختارة من القصص البرازيلية القصيرة لعدد من كتاب القصة القصيرة في البرازيل. وهذه المجموعة من القصص تضم النصوص التالية:

● مقدمة: «القصة البرازيلية: من ماشادو ده أسيس إلى الوقت الحاضر» فهو مترجم عن:

Modern Latin Anerican Fiction: A Survey, edited by John King, Fabar and Faber, London, 1987.

● قصة: «دونا باولا» مترجمة عن:

The Devil's Church and Other Stories

By Machado de Assis

Translated by Jack Schmitt and Lorie Ishimatsu, University of Texas press, USA, 1977.

● قصص: «البيانو»، و«الشاطئ الثالث للنهر»، و«تارسيزو»، و«كيف أزاح برسيونكولا الخلاسي الجثة عن كاهله»، و«أضأل امرأة في العالم»، مترجمة عن:

The Eye of the Heart, Short Stories from Latin America, edited by Barbara Howes, Avon Books, USA, 1974.

● وقصتا: «الفراشة البيضاء»، و «جرأة» مترجمتان عن: Latin American Literature Today, edited by Anne Fremantle, Amentor Book, New American Library USA, 1977.

● وقصص: «الساحر السابق من مطعم مينيوتا»، و«لقاءان مع هيلينا»، و«قلوب محطمة»، مترجمة عن:

A Hammock Beneath the Mangoes, Stories from Latin America, edited by Thomas Colchie, A Plume Book, USA, 1991.

ويسعد المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب أن يعمل على نشر الجديد من آداب العالم من خلال سلسلة إبداعات عالمية.

ويسرنا أن نستقبل الجديد من آداب اللغات والشعوب المختلفة لنثري المكتبة العربية بشتى صنوف الأدب العالمي.

رئيس التحرير

مقدمة

القصة البرازيلية

من ماشادو ده أسيس إلى الوقت الحاضر

بقلم: جون جليدسون*

«عندما نعلم من ستندال Stendhal أنه ألف أحد كتبه من أجل مائة قارئ وحسب، نصاب بالدهشة والانزعاج في آن معاً. إن العالم لن يصاب بالدهشة، كما أن من المحتمل أنه لن يصاب بالانزعاج إن لم يجد هذا الكتاب لا مائة قارئ، مثل كتاب ستندال، ولا خمسين، ولاعشرين، ولا حتى عشرة. ولا حتى - ربما - خمسة»

هذه هي الكلمات الافتتاحية لرواية: Memórias Póstumas de Brás Cubas «مذكرات براس كوباس يكتبها بعد وفاته»، ١٨٨٠، لماشادو ده أسيس Mashado de Assis، أول تحفة أدبية لاجدال فيها في القصة البرازيلية. وهذه طريقة ملائمة للبداية، من أكثر من ناحية.

إنني أريد أن أستخدم هذه الكلمات والشخصية غير العادية لماشادو ذاته لتعريف القارئ بشيء من الوضع العام للقصة البرازيلية، وهو في مكان وسط entrelugar كما يحدده أحد النقاد. وهناك بطبيعة الحال مخاطر تحيط بأي مشروع من هذا القبيل. فقد تغير ذلك الوضع كثيراً منذ ١٨٨٠ (وفي السنوات القليلة الأخيرة بوجه خاص)، وسيكون نوعاً من التحريف أن ننظر إلى البرازيل وكأنها شيء فريد، في حين أنها أشبه ما تكون بأماكن أخرى، ولاسيما ببقية أمريكا اللاتينية. على أن

* محاضر أول في الدراسات الهيسبانية بجامعة ليفربول.
نشر كتبا عن كارلوس دوموند ده أندراده وماشادو ده أسيس، ومقالات عن جوانب أخرى للأدب البرازيلي.

هذه المحاولة تبدو جديرة بالتفضيل على مجموعة بلا سياق محدد من الأسماء العظيمة، وهكذا فإنني أريد قبل إلقاء الضوء على بعض هذه الأسماء أن أرسم مسودة لهذه الخريطة الأضخم، مستخدماً ماشادو كأساس لي، لكن وأنا أطوف متأملاً بكل فترة أدبية منذ أواخر القرن التاسع عشر.

إلى من كان ماشادو يوجه خطابه؟ إلى أكثر من خمسة قراء، بلاشك.. لكن تبقى، بكل مفارقاتها، حقيقة أن جمهور القصة ذاك يظل صغيراً في بلد ضخم السكان (أكثر من ١٤٠ مليونا). وقد قدر روبرتو شفارتس Roberto Schwartz، في الخمسينات، نحو خمسين أو ستين ألفاً ، في بلد نادراً ما تتجاوز الطبعات فيه ثلاثة آلاف، وتكون فيه الرواية محظوظة عندما تصل إلى طبعتها الرابعة أو الخامسة. ومن الجلي أن القصة لايمكن أن تمثل مصدر رزق بالنسبة لأغلب الروائيين وكتاب القصة القصيرة، فلهم أعمال أخرى، وغالباً ـ كما في حالة ماشادو ـ كموظفين حكوميين وصحفيين. وبدورها، يمكن لهذه التبعية إزاء الدولة بوجه خاص أن تقيد حريتهم في قول ما كان بوسعهم أن يقولوه في وضع مختلف، خاصة عندما تغدو الحكومات قمعية، كما حدث بتواتر محزن، وليس أبداً بشراسة أقل مما حدث خلال أسوأ فترات النظام العسكري الحديث، الدائم منذ منتصف الستينات إلى منتصف السبعينات.

على أنه سيكون من الخطأ أن نربط بين الحرية المالية والحرية الفكرية. وقد لاحظت الناقدة والنيس نوجيرا جالفاون Walnice Nogueira Galváo أن كاتبين حققا مبالغ ضخمة من إنتاجهما، وهما: جورج أمادو Jorge Amado، وإريكو فيريسيمو Erico Veréssimo، كانا أيضاً أول من نشر روايات احتجاج، في ١٩٧٣. وكان مما لاحظت أيضاً أن رواية أمادو كانت على أي حال، رديئة جداً، وعلاوة على ذلك أن نقده للنظام لم يذهب بعيداً جداً، أو لم يغص عميقاً جداً. ذلك أنه بعد أن تخلص من علاقة تبعية، وقع في أخرى، هي تلك المتمثلة في التبعية إزاء قراء الطبقة الوسطى، وكانت تلك الطبقة الوسطى بالذات هي المستفيدة

من القمع، إن كانت راغبة بحال من الأحوال في أن يتحقق الرواج الاقتصادي - ما يسمى «بالمعجزة» - بوحشية أقل. وكان العنوان الأصلي لرواية أمادو Teresa Batista, Cansada da Guerra «تيريزا باتيستا، منهكة من الحرب»، فصار العنوان الإنجليزي Teresa Batista, Home From Wars «تيريزا باتيستا عائدة من الحروب».

وقد يبدو أنني بسبيلي إلى تحديد «لا مكان» وليس مجرد مكان وسط وحسب. وبطبيعة الحال، كانت القصة دائماً الفن الخاص بأقلية صغيرة في البرازيل، ومع ظهور السينما وقبل كل شيء التليفزيون، ليس هناك ما يدعو إلى الاعتقاد أن ذلك الوضع سوف يتغير. على أنه سيكون من الخطأ أن نحكم في هذه الأمور من ناحية حجم الجمهور فقط. وليس هذا مجرد افتراض بأن «الجودة الأدبية» هي المعيار الوحيد. ذلك أن هذا الوضع الهامشي والمحصور يؤثر حقاً في كتاباتهم، لكن بطرق غير متوقعة في كثير من الأحيان. وليس هناك من يصور هذا أفضل من ماشادو، الذي عرف جمهوره حقاً. فبالإضافة إلى كونه روائياً وكاتب قصة قصيرة، كان ماشادو صحافياً (في الفترة التي كانت لا تزال فيها الصحف وسيلة الإعلام الجماهيرية الأكثر تقدماً)، وشاعراً وكاتباً مسرحياً. ومن المران الطويل والخبرة الطويلة (بدأ كمصحح بروفات في سن المراهقة) عرف ما أراده جمهوره بالضبط. وهذا هو السبب في أنه استطاع أن يقدم لهم ذلك وشيئاً آخر. وربما كانت رواية Dom Casmurro «دون كازمورو*» ١٨٩٩، المثال الأكثر تعقيداً بين جميع الأمثلة. فهي مايفكر فيه بورخيس Borges وبيوي كاساريس Bioy Casares في القصة الافتتاحية في مجموعة Ficciones «قصص»: «رواية بضمير المتكلم، يحذف راويها الحقائق ويشوهها ويغرق في تناقضات متباينة. الأمر الذي لن يتيح إلا لقراء قليلين - قليلين جداً - أن يدركوا الحقيقة البشعة أو المبتذلة». ويحكي «بنتو» علاقه حبه المراهق لـ «كابيتو» وزواجه

* صدرت رواية «دون كارمورو» لـ (ماشادو ده أسيس)، بالعربية، ترجمة خليل كلفت، سلسلة القصة العالمية، دار إلياس العصرية للطباعة والنشر. القاهرة ١٩٩١. المترجم.

اللاحق منها، وشيئاً فشيئاً ندرك أنه ليس كل شيء على ما يرام إلى أن يتهم «بنتو» «كابيتو»، بعد غرق صديقه الصدوق «إسكوبار»، بأنها ارتكبت الزنا معه، ويحسم أن طفلهما هو طفل «إسكوبار» في الحقيقة. وقد أخذ كثير من القراء، إن لم يكن أغلبهم، الرواية على أنها قصة حب مأساوية، باعتبار «بنتو» بطلها المنكود الحظ. على أن الحقيقة، على حد تعبير بورخيس، أكثر ابتذالاً. وربما كانت، في المدى الطويل، أكثر بشاعة كذلك. ذلك أن «بنتو» ليس بطلاً، بل هو ابن الأم المدلل، المحاصر بالنذر الذي نذرته أمه قبل ولادته بجعله قسيساً، وهو غارق في حب فتاة من أدنى السلم الاجتماعي، وهكذا يخترع قصصاً تعويضية، تنتهي، إذ تبرئ ساحته هو وأمه من أي مسؤولية، إلى تجريم آخرين بصورة لا يمكن تفاديها. وفيما نقوم بحل خيوط التشابك البالغ التعقيد بين «الحقيقة الواقعة» والقصة، تبرز صورة بالغة التعقيد لمجتمع وعقلية. وهذا أمر يصدق بالقدر نفسه على تحفتيه الروائيتين الأسبق: «براس كوباس يكتب مذكراته بعد وفاته»، وQuincas Borba «كينكاس بوربا*». والصورة التي تبرز، محفورة بفكاهة ساخرة تتظاهر بالحياد، لا شك في أنها ليست صورة تخدع بالآمال الزائفة.

والحقيقة أن ماشادو يقدم إلى قرائه الخيار بين كتابين: الأول مقروء، ومشوق، ومسل للغاية، والآخر مثير للقلق أكثر بكثير، ويقدم رؤى مزعجة تنفذ إلى أعماق مجتمع الطبقة العليا البرازيلية وقيامه على العبودية (التي لم يجر إلغاؤها إلا في ١٨٨٨)، وقمعيته، وتحجره. وبمنتهى الكياسة والجسارة، وبمزيج من العدوانية والتهذيب هو السمة المميزة لأسلوبه، حافظ ماشادو على قرائه، وكان - أثناء حياته - كاتباً يتمتع بمكانة كبيرة. وكان الثمن الوحيد الذي تعين عليه أن يدفعه (ولا شك في أنه كان راضياً بأن يدفعه) هو أن جانباً من رسالته ظل غير مفهوم إلى ما بعد موته

* صدرت بالعربية بعنوان: «كونكاس بوربا»، ترجمة سامي الدروبي، دار دمشق للطباعة والنشر، ١٩٦٣، وفيما بعد صدرت الترجمة نفسها في سلسلة روايات الهلال بعنوان: الفيلسوف أم الكلب؟ (في جزءين، أغسطس وسبتمبر ١٩٧٣، القاهرة). المترجم.

بوقت طويل.

ولكي يحقق هذا الهدف، لم يكن على ماشادو أن يعرف قراءه وأن يتوقع ردود أفعالهم بمهارة لا تضارع وحسب. لقد كان عليه أيضاً أن يجرب، مستخدماً نماذج كتلك الخاصة بالكتاب - ستندال، ستيرن Sterne، سافييه دو ميستر Xavier de Maistre - المذكورين في نفس مقدمة «براس كوباس يكتب مذكراته بعد وفاته»، في سبيل إنتاج عمل هازل من ناحية الشكل أكثر كثيراً من أي شيء يمكن لكل من «الوقور» و«العابث»، هذان العمادان التوأمان من أعمدة الرأي العام، كما يصفهما هو، أن يُقرّا به كرواية. والحقيقة أنه كان قد كتب من قبل روايات أكثر تقليدية بكثير خلال سبعينات القرن الماضي إلى ما قبل نشر «براس كوباس يكتب مذكراته بعد وفاته» بسنتين وحسب. وقد أدى تجريبه ببعض النقاد إلى أن يعجبوا من حداثته. على أن هذا لا يجدي إلى حدّ بعيد، رغم أنه لا شك في أن عاداتنا المتشككة في القراءة تتلاءم معه بأروع صورة. ورغم ذلك فهو قادر تماماً على أن يغلبنا بحيله وخدعه. وكان ماشادو يستجيب لقيود محلية (وإنْ برشاقة أكثر كثيراً من معاصريه)، رافضاً لأسباب وجيهة تماماً كلاً من الرومانسية العتيقة وطبيعية زمنه التي كانت تمثل الموضة الرائجة، وكانت حتمية النزعة، كما كانت في كثير من الأحيان كلاشيهات عنصرية. وكان عليه أن يعثر على نموذج آخر من نوع ما، أو أن يتوقف عن الكتابة.

ورغم أنه قد يبدو غريباً على الأزمة الأدبية في زمنه، يُعد موقف ماشادو بهذا الصدد أيضاً نموذجياً، ويميز كتاباً آخرين كثيرين، وإنْ بطرق مختلفة. وبطبيعة الحال فعندما ظهرت الحداثة بأشكالها المتباينة في أوروبا تم استيرادها تماماً كما حدث مع الرومانسية والطبيعية من قبل. وكانت مصحوبة، في عشرينات القرن العشرين، بنزعة قومية تراوحت بين الاستكشاف الفاشي الطراز، والاستكشاف الأصيل لبلد كان لايزال مجهولاً إلى حد بعيد خارج ما يسمى بمحور «ريو - سان باولو»، والذي لا يزال يسيطر اليوم على الحياة الثقافية البرازيلية. على

أنه إذا كان هذا الاقتران بين النزعة القومية والثورة الحداثية مصادفة فقد كان مصادفة سعيدة. ذلك أن الأشكال الطليعية لم تكن تتلاءم مع الأهداف الساخرة والمدمرة للقيم التقليدية لدى كتاب العشرينات وحسب، بل كانت تقدم إليهم تبريراً جمالياً للعزلة التي عاشوا فيها، أو كانت تداعبهم حتى بالأمل في جمهور في المستقبل: «ذات يوم سيأكل الناس الكعك الفاخر الذي أصنعه اليوم من أجلهم»، كما قال أوزفالد ده أندراده Oswald de Andrade، أكثر المجموعة راديكالية. أكثر من هذا، كانوا يُحسون - ولهم مبررهم إلى حد بعيد - بأن الأسلوب المتنافر المستخف للكثير من الكتابة «الحديثة» كان يناسب الواقع البرازيلي، الحافل هو ذاته بتناقضات وتنافرات صارخة. وبعبارة أخرى، كان التجريب، بالنسبة لهم كما كان بالنسبة لماشادو، أمراً طبيعياً وضرورياً، فرضاً لأهداف واقعية بصفة جوهرية (رغم أنهم ربما لم يعبروا عن الأمر بهذه الطريقة). ويخاطر الكتاب التقليديون، مثل جورج أمادو، الأكثر ترجمة ونجاحاً تجارياً بين الروائيين البرازيليين، بالنكوص إلى نوع من الأدب الرديء. وليس من الضروري أن يكون التجريب طليعياً. الحقيقة أن جراسيليانو راموس Graciliano Ramos، أهم روائي في الثلاثينات، كان بالغ الارتياب إزاء ما كان ينظر إليه على أنه النزعة الجمالية النخبوية للحداثيين، غير أن كل رواية من رواياته (شأنها في ذلك شأن روايات ماشادو) استجابة متغيرة للواقع، ويفرض ذلك الواقع ذاته على الكاتب الأمين تغيُّرا في الأسلوب وفي منهج السرد. والواقع أن اهتمامه بالحقيقة فرض عليه - في نهاية المطاف - أن يهجر القصة كلية، إلى السيرة الذاتية.

وقد يكون التجريب ضرورة، غير أن ذلك لا يجعله بحال أكثر سهولة أو أقلّ خطورة. فرغم سحرهما، تفتقر الروايتان الأخيرتان لماشادو: Esau e Jacó «عيسى ويعقوب»، وMemorial de Aires «تذكار لآيرس»، وأولاهما هي الأكثر وعياً بالذات في كل إنتاجه، إلى قوة وإقناع الروايات الثلاث العظيمة المشار إليها من قبل. كما أن Grande Sertáo: Veredas «السرتون الكبير: دروب»، رائعة جيمارانس روزا Guimaráo Rosa، أعقبتها

قصص قصيرة أمكن فيها لأسلوبه الفذ أن يغدو أقرب إلى التميق منه إلى العظمة (حسب ذوقي على الأقل). وبصورة معكوسة، تجد كلاريس ليسبكتور Clarice Lispector، مؤلفة عدد من القصص القصيرة المذهلة القوة، من الصعوبة بمكان أن تستمر بتلك القوة بصورة مقنعة في الروايات التي كتبتها ونشرتها مع ذلك. وإلى هذا المدى، من الصواب أن ننظر إلى الأدب البرازيلي في تعبيره الأكثر عظمة وفردية على أنه مجموعة من الشخصيات المتوحدة وحتى المأساوية، أنتجتْ أقوى أعمالها في سياق نضال ضد صعاب ضخمة.

وآمل ألا يستدعي هذا صورة مسرفة الرومانسية لكتّاب يعوّضون عن وضعهم الهامشي بالرضا بعزلة متفوقة، ومع ذلك فإن الوضع الحقيقي أكثر تعقيداً من ذلك بكثير بصورة جدلية (كما يدل الحديث عن جمهور مستقبلي على سبيل المثال)، رغم أنه لا شك في أن الزعزعة الحقيقية لوضعهم يمكن أن تجلب معها وعياً وجودياً بالغ الحدة. ذلك أيضاً ملحوظ عند ماشادو، الذي تجعله نزعته الشكية اللاذعة التشاؤم «الشوبنهاوري»، الذي تأثر به ماشادو دون أدنى شك، يبدو مجرّداً ومتعنتاً. وهناك أيضاً نزعة استبطانية قوية في هذه الكتابة، قد تبدو منحرفة لقارئ أوروبي أو أمريكي شمالي متلهف على الواقعية السحرية أو الالتزام الاجتماعي والسياسي.

ومن الواقعية أن نقول إن الراديكالية الفنية ليست موجودة لمجرد أن تكون موجودة، بل كطريقة لتمييز معالم جمهور. الحقيقة أن الكتاب البرازيليين قابلون تماماً للتكيف، ربما لأنه لا يمكنهم التسليم إلا بالقليل. والواقع أن قصصاً أحدث كثيراً جرى نقدها على حسية الأساليب «الوثائقية»، المستعارة من الصحافة أو من التليفزيون. وكان ذلك عن حق دون شك، في كثير من الحالات، غير أن المتمم لهذا هو ميل غير واع بالذات إلى انتحال طرائق من وسائل تعبير أخرى، وعدم النظر إلى «الأدب» على أنه مقولة لا تمسّ. وكمتمم لهذا الانفتاح، وكدلالة على أهمية القصة في البيئة الثقافية البرازيلية، تجدر الإشارة إلى كيف كان

الكثير من أفضل الأفلام البرازيلية اقتباسات من روايات، أو قصص، أو مذكرات. وسوف نشير إلى قليل منها في سياق الصفحات التالية.

والحقيقة أن ماشادو كان بشيراً عظيماً، ومثالاً عظيما، غير أنه لم يكن ما طمح هو أيضاً إلى أن يكونه، شخصية مؤسس عظيم. (كان أول رئيس للأكاديمية البرازيلية للآداب، والتي أراد أن يكون لها دور قيادي لم تفز به أبداً في الحقيقة). ولا شك في أن هذا كان إلى حدّ بعيد النتيجة المنطقية لطبيعة واقعيته، التي كثيراً ما يحدث ألا يُنظر إليها حتى على ما هي عليه. إن علاقته الغريبة بقرائه هي المسؤولة عن هذا إلى حدّ بعيد. ورغم كل الطبيعة المثيرة للقلق والمدمرة بحدة لرسالته الجوهرية، تم تدجين ماشادو بسهولة في البرازيل الآخذة في التحديث والسطحية في أوائل القرن العشرين. لقد صار شكاكاً أنيقاً من نهاية القرن على غرار أناتول فرانس. والواقع أن حاجته إلى أن يكون جديراً بالاحترام كانت بالغة إلى حد أنه تعاون في خلق هذه الصورة الزائفة لنفسه. وكان الأمر بحاجة إلى سنوات من إعادة التقييم النقدي لتوطيد الشخصية الأكثر تعقيداً، والمميزة بكل عمق لبيئته الخاصة. وهناك بطبيعة الحال حدود لواقعية ماشادو وكان واعياً تماماً بها. فهو لايذهب إلى أبعد من مدينة «ريو»، أو إلى أبعد من طبقتيْها العليا والوسطى إلا نادرًا. ولاستيعاب أبعاد أخرى، يلجأ ماشادو إلى وسائل شتى (تتمثل واحدة منها في مجاز قد يثور هو ذاته حقاً في وجه الواقعية). فعندما يعلق على العبودية، على سبيل المثال، يكون ذلك من خلال أحداث عابرة، وإنْ مُريعة، تكشف فكاهتها بلا مواربة. كذلك الحادث المتصل «ببرودينسيو»، كبش فداء «براس كوباس»، الذي يشتري لنفسه عبداً ليجلده بعد أن يُعتق.

والحقيقة أن الافتقار إلى واقعية تقليدية عظيمة أو حتى صلبة ومُقنعة في البرازيل على طراز ديكنز، أو بلزاك، أو بيريث جالدوس Pérez Galdós (وهو افتقار تشترك فيه البرازيل مع بقية دول أمريكا اللاتينية) كان يعني أن كتابا أحدث عهداً أحسّوا بالتالي بأنهم أقلّ ثقة

في صلتهم بالواقع، كما أحسّوا بالارتياب إزاء أي فخاخ أيديولوجية قد تتربص منصوبة خلف تلك الكلمة البادية البساطة. إما هذا، بطبيعة الحال، وإما أنهم كانوا زائدي الثقة، وبالتالي الضحايا الغافلين لما لاحصر له من الأساطير الزائفة بصورة أو بأخرى، والتي ظلت هذه البلاد، الشاسعة، المعقدة، المختلطة عرقياً، المنقسمة اجتماعياً، تنزع إليها منذ العهد الباكر للفتح من جانب البرتغال.

والواقع أن أهم ناثريْن في أوائل القرن العشرين، ليما باريتو Lima Barreto وأوكليدس داكونيا Euclides da Cunha، كانا لا ماشاديين - anti - Machadian أسلوباً ونظرة. وكتاب داكونيا Os Sertóes «مرتفعات السرتون» - و«مرتفعات السرتون» هي المنطقة الداخلية المتخلفة، والتي تميل إلى الجفاف في الجزء الشمالي من البلاد - الذي يمثل سرده لثورة «كانودوس» Canudos الخلاصية ١٨٩٥ - ١٨٩٧، التي تزعمها «أنطونيو كونسيليرو» Antônio Conselheiro، مكتوب بنثر منمّق، تتناثر فيه العبارات العلمية، بحذلقة واثقة مختلفة أشدّ ما يكون الاختلاف عن ماشادو صاحب الأسلوب الأكثر تخفيفاً من وطأة الأمور والخفي التعقيد. وكتاب «مرتفعات السرتون» ليس رواية (والواقع أن أوكليدس أعلن أنه لن يكتب رواية، رغم أنه ينجح في كتابة عمل آسر مثلها تماماً، بالغ حدّ الكمال بالحبكة والشخصيات)، لكنه أكثر كثيراً من مجرد كتاب تاريخ. أما الأنصار المتعصبون «للكونسيليرو»، الآتون من بين الفلاحين المتخلفين في المنطقة الداخلية لولاية «باييا» Bahia، فيعتبرهم داكونيا نواة بلد ناشئ «الأساس الحيّ لعرْقنا»، وكذلك مجموعة من المتخلفين المتوحشين المنتكسين المختلطي الأعراق. (لم يكن أوكليدس داكونيا سوى ابن القرن التاسع عشر). ومن الصراع بين هاتين الأسطورتين - الزائفتين- ومن لقائه مع «السرتون» (وإن كان لقاء قصيرا جدا لم يشهد سوى الأسابيع الثلاثة الأخيرة من الحملة العسكرية ضد «الكانودوس») نشأ تعارض طارد كتاباً كثيرين منذ ذلك الحين، بين المناطق الساحلية الكثيفة السكان والمفترضة التحضّر للبرازيل، وبين المنطقة الداخلية

المجهولة تقريباً، المأهولة ليس بهنود قدّمت لهم صورة رومانسية كأولئك الذين صوّرهم جوزيه ده أليتكار José de Alencar (سلف ماشادو)، بل بفلاحين تطويعهم أقلّ سهولة. إنه انقسام هائل يمكن اعتباره نموذجاً لأمريكا اللاتينية قاطبة كما تبيِّن الصياغة الجديدة التي قام بها أخيرًا بارجاس يوسا Vargas Liosa لأوكليدس في «حرب نهاية العالم». كما طبع كتاب «مرتفعات السرتون» بطابعه الكثير من الأعمال القصصية في البرازيل كما سوف نرى، جراسيليانو راموس وجيمارانس روزا، على سبيل المثال.

ومثل ماشادو، كتب ليما باريتو عن «ريو»، وكان خلاسيا مثله. على أن الشبه بينهما ينتهي عند هذا الحدّ. ذلك أنه، كشخص مأساوي فقد صحته العقلية أكثر من مرة، وانتهى كمدمن على تعاطي الخمر، كان في ثورة عارمة ضدّ القيم السطحية لمجتمع يريد ـ مهما كان الثمن ـ أن يضع واجهة أوروبية على واقع حرون. ومرة أخرى، كان أسلوبه لاماشاديًا.. بسيطاً ومباشراً إلى حدّ الفظاظة، إنه أسلوب لا أدبيّ بعدوانية بمعايير الوقت الحاضر. وأفضل رواية له هي: Triste Fim de Policarpo Quaresma «النهاية الحزينة لبوليكاربو كاريسما» التي يقدم فيها رؤية تتسم بمثالية ساذجة عن البرازيل، المجسّدة في «كاريسما» Quaresma، وتكشف بالتدريج عجز البيروقراطية، وبلادة وتعصُّب المثقفين، وتخلف الريف، وأخيراً عنف وقمع زمانه ومكانه. ورغم كل نواحي قصوره - والحبكة هي أوهَى الخيوط التي يعلق عليها هجومه العنيف - فإنه كاتب مثير للتحدي، إنه أقلّ من ماشادو وأوكليدس قابلية للاستيعاب بسهولة من جانب ثقافة رسمية.

ولا ينبغي الخلط بين الحداثة في البرازيل والحركة التي تحمل الاسم نفسه في أمريكا الإسبانية وإسبانيا، والتي ظهرت قبلها بجيل، وآمنت بحماس بالتحديث الذي نظر إليه أوكليدس وليما باريتو على أنه مدمر للغاية. وكان النوع البرازيلي، بالأحرى، حداثياً بالمعنى الأنجلو ساكسوني، وظهر في العشرينات. وقد علقتُ من قبل على تبني هؤلاء الكتاب للتقنيات

الطليعية، التي اعتقدوا بإعجاب أنها ملائمة للواقع البرازيلي، والنخبوية المتفائلة ذات الأساس الثقافي التي ميزتهم أحياناً. والواقع أن الحداثة كانت مسألة تخص أقلية أكثر مما يكون الفن عادة في البرازيل.. أتى منها شعر جيد أكثر من القصص الجيد، وكان أفضل النثر شعرياً على الأقل بمعنى ما. ولا ينبغي أن نفترض، عند قراءته، أن الكتابة من أجل المستقبل ضمانة للنجاح، ليس أكثر مما كان البناء من أجله في «برازيليا».

والشخصيتان الأكثر إثارة للاهتمام في الحركة، وهما شريكا تأسيسها، هما أوزفالد ده أندراده Oswald de Andrade وماريو ده أندراده Mario de Andrade، وكلاهما من «سان باولو»، التي كانت تتحول في ذلك الحين بسرعة إلى المركز الاقتصادي للبلاد، ومدينتها «الحديثة» الأكثر تقدمية. والواقع أن كلا هذين الكاتبين (اللذين لم يكونا مرتبطين بصلة قرابة، وكانا في الحقيقة متعارضين أيديولوجيا بصورة جوهرية. والراديكالي والإصلاحي طريقة مغرية، وإن كانت غير كافية لوصف موقفيهما المتعارضين) أنتجا قصصاً حداثية بعدوانية، أوزفالد: Memórias Sentimentals de Joáo Miramar «المذكرات العاطفية لجوان ميرامار» وSerafim Ponte Grande «ساروفيم الجسر الكبير»، وماريو Macunaima «ماكونايما». وتتحدى كل هذه الأعمال التصنيف كروايات (وصف ماريو عمله بأنه رابسودية)، رغم أن لها حبكات عادية. وسنمضي إلى أبعد مما ينبغي إذا قلنا إنها تتحدى القراءة أيضاً، غير أن الأقسام القصيرة بطريقة تلغرافية (الفصول) في عمليْ أوزفالد، والتجاورات اللهجية العامية المربكة، والتزمت المفرط الذي يجري نقده بسخرية، والخصوصيات المحلية والتعابير الجديدة، والإحالات إلى الثقافة العالمية والأسطورة المحلية، إلخ، تجعلها دون أدنى شك أعمالاً من أجل أقلية. في ١٩٧٠ كانت «ماكونايما» موضوعاً لهواة جمع الأشياء النادرة، وكانت غير متوفرة في المكتبات لسنوات عدة. وبمعنى ما، مع ذلك، جرى إثبات صحة تفاؤل كلا الكاتبين بفضل نجاح الإنتاج في الستينات لمسرحية من تأليف أوزفالد O rei da Vela «ملك الشمع»، وإعادة تقييمه من جانب

شعراء اتجاه الشعر المحسوس concretist في الستينات، وبفضل فيلم مأخوذ من «ماكونايما» أخرجه جواكين بدرو ده أندراده Joaquim Pedro de Andrade (ومرة أخرى لا صلة قرابة)، وهو يشتمل على تحديث بالغ الذكاء على خلفية فترة القمع العسكري التي جرى إخراجه فيها، وقد شغلت كل هذه الأعمال الآن مكاناً آمناً في «التراث» (إذا كانت هذه هي الكلمة الصحيحة). وسيكون من الخطأ الجسيم أن نعزو هذا إلى المصادفة أيضاً، والواقع أن عالم المعجزة الاقتصادية، عالم الاحتجاج السياسي العاجز، وحتى مثالية الستينات، كل هذه الأشياء نفخت الروح في هذه الأعمال.

وتمثلت سمة صحية لجانب من الكتابة الحداثية - التي كان يمكن أحياناً أن تكون متفائلة بسذاجة وحتى بتعصُّب قومي عدواني مفرط - في كشف حقيقة النزعة القومية. وفي إعداده لـ «ماكونايما»، استخدم ماريو، في الحقيقة، أعمالاً أنثروبولوجية عن الميثولوجيا الهندية الأمريكية، غير أنه يستخدمها من أجل نقد خفيّ لبلاده. و«ماكونايما» (بطل بلاشخصية) يغير شكله وجلده بسهولة، مُسهماً بذلك في النغمة التي يغلب عليها الرعونة والصخب لهذا العمل. غير أن ثمن هذه التحولات المستمرة يجعل نفسه بالتدريج ملحوظاً. إنه التضحية بهويته، وربما بالتالي بهوية البلد الذي يجسّده، ممزّقا بين الماضي والحاضر، بين الغابة والمدينة الحديثة التي يمثلها رجل الصناعة في «سان باولو»: «فينسيسلاو بييترو بييترا»، الشهير باسم: «بيايّمان» العملاق. ومن نواح عدة، يستبق هذا الفشل الماثل في صميم حبكة الكتاب فشل ماريو نفسه، وهو شخصية من الشخصيات البطولية بالصورة الأكثر أصالة في الأدب البرازيلي والثقافة البرازيلية. وما كان بمستطاع أحد أن يكون أكثر منه إدراكاً للحاجة إلى الثقافة للوصول إلى أبعد من أقلية مرفهة، وما كان بمستطاع أحد أن يفعل أكثر مما فعل في سبيل نشر ذلك المثل الأعلى الديمقراطي. وفي «سان باولو» في الثلاثينات، كمدير لإدارة الثقافة بالمدينة، حاول أن ينشئ من أجل هذا أدوات أولية مثل المكتبات

التي تقوم بالإعارة. وقد فشل لأسباب أصابت ليما باريتو بارتياح مرير: تغيرت الحكومة، وتم فصله من منصبه.

ومع الانتقال من العشرينات إلى الثلاثينات، بدأ ردّ فعل ضد العناصر الأكثر طليعية للحداثة. من الجلي تماماً أنه كان من شمال شرق البلاد، المنطقة التقليدية (والمقفرة) لزراعة قصب السكر. وكانت أهداف ردّ الفعل هذا واقعية وكذلك إقليمية النزعة. أمّا إلى أيّ مدى نجحوا في ذلك فمسألة أخرى. وجزئياً، كان هذا ردّ فعل بأكثر من معنى، لأن هؤلاء الكتاب كانوا متأثرين بالسلطة الأبوية الأساسية والحنين إلى ماضٍ بسيط نسبياً (وإنْ كان من المسلّم به أنه وحشيّ) جرى التعبير عنه في الوصف الرائع لجيلبرتو فريره Gilberto Freyre لمجتمع المزارع الكولونيالية الكبيرة Casa grande e senzala «البيت الكبير وأكواخ العبيد في المزارع الكبرى». وهذا ماثل بكل وضوح في Menino de engenho «صبي مصنع السكر» لجوزيه لينس دو ريجو José Lins do Rigo وهو عمل ممتع للغاية يتخلى تقريباً عن ادعاء أنه رواية بعد افتتاحية ميلودرامية يقتل فيها أب البطل أمه أثناء نوبة جنون، ثم تهدأ «الرواية» لتقوم بهدفها الحقيقي، وهو تصوير الحياة في عالم حميم (حميم أحياناً بصورة تصدمنا، كما في مشاهد التكريس الجنسي مع الحيوانات، المألوف في مثل هذه البيئة) رغم أنه منظم بصورة هيراركية.

واستمر لينس دو ريجو بسيرة حياة بطليه (فهو يتتبع كلاً من ابن السيد وطفل المزرعة الأسود) في عالم المزارع الميكنة الأضخم، وإلى المدينة ذاتها، في مجموعة من الروايات. وبنزعة مماثلة، عالج جورج أمادو في أعماله المبكرة، المكتوبة في الثلاثينات، نضال العمال في مزارع الكاكاو في ولاية «باييا»، والواقع أنه كان الكاتب الوحيد الذي له شأن ما واقترب من الواقعية الاشتراكية Seara Vermelha «الحصاد الأحمر». غير أن رواياته اللاحقة، المكتوبة في الستينات والسبعينات، هي التي حققت تلك النجاحات الحاسمة مع جمهور القراء Gabriela, carvo e canela «جابرييلا، القرنفل والقرفة»، وDona Flor e seus dois maridos

«دونا فلور وزوجاها». يمكن حقاً أن يكون أمادو أكثر شعبية من الأمريكيين الإسبانيين المقروئين على أوسع نطاق، وقد تم تحويل بعض أعماله إلى تمثيليات تليفزيونية ميلودرامية وأفلام بالغة النجاح. وقد يبدو خاطئاً بالتالي، أن نقاداً برازيليين على قدر كبير من الإدراك والاعتدال، مثل ألفريدو بوزي Alfredo Bosi، وكذلك أن نقاداً برازيليين آخرين من ذوي الأقلام اللاذعة بصورة أكبر مثل نوجيرا جالفاون (التي سبق الاستشهاد بها)، وكارلوس جيليرمه موتا Carlos Guilhrme Mota، ينظرون إلى إنتاجه على أنه أحقر من الحقارة. والحقيقة أن تقديرهم سليم، ولا صلة له مطلقاً بتعالي المثقفين، لأنه تحت تفاؤله الشعبوي بطيبة وقوة الشعب البرازيلي، وواقعيته المفعمة بالثقة بالنفس ومعاداته للعنصرية، ودفاعه عن الفقراء، وعن السود، وعن النساء، يكمن تشخيص مبتذل وتبسيطي بسذاجة، يقوم على الخير الواضح والشر الواضح، والمنحرف أو السليم جنسياً، والسمات الحيوانية أو الفكرية، وعلى مجموعة من الكليشيهات الجنسية والعنصرية المشينة التي تضفي عليه سمة رجل من الماضي، وتجعل كتبه إما مقروءة بإفراط، لأنها تدغدغ الحواس، وإما لا تطاق. أما الأعمال السينمائية أو التليفزيونية المأخوذة من إنتاجه (مثلاً Tenda dos milagres «خيمة المعجزات») فهي في الغالب أفضل بكثير، لأنها تكتفي باقتباس الحبكة.

ولا شك في أن أعظم كاتب في المجموعة الشمالية الشرقية كان جراسيليانو راموس، مع كونه صديقاً لكل من لينس دو ريجو وأمادو (اللذين كان يشاركهما ميولهما الشيوعية في الثلاثينات والأربعينات)، إلا أنه يحقق كثافة وعمقاً لم يكن بوسعهما أن يطمحا إليهما مطلقاً. ومثل أهدافهما، كانت أهدافه واقعية، غير أنه كانت تنقصه ثقتهما المعززة أيديولوجياً بسهولة تحقيقها. وكان، أيضاً، مدركاً بقلق، مثل أوكليدس أو ليما باريتو، أن القصة قد لاتكون الوسيلة المثالية لمواجهة نفسه وقارئه بواقع غير مريح. وكان الموقف السردي يشكل دائماً مشكلة بالنسبة له. رواياته الثلاث الأولى مسرودة بضمير المتكلم، وتجاهد ببسالة

لتجعل السرد نفسه عملاً ذا طابع واقعي (أي، لتجعل من الجائز أن يكون شخص كهذا قد كتب هذا بالفعل، وناهيك بأن يكون قد كتب بهذه الطريقة، مثلما نجد «بنتو» ساردا واقعياً في «دون كازمورو»). و«باولو أونوريو» Paulo Honorio، سارد São Bernardo «سان برناردو» رجل لاضمير له شق طريقه في الحياة بصعوبة صاعداً السلم الاجتماعي إلى أن يتملك المزرعة التي تعطي الرواية عنوانها، فقط ليجد حياة مدمرة بفشله في فهم زوجته الحساسة والمتعلمة «مارجاريدا» Margarida. وفي بداية الرواية يفكر ملياً في إمكانية استخدام سكرتير يملي عليه أفكاره، فقط لينتهي إلى أن مثل هذا الشخص سيشوهها. أما «لويس دا سيلفا» Luis da Silva، البطل الصحافي غير الجذاب، والمتذمر، والذي يستحوذ عليه الشعور بالذنب، لرواية Angustia «الأسى»، فإنه يهبط حقا تحت المستوى الذي يمكنه ـ واقعياً ـ أن يكتب أفكاره فيه، والرواية أقرب إلى تيار الوعي. وأشهر رواية لجراسيليانو هي روايته القصيرة Vidas sêcas «حيوات جافة» حيث يتخلى عن هذه المشكلات، ويصطنع سردا بضمير الغائب موجزاً جداً، وموضوعياً بصرامة، ومحتفظاً بمسافة ليصف أهوال الحياة بالنسبة لـ «فابيانو» Fabiano، راعي بقر، و«سينيا فيتوريا» Sinhá Vitória. وطفليهما، وكلب، في «مرتفعات السرتون». وبصورة رائعة للغاية، يشرع في أنسنة هؤلاء الناس الذين جردتهم الحياة من إنسانيتهم إلى حد أنهم ينظرون إلى أنفسهم أحياناً على أنهم أفضل قليلاً من الحيوانات، ويقدمهم في صراعهم الخاسر من أجل البقاء في بيئة طبيعية واجتماعية معادية. وتنطبع في الذاكرة للغاية، وربما كانت كاشفة للغاية، صدامات «فابيانو» مع السلطات (التي يسميها، بلا مبالاة، «حكومة» governo)، والحقيقة أن الإحساس المستسلم بأنه سيخسر دائماً، وبأن العنف العقيم سيكون المحصلة الوحيدة لأي تمرد حقيقي، يجري إبرازه بالأفعال التي لا تكاد تكون أكثر من إيماءات. ورواية «حيوات جافة» عمل بطولي رائع tour de force يضارع قصص المكسيكي خوان رولفو Juan Rulfo: El llano en llamas (السهل المشتعل)، وPedro Páramo (بدرو بارامو)، وهما تدوران في منطقة ريفية مقفرة وعنيفة بصورة

ممثالة. في كلتا الحالتين، لا يمكن إلا أن نشير إلى نبل وصدق الكتابة، ومن الغريب حقا أنه، في كلتا الحالتين، أفضى هذا النجاح الهائل لواقعية عنيفة صارمة إلى طريق مسدود cul-de-sac. لم ينشر أي منهما قصصا بعد ذلك. على أن جراسيليانو كتب بالفعل تحفة أخرى لم تتمتع باعتراف مماثل (ولسوء الحظ لا تزال غير مترجمة): أطول كتاب له وهو Memórias do cárcere (مذكرات السجن)، المنشور بعد وفاته في ١٩٥٣، والذي تم تحويله في الآونة الأخيرة بنجاح إلى فيلم (ويجدر بالذكر أن روايتي «سان برناردو» و«حيوات جافة» جرى أيضا إخراجهما فيلمين من كلاسيكيات السينما البرازيلية). وتروي «مذكرات السجن» وقائع سجن جراسيليانو لمدة عام في ظل نظام فارجاس Vargasفي ٣٦-١٩٣٧، وليس مجافيا للحقيقة أن نصفها بأنها «منزل الأموات» البرازيلية، رغم أنها تفتقر إلى الإيمان المطلق بطيبة الشعب في عمل دوستويفسكي. والثيمة السائدة (وهذا يصدق أيضا، بطريقة ما على «حيوات جافة»، المكتوبة بصورة بالغة الدلالة بعد تجربة السجن) هي لقاء الكاتب بآخرين من مختلف الطبقات والأنماط بالصورة الأكثر درامية على مستعمرة عقاب المجرمين في جزيرة «إليا جرانده» Ilha Grande، حيث كان قد تم إيداع جراسيليانو جنبا إلى جنب مع المجرمين العاديين. والحقيقة أنه ليس ميالا أبدا إلى الإفراط في التبسيط، أو إلى تحويل الآخرين - وناهيك بنفسه - إلى أبطال. وبالأحرى فإن مشهد الفعالية المعقدة لعلاقات القوى هو ما يشكل سحر هذا الكتاب. إن «مذكرات السجن» تستكشف أعماق الاغتراب والتضامن التي لا يمكن ببساطة أن يمسها معظم الكتاب بصورة مقنعة، لأنهم لايمكن أن يكتبوا عن تجربة، ومع ذلك فإنها في البرازيل، جزئيا بسبب ميراث العبودية (الخفي في كثير من الأحيان)، غنية ومتنوعة بقدر ما هي محبطة أو مشجعة كتأملات حول الطبيعة البشرية. وفي كثير من الأحيان يؤدي هذا التحليل المثابر بجراسيليانو إلى أن يطرح الأدب نفسه ومكانة الكاتب، وحتى معرفة القراءة والكتابة نفسها، للنقاش في إنتاجه. فالكتابة قد تمنح سلطة، لكنها قد تثير شكوكا، وبذلك فإنها قد تجعل المرء حساسا إزاء أهواء الآخرين الذين

لهم أهداف أبسط، كما يحدث عندما يرجو أحد ضباط السجن من جراسيليانو أن يكتب له خطبة ثناء يعتزم أن يلقيها تكريما لحاكم مستعمرة العقاب (وربما بصورة غير متوقعة، ينجح جراسيليانو في شرح لماذا لا تعد هذه فكرة جيدة).

ومع اقترابنا من وقتنا الحاضر، يغدو التمييز بين نماذج التطور داخل القصة البرازيلية، التي كان تشبثها بالتراث عنيدا إلى حد ما دائما على كل حال، أكثر صعوبة بالضرورة. والحقيقة أن خلق جمهور قراء كبير والارتباط الطبيعي معه، وهو ما كان يمكن أن يعتمد عليه مثل هذا التراث، عرقله على كل حال الانقلاب العسكري في ١٩٦٤، والفرض التدريجي اللاحق- والرفع التدريجي بعد ذلك- لرقابة صارمة خلال الستينات والسبعينات، وكذلك ـ وبصورة أكثر خبثا ـ انتشار وسوء استخدام وسائل الإعلام الجماهيرية، وقبل كل شيء.. التليفزيون، الذي استخدمه النظام العسكري ومصالح أخرى في استمالة الجماهير بطبيعة الحال. غير أنه داخل إطار هذه البيئة المعادية نسبيا، استمر الكتاب، وبنجاح مذهل في كثير من الأحيان، في أن يقدموا للجمهور البرازيلي صورة لنفسه أكثر أمانة إلى حد ما، وفي أن يواصلوا ذلك الاستكشاف، الذي بدأه كتاب مثل ماشادو وجراسيليانو، للعلاقة بين الفرد والجماعة، سواء في بيئة حضرية أو ريفية، حالية أو تاريخية. ورغم كل شيء، تحتفظ القصة بدور لا غناء عنه، لأنها في أفضل أحوالها، تضع إصبعها على تجارب وحقائق غير متاحة في مكان آخر. ومما له دلالته أن الكتاب البرازيليين -بعكس التجربة الإسبانية الأمريكية - نادرا ما اتجهوا بسهولة إلى المنفى، وتنبع قوتهم بالأحرى من إصرارهم على أن يتكلموا من الداخل.

والكاتبان اللذان تحققت لهما السيادة في فترة ما بعد الحرب، وهما كلاريس ليسبكتور Clarice Lispector وجوان جيمارانس روزا Joáo Guimaráes Rosa، يلفتان نظر المرء قبل كل شيء بكثافة لغتهما. وكلاهما تجريبيان، وكلاهما عاشا، أو كتبا على كل حال، بصورة حافلة بالمجازفات.

وللوهلة الأولى، يبدو عالم ليسبكتور فرديا إلى حد منتهى الخصوصية. وتميل قصصها ورواياتها إلى أن تشتمل على شخصيات منفردة، نساء في أكثر الأحيان، في لقاءات- فاشلة أو قاصرة في كثير من الأحيان- مع أنفسهن، أو مع أفراد من أسرهن، أو مع آخرين متوتري المشاعر. وأنجح أعمالها ـ في رأيي ـ هي قصصها، وهي في كثير من الأحيان «لاتنسى» بالمعنى الحرفي تماما للعبارة، حيث تظل باقية بعد قراءتها كجزء من مخزون العقل. والكثير من ـ إن لم يكن معظم ـ القصص التي تضمها مجموعة Lacos de Familia (روابط أسرية) ومجموعة A Legiáo estrangeira (الفرقة الأجنبية) تعد من بين السرود الأكثر حيوية التي يمكن أن يأمل المرء في قراءتها عن نمو الأطفال، عن التوتر الأسري واللا مبالاة الأسرية، عن مفارقات تحقيق الذات. و«محاكاة الوردة»، إذا اكتفينا بمثال واحد، صورة مؤثرة للغاية لامرأة على حافة انهيار عصبي، فيما ينظر إليها زوجها، مرتبكا أكثر منه متعاطفا بصدق (ربما جزئيا لأنه يستاء مما يفترض أنه عقمها). وتتمحور الأزمة حول باقة من براعم الورد، من الجلي أنها رمز لنوع ما من الكمال البعيد المنال، غير أن تأثير كتابة كلاريس لا يتوقف فقط على مثل هذه «المعاني» التي لايتم التلميح إليها مطلقا بشدة، على كل حال، بل يتوقف كذلك على تصويرها للناس في بيئة اجتماعية بعينها. وهنا يغدو الورد، في الواقع، المحور الذي تدور حوله معركة. إذ إن «لورا» Laura لا تشعر فقط بأن الورد- بطريقة مبهمة ما - وردها، إنها تعرف أيضا أنها ينبغي أن تقدمه للصديق الذي دعاها هي وزوجها على العشاء. غير أنها لا تستطيع أن تعقد عزمها على أن تفعل هذا، جزئيا لأنها لا تعرف الطريقة التي تطلب بها من الخادمة أن تأخذ الورد، ذلك أنها لم تحسن مطلقا استخدام اللهجة الآمرة اللازمة، وهو شيء لابد منه sice qua non لربات المنازل من الطبقة الوسطى.

وجزئيا لأن هذه التداعيات الجنسية والاجتماعية غير المقحمة لكن المضللة تميل إلى أن تكون أقل أهمية في رواياتها. فإنها- على سبيل

المثال، رواية A paixáo segundo G. H. (عذابات ج. هـ.)، ورواية Amacá no escuro (التفاح في الظلام)- قد تكون أقل نجاحا بكثير. وهي، بدورها تتمحور حول الأزمة الوجودية، غير أن هذه الصفة تكتسب معنى فلسفيا أضيق. وتحاول كلاريس أن تضفي طابعا كونيا على نفس المكونات الماثلة بكمال في قصصها، وذلك عن طريق لغة تغدو ببساطة، مأخوذة إلى حدودها القصوى، مجردة أكثر مما ينبغي، وعاجزة عن حمل المعنى الذي تريده، وعن طريق بنية فوقية فلسفية أو أسطورية تبدو في نهاية المطاف متكلفة إلى حد السخف. و«عذابات ج. هـ.»، التي تشتمل على لقاء مع صرصار في حجرة خادمتها، المقصود بها أن تكون نظيرا لآلام المسيح بطريقة ما.

ومع جيمارانس روزا، من ناحية أخرى، يأتي الغوص في ميثولوجيا بعينها في المقام الأول. وكل أعماله تقريبا تدور في منطقة «السرتون»، والحقيقة أن طبعته منه ـ مهما كانت أصيلة أيضا ـ تقوم أيضا على السابقة الأدبية لأوكليدس داكونيا. وتبدو سيرة الشخصية الرئيسية في القصة القصيرة المبكرة الرائعة لروزا (والتي تحولت أيضا إلى فيلم ممتاز): A hora e vez de Augusto Matraga (ساعة وزمن آوجوستو ماتراجا) شبيهة للغاية بسيرة «الكونسيليرو» Conseilheiro، كما جرى وصفها في «مرتفعات السرتون»، قبل أن يضطلع بدوره الخلاصي. ورواية روزا العظيمة: «السرتون الكبير: دروب» هي في آن معا قصة رعاة بقر، وبحث استحواذي في إمكانية وجود الشيطان، وكل هذا مسبوك في لغة رائعة من المستحيل تقريبا ترجمتها بصورة ملائمة، في مزيج من اللغة العامية واللهجية، من المعرفة الواسعة والابتكار، وهي لغة يمكن أن تكون صعبة حتى على البرازيليين، رغم أنها مناخ يجد معظم الناس أنه يستحق أن يتكيفوا معه.

والواقع أن ليسبكتور وجيمارانس روزا كانا كلاهما كاتبين جريئين، على مستوى اللغة، والحبكة، وتحليل المواقف الأخلاقية والعاطفية، على حد سواء. وهكذا، أضافا أبعادا جديدة إلى كتابة النثر في اللغة البرتغالية،

وقدما إلهاما جديدا للكتاب الأصغر سنا، الذين تعلموا طرقا لحكاية القصص لم تكن مفتوحة أمامهم من قبل في لغتهم. غير أن آخرين بذلوا قصارى جهدهم، دون أن تغيب عن أنظارهم إنجازاتهما، ودون العودة إلى الواقعية الساذجة، في سبيل توظيف هذه الطرق في سياق إطار أقل أسطورية، وأكثر اجتماعية وتاريخية، وهو اتجاه تزايد بطبيعة الحال مع إنهاء الرقابة، لكنه بدأ قبل ذلك بكثير، بل له حتى سوابق تتمثل في كتاب مثل كورنيليو بينا Cornélio Pena ولوسيو كاردوسو Lucio Cardoso (Amenina morta «الفتاة الميتة»، وCronica da casa assassinada «حوليات منزل مغتال») بسرود تفصيلية وبارعة عن الأوليجارشية المتدهورة في المناطق السابقة لزراعة البن بولاية ريو دي جانيرو. والواقع أن كلاريس نفسها شاهد على هذا الاتجاه نفسه، وبصورة خاصة في روايتها القصيرة الأخيرة، المنشورة بعد وفاتها (والتي تحولت بدورها إلى فيلم ناجح)، A hora da estrela (ساعة النجمة): قصة «مكابيا» Macabea، وهي ناسخة آلة كاتبة فقيرة، وموتها العبثي تحت عجلات سيارة مرسيدس بمجرد أن تنبأت لها «مدام كارلوتا» Madame Carlota ـ وهي عرافة وبغي سابقة ـ بالحب والمال. وهذا لا يعني أن كلاريس تتخلى عن البحث الوجودي. الأمر الملفت للنظر بالأحرى هو قدرتها على توسيع نطاقه ليشمل نوعا من الإفقار يمتد متجاوزا المال إلى معلومات ضئيلة لا معنى لها منتزعة من سياقها تلتقطها «مكابيا» من «إذاعة الثقافة» Radio Cultura، لرفيقها الذكوري macho المرعب «أوليمبيكو» Olimpico، وسواه.

ومن جيل أصغر قليلا يأتي آوتران دورادو Autran Dourado، وهو روائي من «ميناس جيرايس»، تدور أحداث الكثير من قصصه في بلدة داخلية منعزلة اسمها Duas Pontes «دوواس بونتيس» أو بلدة «الجسرين»، وهو اسم ملائم، لأن هذه البلدة عالم مصغر يفضي إلى أماكن كثيرة أخرى. الواقع أن النطاق التاريخي والسيكولوجي لهذا الكاتب عريض بصورة خادعة. وفي واحدة من أفضل هذه القصص: Opera dos mortos

«أوبرا الموتى»، التي تدور حول مثلث يتألف من أشخاص متوحدين هم: «روزالينا» Rosalina الأرستقراطية، السليلة الأخيرة لأسرة كانت ذات نفوذ، وخادمها الأصم «كيكينا» Quiquina، و«جوكا باسارينيو» Juca Passarinho (الطائر الصغير Joey Bird) صاحب السبع صنائع. نحس بالطريقة التي شكلت بها قوى التاريخ الحبكة المأساوية. ومن الجد الوحشي صائد العبيد إلى الأب الإصلاحي المثالي الذي تسرق منه حياته السياسية عن طريق الاحتيال، نتتبع مسارا لا يترك سوى بصيص أمل في مستقبل أفضل، أو حتى في عقد صلة حقيقية بين الطبقات التي قد ينعقد عليها الأمل في هذا المستقبل. والحقيقة أن «الأوبرا» التي تدور إلى النهاية بين هذه الشخصيات تمثل - على كل كثافتها - عرضا أصم إلى حد بعيد جدا.

وفي شكل مختلف تماما، ولكن في فترة مماثلة، يأتي دالتون تريفيزان Dalton Trevisan، وهو كاتب قصة قصيرة يتسم بعنف الحذف والإيجاز، ويستكشف، هذه المرة في إطار حضري معاصر، حياة الأشخاص العاديين- الذين يتضح في النهاية في كثير من الأحيان أنهم استثنائيون، بطرق مرعبة- في الأقاليم، في حالته: «قرطبة» Curitiba، عاصمة الولاية الجنوبية: «بارانا» Paraná. وقد نشر أنطونيو كايادو Antônio Callado- وهو واحد من كتاب قليلين نجحوا في أن يقيموا في البرازيل وينشروا مواد مثيرة للجدل سياسيا في أسوأ فترات الرقابة- قصته: Quarup «كاروب» (والعنوان مأخوذ من طقس هندي) في ١٩٦٧. وهي محاولة طموحة وشجاعة للإمساك بلب الموقف السياسي الذي يواجه البرازيل في أعقاب الانقلاب، وسرد شبه وثائقي لأحداث الانقلاب ذاته كما حدث في الشمال الشرقي، إحدى المناطق التي كان فيها القمع هو الأشمل والأعنف منذ البداية. على أن روايته اللاحقة Bar Don Juan (بار دون جوان) (١٩٧٢)، التي كان لها شرف أن يسحبها مسؤولو الرقابة من السوق بسبب معالجتها الصريحة للتعذيب، محاولة أقل نجاحا لتصوير الإرهابيين الحضريين الرومانسيين اللامسؤولين في تلك الفترة.

ومنذ الرفع الفعلي للرقابة في أواخر السبعينات، ظهر عدد كبير من الروايات، والقصص، والمذكرات، والأفلام شبه الوثائقية. والواقع أن المادة التي ينبغي بحثها، في هذه المرحلة، هائلة جدا، وقراءاتي محدودة جدا فيما يتعلق بها إلى حد يغدو فيه من الضروري التخلي عن كل تظاهر بالموضوعية، ولا أرجو إلا أن تكون الروايات الثلاث التي اخترتها لتمثل الفترة الأخيرة نموذجية في تمثيلها كما تبدو لي. وأنا أتناولها جزئيا لأنني أقرؤها باستمتاع هائل، وجزئيا لأنها كلها متاحة بالإنجليزية.

ورواية Maira «مايرا» لدارسي ريبيرو Darcy Ribeiro هي عمل عالم أنثروبولوجيا- ومنفي سابق، ونائب حاكم ولاية «ريو» في وقت لاحق- يعود، ربما بصورة غير متوقعة، إلى إحدى أقدم ثيمات الأدب البرازيلي الرومانسي قبل ماشادو: ثيمة الهندي. غير أن هذه الرواية تفعل هذا بمزيج غنائي ويائس في آن معا، مدرك لأصالة وجمال الثقافة الهندية، ولواقع أنه محكوم عليها بالانقراض من جانب «حضارة»، «متفوقة»، «مسيحية». ويدور الصراع في عقل «إساياس/أفا» ISiaias/ Ava وهو قسيس من أصل هندي، غير أنه كان قد تم أخذه طفلا ليتم ترسيمه في روما، وكذلك في الغابة نفسها، فريسة للتطور التجاري، وكذلك للإرساليات البروتستانتية والكاثوليكية.

ورواية A festa «الاحتفال» لإيفان أنجيلو IVan Angelo هي بمعنى ما الوريثة على الأقل لروايتين ممتعتين أخريين تدوران حول الأزمات التي تواجه أجيالا متتالية من المثقفين، وهما رواية O amanuense Belmiro «بلميرو الكاتب»، ١٩٣٧، لسيرو دوس أنجوس Cyro dos Anjos، ورواية O encontro marcado «اللقاء المحدد»، ١٩٥٦، لفرناندو سابينو Fernando Sabino. وتدور الروايات الثلاث كلها في «بيلو أوريزنته» Belo Horisente، عاصمة ولاية «ميناس جيرايس»، المدينة الثالثة بالبرازيل، وهي ـ كما يدرك أنجيلو ذاته ـ نوع من نقطة وسطى بين الأجزاء الساحلية والجنوبية المتقدمة من البلاد، والشمال والداخل الأكثر فقرا، غير أن رواية «الاحتفال» تتجاوز سابقتيها ليس فقط في المجال الاجتماعي، بل كذلك

في المجال الزمني، التاريخي، والواقع أنها تبدأ باستشهادات من «مرتفعات السرتون»، وتصف بعبارات وثائقية بصورة قصصية وصول نحو ٨٠٠ لاجئ من الجفاف الذي أصاب «السرتون» الشمالي الشرقي في ١٩٧٠، ويجري تفسير هذا الوصول، ومحاولات بعض الأشخاص ذوي النوايا الحسنة أن يفعلوا شيئا من أجل المنكوبين Flagelados، كما يسمونهم، كجزء من مؤامرة سياسية، وبالتالي تقمعها الشرطة. وحول هذه النواة، ومن خلال العودة إلى الوراء flashbacks، تعرض علينا سير حياة ومصائر نحو عشرين أو ثلاثين من الأشخاص الذين يتباينون من حيث الطبقة، والعمر، والنوع، والنشاط الجنسي، والآراء السياسية. ورواية «الاحتفال»، ضمن مزاياها الأخرى، رواية مسلية جدا، كما أن أنجيلو لم يخن التوقعات بكتابه الثاني، وكان مجموعة من خمس قصص قصيرة مترابطة بعنوان Acasa de video «بيت الزجاج»، والاتجاه الاجتماعي لكلا الكتابين رائع، وعلى الرغم من كل هذا ـ وكما ذكرت منذ قليل ـ تم توجيه نقد إلى بعض القصص الجديدة على أنها ذات طابع وثائقي وصحفي مفرط بأسوأ معنى، وأنا أتساءل ما إذا كانت مهنة أنجيلو (يعمل في الصحافة في «سان باولو») لم تسمح له بأن يشق طريقا جديدا.

وأحدث الروايات الثلاث التي اخترتها هي Viva a povo brasileiro «عاش الشعب البرازيلي» لجوان أوبالدو ريبيرو Joáo Ubaldo Ribeiro. والواقع أن ريبيرو، المعروف أصلا باعتباره مؤلف Sargento Getulio «الرقيب جيتوليو»، يحاول هنا كتابة رواية تاريخية شاملة كبرى تتسم بروح أعمال جارثيا ماركيث Garcia márquez أو أليخو كاربنتيير Alejo Carpentier، ولا شك في أنه يدين لهما ـ وخاصة للأول ـ بشيء ما. وعلى الرغم من تركيزه على جزيرة «إيتابيريكا» Itaperica في ولاية «باييا» إلا أنه ينجح في الإحاطة بالاحتلال الهولندي في القرن السابع عشر، والاستقلال في ١٨٢٢، وحرب باراجواي، وكانودوس Canudos – مرة أخرى – والنظام العسكري. ومن المهم كذلك أنه ينتقل بين

الطبقات، محيطا بالمضطهدين (بفتح الهاء) وكذلك المضطهدين (بكسر الهاء)، وإذا كانت الرسالة التاريخية تنحرف في بعض الأحيان لتقترب بصورة خطرة من حماس جورج أمادو للفضائل الثابتة «للشعب» (رغم أنها لا تقترب إلى الحد الذي قد يوحي به عنوان الرواية)، فإن هذا لا يمنع رواية «عاش الشعب البرازيلي» من أن تكون رواية مثيرة ومكتوبة بحيوية. وأميل إلى القول إن هذا، قبل كل شيء، لأنها تأخذ التاريخ بجدية وليس ـ كما كانت الموضة أيضا في الأعوام الأخيرة ـ كمزحة غريبة.

والحقيقة أن «مايرا»، و «الاحتفال»، و «عاش الشعب البرازيلي» روايات بالغة الاختلاف، ولا ينبغي أن يدهش هذا أحدا. وواقع أنها جميعا أعمال مثيرة وجادة تتناول تجارب تتجاوز نطاق المشهد اليومي للقراء، وأنها بيعت جيدا، ووصلت إلى الطبعات الخامسة والسادسة،ربما لا يقول كل هذا. غير أن هذه العوامل كلها مجتمعة، والعامل الأخير بصورة خاصة، تشير إلى شقوق في الإطار الذي وضعته في بداية هذا المقال. والحقيقة أن المستقبل يقدم سببا لتفاؤل كبير.

●●●

أود أن أشكر الأشخاص الذين ـ بين آخرين ـ ساعدتني كتاباتهم و/أو محادثاتهم في التفكير في هذا المقال وفي كتابته مثل: والنيس نوجيرا جالفاون Walnice Nogueira Galváo، وجوزيه جيلييرمه ميركيور José Guilherme Merquior، وسيلفيانو سانتاياجو Silviano Santiago، وروبرتو شفارتس Roberto Schwarz، وديفيد تريس David Treece.

ترجمة: خليل كلفت

دونا باولا

ماشادو ده أسيس

جواكين ماريا ماشادو ده أسيس Joaquim Maria Machado de Assis (١٨٣٩ - ١٩٠٨)

- ولد وعاش في ريو دي جانيرو.
- روائي وقاص برازيلي هو الأب الحقيقي للأدب البرازيلي الحديث، وهو مؤسس الأكاديمية البرازيلية للآداب ورئيسها حتى وفاته.
- تربو مجلدات أعماله الكاملة على واحد وثلاثين مجلدا، غير أن شهرته العالمية تقوم على إنتاجه الروائي والقصصي والشعري منذ ١٨٨٠ وحتى وفاته، وتقوم بوجه خاص على رواياته الثلاث:

ـ مذكرات براس كوباس يكتبها بعد وفاته (١٨٨٠).

ـ كينكاس بوربا – الفيلسوف أم الكلب؟ (١٨٩١).

ـ دون كازمورو (١٩٠٠).

دونا باولا

ماشادو ده أسيس

ما كان بوسعها أن تصل في وقت أنسب. دخلت دونا باولا حجرة الجلوس في اللحظة نفسها التي كانت تجفف فيها ابنة أختها عينيها المتورمتين من الدموع. اندهشت، كما اندهشت ابنة أختها فينانسينيا، التي كانت تعرف أن خالتها نادرا ما كانت تنزل من حي تيجوكا، حيث كانت تعيش. كان ذلك في مايو ١٨٨٢، وكانت فينانسينيا لم تر خالتها منذ عيد الميلاد. كانت دونا باولا قد نزلت في اليوم السابق لتقضي الليل مع أختها في شارع لافريدو. واليوم، كانت قد ارتدت ملابسها وأسرعت لتزور ابنة أختها بعد الغداء مباشرة. أرادت جارية رأتها أن تعلن عن وصولها، غير أن دونا باولا طلبت منها ألا تفعل. ولكي تتجنب حفيف تنورتها، سارت على أطراف أصابع قدميها ببطء بالغ إلى باب حجرة الجلوس، وفتحته، ودخلت.

«لماذا كل هذا؟!» صرخت متسائلة.

ألقت فينانسينيا بنفسها بين ذراعي دونا باولا، وانفجرت باكية. قبلتها خالتها، وضمتها إلى صدرها، وهدأتها، وأصرت على أن تقول لها ما الأمر. هل هي مريضة، أم...

«أتمنى من الله أن أكون مريضة! ويكون الموت أفضل!» قاطعت الشابة.

«لا تقولي هذا الكلام الفارغ! ماذا جرى؟ هوِّني عليك، قولي لي»

جففت فينانسينيا عينيها وحاولت أن تتكلم. وبعد خمس أو ست كلمات، تدفقت الدموع من جديد، بغزارة وقوة جعلتا دونا باولا تفكر في أن من الأفضل أن تنتظر حتى تقل الدموع. وفي الوقت نفسه، خلعت

عباءتها الصغيرة السوداء وقفازيها. كانت امرأة أنيقة مدهشة ذات عينين واسعتين جذابتين من المؤكد أنهما كانتا لا تقاومان عندما كانت أصغر سنا. وفيما كانت ابنة أختها تبكي، اتجهت هي بهدوء لتغلق باب حجرة الجلوس، ثم عادت إلى الأريكة. وبعد دقائق قليلة، توقفت فينانسينيا عن البكاء وأخبرت خالتها بما حدث.

ولم يكن ما حدث أقل من مشاجرة مع زوجها، وكانت من العنف إلى حد أنهما تحدثا حتى عن الانفصال. وكانت الغيرة هي السبب. فمنذ فترة كانت الشكوك تساور زوجها بشأن رجل معين، غير أنه في المساء السابق، بعد أن رأى زوجته ترقص مع ذلك الرجل مرتين وتتحدث معه لدقائق عدة، استنتج أنهما مرتبطان بعلاقة حب. وعندما عادا إلى بيتهما كان متجهما. وفي الصباح التالي بعد الإفطار، انفجر وقال أشياء عنيفة وقاسية، ردت هي عليها بالمثل.

«أين زوجك الآن؟» استفسرت خالتها.

«لقد انصرف. أعتقد أنه ذهب إلى المكتب»

سألتها دونا باولا عما إذا كان مكتبه لا يزال في المبنى نفسه، وطلبت منها ألا تقلق، فليست هناك مشكلة خطيرة. وفي غضون ساعتين ستتم تسوية كل شيء. ولبست قفازيها بسرعة.

«هل أنت ذاهبة إلى هناك، يا خالتي؟»

«ذاهبة إلى هناك؟ بالطبع ذاهبة! زوجك رجل طيب. كانت فقط مشاجرة عاشق. رقم ١٠٤؟ أنا في طريقي، ولا تدعي الجواري يرينك بهذا المظهر!».

تكلمت دونا بولا بطلاقة لسان، وبثقة بالنفس، وبلطف. لبست قفازيها، وأقسمت فينانسينيا وهي تساعد خالتها في ارتداء العباءة الصغيرة على أنها تحب كونراد حب عبادة رغم مشاجرتهما. وكان كونراد، زوجها، يمارس المحاماة منذ ١٨٧٤. وعندما غادرت دونا باولا، أمطرتها ابنة

أختها بوابل من قبلات العرفان. والحقيقة أنه ما كان بوسعها أن تصل في وقت أنسب. وفي طريقها لزيارة كونراد، فكرت دونا باولا في الحادث مليا بفضول، إن لم يكن بارتياب، قلقة قليلا بشأن ماذا يمكن أن تكون الحقيقة الكاملة للمسألة. وعلى كل حال، كانت قد عقدت عزمها على استعادة السلام العائلي.

عندما وصلت إلى مكتب زوج ابنة أختها، لم يكن هناك، لكنه وصل بعد ذلك بقليل. وبعد دهشته الأولى عند رؤيتها هناك، خمن موضوع زيارتها. وقد اعترف بأنه بالغ في رد فعله مع زوجته وقال إنه لم يكن يتهمها بالخروج على الأخلاق أو بانحراف النوايا. غير أنها كانت تتصرف بنزق: كانت ودودة أكثر مما ينبغي مع الرجال الآخرين، وكانت مغرمة بالنظرات العابثة والكلمات المعسولة في حضورهم. وكان عدم الاحتراس إحدى البوابات المؤدية إلى سوء السلوك. وعلاوة على هذا، لم يكن لديه أدنى شك في أن زوجته والرجل المعني بالأمر كانت تربط بينهما علاقة حب. وكانت فينانسينيا لم تحدثها إلا عن المساء السابق. فلم تذكر أربع أو خمس وقائع أخرى، جرت إحداها في المسرح، وتطورت إلى فضيحة شائنة. ولم يكن ليقبل المسؤولية عن السلوك المستهتر الطائش لزوجته. وإذا كانت تريد أن تطوف هنا وهناك لتقع في الحب، فسيكون عليها أن تدفع ثمن ذلك.

استمعت إليه دونا باولا حتى انتهى من كلامه، ثم جاء دورها لتتكلم. وافقت على أن ابنة أختها هوائية غير أنها نسبت هذا إلى شبابها. فالفتاة الجميلة لا تملك إلا أن تجذب الاهتمام، وكان من الطبيعي لفينانسينيا أن تتملقها النظرات المعجبة لرجال آخرين. كما أنه من المفهوم أن يفسر الرجال الآخرون وكذلك زوجها استجابتها لمثل هذا التملق على أنه علامة حب، وكان هيامهم وغيرته سبب المشاجرة. أما هي، من جانبها، فقد رأت ابنة أختها تبكي بحرقة منذ قليل. وعندما غادرت، كانت فينانسينيا تتفطر حزنا، وكانت محطمة القلب، بل حتى تحدثت عن رغبتها في أن تموت بسبب ما قاله لها. فإذا كان يعزو

تصرفاتها حقا إلى الحماقة فقط، فلماذا لا يستمر بحصافة وتفهم؟ إنه ينبغي أن يستخدم النصح والتعقل، ويمكنه أن يساعدها على تجنب مواقف مماثلة في المستقبل، وأن يوضح لها حتى كيف أن مظهر الصداقة والود إزاء الرجال الآخرين يمكن أن يساء تفسيره وأن يسيء إلى سمعتها.

تحدثت السيدة الطيبة ما لا يقل عن عشرين دقيقة، وعبرت عن نفسها بفصاحة ودبلوماسية جعلتا زوج ابنة أختها يحس بأن قلبه يلين. وقد قاوم ـ بالطبع - دقيقتين أو ثلاث دقائق، ولكي يتجنب أن يبدو متساهلا أكثر مما ينبغي، أعلن أن كل شيء بينهما قد انتهى. ولتبرير نفسه، استدعى ذهنيا حججه ضد الصلح. غير أن دونا باولا ظلت تنظر إلى الأرض إلى أن مرت موجة سخطه، وعندئذ نظرت إليه بعينين واسعتين، حصيفتين، متوسلتين.

أدركت دونا باولا أن كونراد لن يستسلم بسهولة فاقترحت حلا وسطا: «اصفح عنها، وتصالحا، وعندئذ سآخذها إلى تيجوكا لتقضي شهرا أو شهرين معي. سيكون نوعا من النفي المؤقت بالنسبة لها. وفي الوقت نفسه، سأتكفل أنا بتقويمها. موافق؟».

قبل كونراد. وبمجرد أن حصلت دونا باولا على موافقته، استعدت للمغادرة لتنقل إلى ابنة أختها الخبر المشجِّع. ورافقها كونراد إلى السلم، حيث تصافحا. ولم تترك دونا باولا يده إلا بعد أن كررت توصيتها بأن يمضي في حياته بحنان وحصافة، ثم ـ وكأن فكرة عنت لها بعد تفكير ـ أضافت: «وسوف ترى أن الرجل موضوع الحديث لا يستحق حتى دقيقة واحدة من الوقت الذي قضيناه مشغولين به».

«اسمه فاسكو ماريا بورتيلا»

شحب وجه دونا باولا. أيُّ فاسكو ماريا بورتيلا؟ ذلك السيد المسن، الدبلوماسي السابق الذي.... لا، كان قد أحيل إلى المعاش، وعاش في أوروبا سنوات عدة، وحصل أخيرًا على لقب بارون. إنه ابنه، وغد تافه. كان قد عاد إلى ريو من أوروبا قبل ذلك بوقت قصير. وشدت دونا باولا

على يد كونراد وأسرعت نازلة السلم، ومرتبكة ومستثارة، قضت دقائق عديدة عند بسطة السلم تراجع حركات ضبط عباءتها الصغيرة. وكانت تحملق في الأرضية وهي تمعن التفكير في الموقف، ثم انصرفت لتلتقي بابنة أختها، حاملة معها اقتراحها الخاص بالصلح مع كونراد وبشروط تحقيقه. وقبلت فينانسينيا كل شيء.

بعد هذا بيومين، ذهبا إلى بيت دونا باولا في حي تيجوكا. وإذا كان قد بدا أن فينانسينيا فقدت شيئا من حماسها الأول للرحلة، فمن المحتمل أن سبب هذا الفقدان هو فكرة النفي أو الحنين إلى ما كانت قد تركته وراءها. وعلى كل حال، دخل اسم فاسكو في حي تيجوكا. وإذا لم يكن في كلا الرأسين فقد كان على الأقل في رأس دونا باولا، حيث كان نوعا من الصدى، صوتا بعيدا أو سارا، شيئا بدا أنه يسمع من زمن مغني الأوبرا شتولتس ومركيز بارانا. وكانت تلك الأصداء البعيدة هشة هشاشة الشباب ذاته، وأين كان أولئك الخالدون الثلاثة الآن؟ كانوا مبعثرين وسط الخرائب البعيدة للسنوات الثلاثين الماضية. والحقيقة أن دونا باولا، التي لم يكن لديها أي شيء آخر تتطلع إليه، عاشت بذكريات الماضي تلك.

على أن فاسكو الكبير كان أيضا شابا ذات يوم وأحب، ودون أن يدري شريكاهما في الزواج كانا، هو ودونا باولا، يترعان كأسيهما، ولأعوام عديدة كان كل منهما يروي ظمأ الآخر. وحيث إن الرياح العابرة تعجز عن تسجيل كلام البشر فلا سبيل إلى الكشف هنا عما قيل في ذلك الحين عن مغامرتهما التي انتهت في نهاية المطاف. كانت سلسلة من الساعات الحلوة والمرة التي امتزجت بالمتع والدموع، بالابتهاج والغضب، وبمختلف المسكرات الأخرى التي استخدمتها السيدة عندما ملأت كأس حبها حتى طفحت. وقد أفرغت الكأس إلى أن جفت ولم تلمسها مرة أخرى قط. فالتخمة أعقبها الزهد، والرأي العام كوّنه هذا الطور الأخير. ومات زوجها وتتابعت السنوات. ودونا باولا الآن سيدة زاهدة وورعة، مهيبة ويحترمها الجميع.

عادت ابنة أختها بتفكير دونا باولا إلى الماضي. فقد أيقظ الموقفان المتماثلان، اللذان اختلطا بنفس الاسم ونفس الدم، بعض الذكريات القديمة. وكانتا ستعيشان معا في تيجوكا لمدة أسابيع قليلة، وكان على فينانسينيا أن تتبع توجيهات خالتها. وكان على دونا باولا أن تحاول أن تتحدى ذاكرتها. فإلى أي مدى كان بوسعها أن تعيش من جديد تلك الأحاسيس من الماضي؟

«ألن نذهب مطلقا إلى المدينة؟ ولا حتى لزيارة قصيرة؟» سألت فينانسينيا، ضاحكة، في الصباح التالي.

«هل أصابك الملل هكذا بسرعة؟»

«لن يصيبني الملل هنا أبدا، إنما كنت أسأل ما إذا...»

هزت دونا باولا، ضاحكة أيضا، إصبعها بالنفي، ثم سألت ابنة أختها ما إذا كانت قد أوحشتها المدينة. نفت فينانسينيا هذا، وأعطت مزيدا من الوزن لردها بالسماح لزاويتي فمها بأن تتدليا، لكي تعكسا ازدراءها أو عدم اكتراثها. لقد بدت وكأنها كتبت خطابا قالت فيه أكثر مما قصدت أن تقول. وتفاديا للاستهتار الطائش لشخص يندفع لينقذ أباه من حبل المشنقة، كانت لدى دونا باولا العادة الطيبة المتمثلة في القراءة ببطء. وقد ركزت اهتمامها على ما بين الحروف وما بين السطور، وفهمت كل شيء، ووجدت رد ابنة أختها مبالغا فيه.

«بينهما علاقة حب»، هكذا فكرت.

وأيقظ هذا الاكتشاف ذكريات ماضيها النائمة، غير أن الذكريات عادت وكأنها مجموعة من بنات الكورس: بعضهن ببطء وبصورة موحية، وبعضهن الآخر بحركات سريعة ومفعمة بالحيوية. غنّين، وضحكن، وقلبن الدنيا. عادت ذاكرة دونا باولا إلى حفلات رقص الأيام الخوالي. فتذكرت الفالسات الأبدية التي جعلت الجميع يحملقون فيها بدهشة، وتباهت على ابنة أختها برقصات المازوركا، الرقصة الأكثر رشاقة في العالم، والمسرح، وألعاب الورق، وبصورة غير مباشرة: القبلات. غير أن كل

شيء - وكان هذا هو الشيء الغريب في الذكريات - كان موصوفا بالحبر البارد والباهت لسجل قديم، هيكل عظمي فارغ للتاريخ كان يفتقر إلى روح حي. كل شيء حدث في رأسها. وحاولت دونا باولا أن تخلق تزامنا بين قلبها ورأسها لترى ما إذا كان بوسعها أن تشعر بشيء يتجاوز مجرد النسخ الذهني لماضيها، غير أنه رغم كل المحاولات لاستدعاء المشاعر القديمة، لم تعد أي مشاعر منها. لقد ابتلعها الزمن.

ولو كان بمستطاعها أن تنفذ إلى قلب ابنة أختها فربما استطاعت أن ترى صورتها هي منعكسة هناك، وعندئذ... وبعد أن سيطرت هذه الفكرة على دونا باولا، صار من الأصعب عليها أن تركز على إصلاح حال ابنة أختها، مع أنها كانت مشغولة بإخلاص بسعادتها، وكانت ترغب في أن ترى جمع شملها مع كونراد. والحقيقة أن الخطاة المعتادين على الخطيئة قد يرغبون بإخلاص، لكي يضمنوا لأنفسهم الصحبة في المطهر، في أن يروا الآخرين يقترفون الخطايا أيضا، غير أن اقتراف الخطايا لم يكن هو المسألة هنا. وشددت دونا باولا على فضائل كونراد وسموِّه، وقالت لابنة أختها أيضا إن الأهواء المنفلتة يمكن أن تحطم زواجها، كما يمكن ـ وهذا هو الأكثر مأساوية ـ أن تؤدي إلى نبذ زوجها لها.

وعزز كونراد صحة تحذيرات دونا باولا عندما قام بزيارته الأولى بعد ذلك بتسعة أيام. كان باردا عندما دخل وعندما غادر. وفزعت فينانسينيا. كانت تأمل في أن يؤدي انفصالهما تسعة أيام إلى إلانة زوجها، وقد ألانه في الواقع. غير أنه، لكي يتفادى مظهر الاستسلام السهل، أخفى مشاعره الحقيقية، وكبح جماح عواطفه. وكان لهذا تأثير أكبر من أي شيء آخر. وكان خوف فينانسينيا المفزع من أن تفقد زوجها هو العامل الرئيسي في إصلاح حالها. ولم يكن بوسع المنفى وحده أن يحقق كل ذلك.

وبعد زيارة كونراد بيومين فقط، وعندما كانت كلتا السيدتين تقتربان من بوابة الفيلا لتشرعا في مشيهما اليومي، رأتا رجلا على ظهر حصان آتيا في اتجاههما. ركزت فينانسينيا عينيها عليه، وأطلقت صرخة قصيرة،

وجرت لتختبئ وراء السور. فهمت دونا باولا وانتظرت. كانت ترغب في أن ترى الرجل عن قرب. وبعد دقيقتين أو ثلاث دقائق كان قد اقترب، وكان يجلس على سرجه منتصب القامة، وكان شابا وسيما، يعتليه الكبرياء، أنيقا يلبس حذاءين لامعين فاخرين. كان يبدو شبيها تماما بفاسكو الآخر (نفس العينين الواسعتين الغائرين، نفس إمالة الرأس، نفس الكتفين العريضين).

بعد أن انتزعت دونا باولا من ابنة أختها الكلمة الأولى، روت لها فينانسينيا كل شيء في تلك الليلة نفسها. كانا قد رأيا بعضهما بعضا في البداية في سباقات الخيل، بعد عودته من أوروبا مباشرة. وبعد ذلك بأسبوعين، تم تقديمها إليه في حفلة رقص. وقد بدا ملفتا للنظر وباريسيا إلى حد أنها تحدثت مع زوجها عنه في الصباح التالي. تجهم وجه كونراد باستياء، وألهمها رد فعله هذا فكرة لم تخطر لها من قبل على بال. وبدأت تراه بابتهاج، ثم بدأت تشتاق إلى رؤيته. تكلم معها باحترام، وقال لها أشياء لطيفة: إنها الشابة الأكثر جمالا وأناقة في ريو، إنه سمع أخيرًا في باريس بعض السيدات من عائلة الفارينجا يثنون على مزاياها العظيمة. وكان ظريفا عندما كان ينتقد أشخاصا آخرين، وكان يعبر عن نفسه بحساسية أكثر من أي شخص التقت به في يوم من الأيام. لم يتحدث عن الحب، غير أنه كان يطاردها بعينيه، ومهما حاولت بكل قوة أن تشيح بوجهها عنه لم يكن بوسعها إلا أن تراه. وبدأت تفكر فيه، كثيرا وباهتمام، وخفق قلبها كلما قابلته. ومن المحتمل أنه كان من السهل عليه أن يستبين في وجهها الانطباع الذي أحدثه فيه.

أصغت دونا باولا، وهي منحنية إلى الأمام، إلى قصة فينانسينيا وكل ماضيها مركز في عينيها، وهي فاغرة الفم. بدت متلهفة على أن تشرب كلمات ابنة أختها، وكأنها مشروب منعش، طالبة من فينانسينيا ألا تغفل أي شيء مهما كان، وبدت دونا باولا شابة للغاية، وكان رجاؤها رقيقا ومليئاً بالصفح المحتمل إلى حد أنها بدت أشبه بمؤتمنة على الأسرار وصديقة، على الرغم من كلمات خشنة عديدة تناثرت بين الملاحظات

اللطيفة من خلال نوع من النفاق اللاشعوري. غير أن هذا لم يكن مقصودا، بل لقد خدعت دونا باولا نفسها، فكانت أشبه بجنرال متقاعد يجاهد لاستعادة شيء من الحماس القديم عن طريق الاستماع إلى قصص حملات جنرال آخر.

«يمكنك أن تري أن زوجك كان محقا»، قالت دونا باولا. «كنت حمقاء، حمقاء للغاية».

وافقت فينانسينيا على رأي خالتها، وأقسمت أن الأمر قد انتهى تماما.

«اخشى أن الأمر لم ينته، وهل وصلت حقا إلى حد أن تحبيه؟»

«خالتي الصغيرة...»

«أنت مازلت تحبينه!»

«أقسم أنني لم أعد أحبه، لكنني... نعم، أنا أعترف بأنني أحببته. اصفحي عني، وأرجوك لا تقولي شيئا لكونراد. وكم أود لو أن شيئا من هذا لم يحدث. نعم. أقر بأنني كنت أعاني من لواعج الغرام في البداية... لكن ماذا كنت تتوقعين؟»

«هل باح لك بمشاعره؟»

«نعم، فعل. حدث هذا في المسرح الغنائي ذات مساء، وكنا نوشك على مغادرته. كان يأتي عادة إلى مقصورتي بالمسرح ليرافقني إلى العربة، وعند خروجنا نبس... بثلاث كلمات»

ومراعاة للموقف، لم تسأل دونا باولا عن كلمات الرجل، غير أنها تخيلت الظروف: الشرفات العليا للمسرح، الأزواج والزوجات وهم يغادرون، الأضواء، الجمهور، وقع الأصوات، وسمح لها المشهد الذي تصورته بأن تقوم بجمع ولصق بعض الأحاسيس التي استشعرتها ابنة أختها. وبقدر كبير من الاهتمام والدبلوماسية، طلبت منها أن تصف مشاعرها بتفصيل أكبر.

«لا أعرف بالضبط بم شعرت»، أجابت فينانسينيا، وانحلت عقدة لسانها بالتدريج مع ازدياد انفعالها. «لا أتذكر الخمس دقائق الأولى. أعتقد أنني احتفظت بوقاري. وعلى كل حال، لم أجب عليه. شعرت بأن الجميع يحملقون فينا، وبأنهم ربما سمعوا كلامه مصادفة، وعندما كان يحييني الناس بابتسامة كان يبدو لي وكأنهم يسخرون مني. وبطريقة ما نجحت في النزول على السلالم، ودون أن أعرف حقا ماذا كنت أفعل، دخلت العربة. وسمحت لأصابعي بأن تتراخى عندما تصافحنا لنفترق. وأستطيع أن أؤكد لك أنني أتمنى لو أنني لم أسمع أي شيء قاله. وعندما أصبحنا داخل العربة، قال لي كونراد إنه متعب وارتمى مستندا إلى الجانب البعيد من المقعد. وكان هذا أفضل، لأنني لا أعرف ماذا كان بوسعي أن أقول إذا تحادثنا في طريق عودتنا إلى البيت. وارتميت بدوري مستندة إلى المقعد، لكن ليس طويلا. لم أكن قادرة على الجلوس ساكنة. نظرت من خلال النوافذ الزجاجية، ومن وقت لآخر لم يكن بوسعي أن أرى سوى وهج مصابيح الشارع، ثم لم يعد بوسعي حتى أن أرى ذلك. وبدلا من ذلك رأيت الشرفات العليا للمسرح، والسلالم، وجماعات الناس، ورأيته بجواري يهمس في أذني بتلك الكلمات ثلاث كلمات لا غير، وأنا الآن عاجزة عن أن أعرف فيم فكرت في تلك اللحظة. كانت أفكاري مشوشة، وأحسست باضطراب شديد بداخلي».

«لكن بعد أن عدت إلى البيت؟»

«في البيت، بعد أن ارتديت ملابس البيت، استطعت أخيرا أن أتأمل قليلا، لكن قليلا جدا، ونمت نوما قلقا ومتأخرا. وفي صباح اليوم التالي كنت مشوشة الفكر. لا أدري ما إذا كنت سعيدة أم حزينة. وأتذكر أنني فكرت فيه كثيرا، وفي سبيل إخراجه من عقلي، عاهدت نفسي على أن أبوح بكل شيء لكونراد، غير أن الأفكار عادت من جديد. ومن وقت لآخر كان بدني يقشعر، إذ أتخيل أنني سمعت صوته. ثم تذكرت أنني عندما أعطيته يدي كانت أصابعي تتراخى، وأحسست - ولا أدري كيف أعبر عن هذا بالضبط - بنوع من الندم، بخوف من أن أكون أسأت إليه،

ثم رغبت في أن أراه ثانية... سامحيني، يا خالتي الصغيرة، لكنك طلبت مني أن أروي كل شيء».

كانت إجابة دونا باولا ضغطة شديدة على اليد وإيماءة تفهُّم. فقد وجدت على الأقل، من خلال هذه الأحاسيس المسرودة ببراعة، شيئا من ماضيها هي. وفي بعض الأحيان، وفي شرود حالم من استعادة ذكريات الماضي، كانت جفونها نصف مغمضة، وفي أحيان أخرى كانت عيناها تلمعان بالدفء والفضول. سمعت كل شيء: يوما يوما ولقاء لقاء، بما في ذلك تفاصيل المشهد الذي وقع في المسرح، والذي كانت ابنة أختها قد أخفته عنها في البداية. وأعقب الباقي ذلك: ساعات القلق، والاشتياق، والخوف، والأمل، والإحباط، والرياء، وكل الانفعالات التي تشعر بها في أعماقها شابة في هذا الموقف. ولإشباع فضولها الذي لا يشبع، أصرت دونا باولا على أن تعرف كل تفاصيل قصة ابنة أختها، التي لم تكن كتابا ولا حتى فصلا في الزنا، بل مقدمة مثيرة وعنيفة.

أنهت فينانسينيا حديثها. أما خالتها، التي كانت في حالة من النشوة، فلم تقل شيئا، ثم أنت، وأمسكت بيد ابنة أختها، وقربتها منها. لم تتكلم في الحال. وفي البداية حملقت باهتمام شديد في عيني ابنة أختها الغائرتين، وفمها النضر، وشبابها النابض الذي لا يهدأ. ولم يتم انتزاعها تماما من شرودها إلى أن توسلت إليها فينانسينيا مرة أخرى طالبة الصفح. وقالت دونا باولا كل شيء بحنان الأم وصرامتها، وتكلمت ببالغ الفصاحة عن العفة، والرأي العام، وحب الزوجة لزوجها، إلى حد أن فينانسينيا بكت، عاجزة عن أن تسيطر على نفسها.

وتم تقديم الشاي، غير أنه كان حقا وقتا غير ملائم للشاي. إذ إن فينانسينيا أوت إلى فراشها في الحال. ولأن الضوء كان لا يزال قويا، غادرت الحجرة خافضة عينيها حتى لا تراها الخادمة في تلك الحالة من الانفعال. وظلت دون باولا جالسة إلى المنضدة

في حضور الخادمة، وقضت نحو عشرين دقيقة في شرب الشاي وفي تناول قطعة بسكويت. وبمجرد أن صارت وحدها، ذهبت لتتكئ على النافذة التي كانت تطل على الخلف من ظهر الفيلا.

هبت الريح رقيقة، وكان حفيف أوراق الشجر بصوت هامس. ورغم أنها لم تكن أوراق شجر شبابها، فإنها مع ذلك وجهت إليها هذا السؤال: «باولا، هل تتذكرين أوراق شجر الأيام الخوالي؟» ذلك أن هذا هو الشيء الغريب عند أوراق الشجر.. الأجيال التي تمر تروي للقادمين الجدد ما رأته، وهذا هو السبب في أن كل أوراق الشجر تعرف كل شيء وتسأل عن كل شيء. «هل تتذكرين أوراق شجر الأيام الخوالي؟».

كانت تتذكر بالفعل، بطبيعة الحال، غير أن ذلك الإحساس الذي شعرت به قبل ذلك بقليل، والذي كان بالكاد رجع صدى، كان قد انتهى. وعبثا رددت كلمات ابنة أختها فيما كانت تتنفس هواء المساء اللاذع، غير أنها، بدلا من استعادة أحاسيس من الماضي، استطاعت فقط أن تستدعي الذكريات الميتة المبعثرة في رأسها، وتباطأ خفقان قلبها، وجرى دمها بسرعته المعتادة من جديد. وعندما كانت ابنة أختها غائبة، لم تشعر بشيء. ومع ذلك، مكثت هناك، تحملق إلى الخارج في الليل الذي لم يكن يجمعه شيء بليالي شتولتس ومركيز بارانا. غير أنها حملقت إلى الخارج على كل حال، وفي المطبخ كانت الجواري يقاومن نعاسهن برواية القصص. ومن وقت لآخر كن يعلقن بنفاذ صبر: «يبدو أن السيدة العجوز لن تأوى مطلقا إلى الفراش الليلة!».

ترجمة: خليل كلفت

البيـــانـــو

أنيبال مونتيرو ماشادو

أنيبال مونتيرو ماشادو Anibal Monteiro Machado
(١٨٩٥ - ١٩٦٤)

- درس القانون ولكنه تحول بسرعة إلى اهتمامه الأساسي: الكتابة.
- في ١٩١٩، عين نائبا عاما في مدينة ميناس، غير أن طبعه كان لايتفق مع هذا المنصب، وقد عبر عن ذلك بقوله: «كنت أحس دائما بأنني أود أن آخذ المتهم إلى بيتي لشرب فنجان من القهوة».
- بدأ كتابة الرواية في ١٩٢٦، وعمل فيها على مدى ستة أعوام، ثم تركها في درج طوال ثمانية وعشرين عاما، وأكملها بعد ذلك. وكتب أيضا مقالات، وقصائد نثر، ومسرحيتين.

البيانو

أنيبال مونتيرو ماشادو

«روزاليا»، صاح «جوان دي أوليفيرا» مناديا زوجته التي كانت بالطابق العلوي. «لقد طردت ذلك الشخص، يا له من وقح! لقد سخر منه، قال إنه لا يساوي حتى خمسمائة «كروزيرو»*.

«إنها لعبة قديمة»، أجابت زوجته، «إنه يريد أن يحصل عليه مجانا ثم يبيعه إلى شخص آخر، هكذا تثرى هذه الأشكال»

لكن روزاليا وسارة بدتا منزعجتين إلى حد ما عندما نزلتا واقترب أفراد الأسرة من البيانو العجوز باحترام كما لو كانوا يواسونه على مالحق به من إهانة.

وقال أوليفيرا مؤكدا، وهو يحدق في البيانو بمزيج من التأثر والقلق: ستريان، «سوف نبيعه بسعر جيد، فلم يعد يُصنع البيانو بهذه الجودة الآن».

قالت روزاليا: «أعلن عنه في الجريدة، وسيأتون أفواجا، سيصبح البيت مزدحما بالناس هكذا». وقربت أطراف أصابعها اليمنى من بعضها في حركة جرت العادة على اعتبارها تعبيرا عن الازدحام، «من المؤسف أن نضطر للتخلي عنه».

قال جوان: «آه، إنه حب البيانو، بمجرد أن تنظري إليه يتجه تفكيرك إلى سماع الموسيقى»، وربت بيده على جسد البيانو البلوطي.

«حسنا، هيا يا جوان، فلننشر الإعلان»

كان لا بد من بيعه، لتحويل الردهة الصغيرة إلى حجرة نوم لسارة وزوجها المرتقب، ملازم أول في سلاح المدفعية. إلى جانب أن ثمنه

---

* عملة برازيلية.

سيساهم في نفقات جهازها.

بعد ثلاثة أيام، كان البيانو قد زين بالزهور من أجل التضحية التي سيقدمها، وكان البيت مستعدا لاستقبال المشترين المنتظرين.

وكان أول القادمين سيدة وابنتها، فتحت الفتاة البيانو وعزفت بعض الأنغام.

«إنه سيئ جدا يا ماما»

وقفت السيدة وفحصت البيانو، ولاحظت أن الأغطية العاجية لبعض المفاتيح ناقصة، أخذت ابنتها من يدها وخرجت وهي تدمدم: «كيف فكرت في أن آتى كل هذه المسافة لأنظر إلى قطعة خردة؟».

لم يكن لدى عائلة أوليفيرا وقت للشعور بالاستياء، فقد ظهر ثلاثة «مرشحين» جدد معا في الوقت نفسه، سيدة متقدمة في السن تفوح منها رائحة أرملة غنية، وفتاة شابة ترتدي نظارات وتحمل نوتة موسيقية، ورجل أحمر الشعر يرتدي حلة بالية.

قالت الفتاة للسيدة العجوز: «لقد أتيت قبلك، في الحقيقة إن الأمر لا يستحق، وما أتيت إلا نزولا على رغبة والدتي. ولا بد أن هناك الكثير غيره للبيع. لكني أحب فقط أن أقول إنني كنت أدق جرس الباب، بينما كنت أنت ما زلت تنزلين من الأتوبيس. لقد دخلنا معا، ولكني وصلت هنا أولا».

هذا التنافس على السبق أسعد آل أوليفيرا. فقد رأوا ذلك أفضل، وعلى أي حال، فقد أخذوا يبتسمون للجميع ليكسروا حدة المناقشة، وقدموا لهم جميعا القهوة. اتجهت الفتاة إلى البيانو، بينما وقف ذو الشعر الأحمر على مسافة، وبدأ يتفحصه بنظرة باردة. وفي تلك اللحظة دخلت سيدة تمسك بيد طفلة ترتدي زي المدرسة، وجلستا في قلق.

وفجأة بدأت الفتاة تعزف، وتعلق جميع من بالحجرة بالنغمات التي انتزعتها من أصابع البيانو. نغمات غير متناسقة ومعدنية الرنين، مرعبة.

وفحص آل أوليفيرا وجوه زائريهم بقلق شديد. بدا ذو الشعر الأحمر جامد الوجه تماما، أما الآخرون فقد تبادلوا النظرات كما لو كانوا يحاولون الوصول إلى فهم مشترك. السيدة التي وصلت أخيرا بدا على وجهها السخرية، وأما العجوز ذات العطر فقد بدت أكثر تسامحا ونظرت بعطف إلى حالة البيانو العجوز.

وبدا الأمر كما لو كانوا في قاعة محكمة والبيانو هو المتهم. استمرت الفتاة في العزف، كما لو كانت تنتزع منه اعترافا. خرج صوت الهيكل الخشبي متداعيا، متحشرجا، كصوت سوبرانو تعاني من مغص، بعض المفاتيح لم يخرج منها أي صوت. استمرت الكلبة دولي في النباح. طافت ابتسامة بالحجرة، ورغم ذلك، لم يضحك أحد. وبدا الآن أن الفتاة لاتقصد إيذاء أحد بهذا العزف، تضرب المفاتيح الميتة وتؤكد الصوت الناشز، كانت حالة قاتلة.

«هناك شيء يجب أن تعرفوه عن هذا البيانو»، شرح جوان دي أوليفيرا. «إنه شديد التأثر بالطقس، إنه يتغير كثيرا بتغير درجات الحرارة»

توقفت الفتاة عن العزف فجأة. ونهضت ووضعت بعض أحمر الشفاه على شفتيها والتقطت نوتتها الموسيقية.

«لا أعرف من أين أتتك الجرأة لتعلن عن هذا الشيء المرعب». قالت ذلك لجوان، ولكن نظرتها كانت تتجه إلى روزاليا، وكأنها هي ذلك الشيء المرعب.

وغادرت البيت.

وللحظة لم يقل جوان شيئا. على أي حال فإن الإهانة كانت موجهة إلى البيانو العجوز، وليس إليه، وعلى الرغم من ذلك فقد أحس أنه مضطر أن يوضح أنه تحفة حقيقية.

قال مؤكدا: «لا يوجد مثيل له هذه الأيام، ما عادوا يصنعون مثله أبدا».

وساد صمت ثقيل. وصلت حالة البيانو إلى الحضيض. وأخيرا تكلم ذو الشعر الأحمر: «كم تطلب ثمنا له؟».

وبسبب ما حدث خفض جوان دي أوليفيرا السعر الذي كان يفكر فيه.

قال بتهيب: «خمسة كونتوات»*

نظر إلى كل واحد ليرى تأثير الرقم. كان رد الفعل هو الصمت. شعر أوليفيرا بالبرودة. هل كان الثمن مرتفعا جدا؟ أبدت السيدة العجوز فقط بعض الكياسة: فقالت إنها ستفكر في الأمر. ولكن جوان تبين حقيقة قرارها من خلال قناع الرأفة على وجهها.

وبينما كانوا منصرفين جميعا، تنحى رجل كان يهم بالدخول جانبا.

«هل أتيت من أجل البيانو؟» سأله أحدهم. «حسنا ستجد...»

لكن أوليفيرا قاطعه.

«تفضل بالدخول»، قال ذلك بابتهاج. «إنه هنا. جاء الكثيرون لرؤيته»

كان الرجل متوسط العمر، له خصلة شعر رمادية. رفع غطاء البيانو وفحص الآلة بتفصيل تام. وفكر جوان: «ربما يكون مدرس موسيقى».

لم يسأل الرجل عن الثمن، قال: «شكرا»، ثم رحل.

عاد البيت خاليا ثانية. رجعت سارة إلى حجرتها، وتبادل جوان وروزاليا نظرات محبطة.

«لا أحد يفهم قيمته»، قال جوان بحزن. «إذا لم أحصل على ثمن معقول له فالأفضل ألا أبيعه أبدا!».

قالت روزاليا: «وماذا سنفعل في جهاز سارة؟».

«سأقترض النقود»

---

* عملة برازيلية.

«لن تستطيع سدادها من مرتبك أبدا»

«سنؤجل الزواج»

«إنهما متحابان يا جوان، وسيرغبان في الزواج ولن يعوقهما الجهاز أو غيره»

وهنا، سمع صياح سارة من حجرتها، إنها لا تستطيع الزواج من دون حذاءين جديدين وهلم جرا.

استمرت روزاليا تقول: «المسألة أن هذا البيت هو في حجم علبة الثقاب. أين سيقيم العروسان؟ علينا أن نتخلص من البيانو لنفسح لهما مكانا. ليس هناك من لديه متسع في منزله هذه الأيام».

وسمع صوت سارة مرة أخرى: «لا، لا تبيعا البيانو، إنه جميل جدا ...».

وقاطعتها أمها: «وهو صامت أيضا، لم تعودي تعزفين عليه أبدا، لاتعزفين إلا الفيكترولا».

ذهبت إلى حجرة ابنتها لتكمل حديثها معها. غريب أن تتحدث سارة هكذا. روزاليا عرضت المعضلة بصراحة: «زوج أو بيانو؟ اختاري!».

قالت سارة باقتناع شهواني مبتهج: «أوه، زوج بالطبع!».

واحتضنت وسادتها.

«حسنا...»

«إنك دائما ضده يا روزاليا...» صاح جوان دي أوليفيرا.

«ضد ماذا؟»

«البيانو...»

«أوه، كيف تقول ذلك يا جوان؟»

وفي اليوم التالي سأل جوان فور عودته من عمله عن البيانو.

«هل جاء أحد للإعلان يا روزاليا؟»

نعم، كان هناك الكثير من الاستفسارات الهاتفية عن البيانو، وجاء رجل عجوز وفحصه. وأيضا جاء ذو الشعر الأحمر مرة أخرى.

سأل جوان: «ألم يقل أحد شيئا عن شرائه؟»

«لا، لكن الرجلين اللذين جاءا إلى المنزل فحصاه وقتا طويلا»

«حقا؟ هل بدا عليهما الاهتمام به؟ الإعجاب به؟»

«صعب أن أقول ذلك»

قالت سارة: «نعم، لقد أعجبهما، خاصة العجوز. كاد أن يأكله بعينيه».

أثر ذلك في جوان دي أوليفيرا. لم يعد الثمن ذا أهمية، كان يريد فقط أن يعامل البيانو باهتمام واحترام، هذا كل ما هنالك. ربما كان لايساوي كثيرا من المال، ولكن من المؤكد أنه يستحق بعض الاهتمام. كان يحس بالأسف لأنه لم يكن حاضرا ذلك الموقف، لكن ما أخبرته به ابنته عن موقف العجوز المتسم بالاحترام، كان تعزية له عن الإهانة التي لقيها في اليوم السابق. لا بد أن ذلك الرجل العجوز يفهم روح الأثاث القديم.

«هل ترك عنوانه يا سارة؟ لا. حسنا،... ربما سوف يعود»

نهض من مقعده، ودار حول البيانو العجوز، وابتسم له بحب.

«عزيزي البيانو»، قال ذلك برقة، ومر بيده على الجسد الخشبي المصقول، كما لو كان يلاطف حيوانا أليفا.

لم يتقدم مرشح في اليوم التالي. لا شيء سوى مكالمة هاتفية من صوت ذي لكنة أجنبية يسأل عما إذا كان جديدا، وأجابت روزاليا بأنه ليس كذلك، وإن كانت عنايتهم به جعلته يبدو كالجديد تقريبا.

وفكر أوليفيرا: «غدا السبت، من المؤكد أن يكون هناك الكثيرون».

كان هناك اثنان، رجل، وفتاة صغيرة، أتيا في سيارة «ليموزين». نظر

الرجل إلى بيت آل أوليفيرا المتواضع، واعتبر أنه لا فائدة من الدخول. ورغم ذلك، فقد ذهب إلى الباب وسأل عن نوع البيانو وتاريخ صنعه.

وعندما رأى إصرار جوان على رؤيته أجاب: «شكرا، لا داعي لأن أراه، لقد فكرت أنه ربما يكون جديدا تماما، حظا سعيدا ...».

وذهب.

وأصيب جوان بحزن شديد. فقد كان يعتز بالبيانو بشدة منذ ورثه، ولم يفكر أبدا في أنه قد يضطر إلى مفارقته. وأسوأ ما في الأمر هو عدم وجود من يقدره، أو من يفهم قيمته... ربما باستثناء ذلك الذي أتى في الأربعاء التالي. فقد أخذ يمدح البيانو بأقوى عبارات الحماسة، قال إنه رائع، ورفض أن يشتري. قال إنه لو دفع ذلك الثمن البخس فسيشعر أنه يسرقه، وأن جوان وروزاليا يرتكبان جريمة حقيقية إذ يتركان هذا الشيء الثمين يخرج من أيديهما. ولم يستطع أوليفيرا أن يفهم بالضبط.

وسأل روزاليا: «أيعني ما يقوله حقا؟».

فأجابته: «أظن أنه كان يمزح فقط».

«لا أعرف، ربما كان لا يمزح»

وكانت روزاليا أول من فقد الأمل. وأصبح اهتمامها الأساسي الآن - عندما عاد زوجها من عمله - أن تخفف عنه متاعبه.

«كم العدد اليوم؟»

«لا أحد، اتصالان هاتفيان، لم يذكرا اسميهما، ولكنهما قالا إنهما قد يأتيان لرؤيته»

كان صوتها هادئا، ملطفا.

«ماذا عن ذي الشعر الأحمر؟»

«إنني واثقة أنه سيعود»

ولأيام عدة لم يأت أو يتصل أحد. ويمكننا تشبيه أحاسيس أوليفيرا بأحاسيس رجل يرى صديقه وقد فاته القطار، فهو حزين لأجل خاطر صاحبه، وسعيد لأنه سيستمر مستمتعا بصحبته لبعض الوقت. كان جوان يجلس بجوار البيانو ليستمتع بلحظاته الأخيرة معه. أعجب بنبله. ثلاثة أجيال عزفت عليه. كم من الناس استمالهم للحلم أو أغراهم بالرقص! كل ذلك مضى وانتهى، أما البيانو فبقي. وكان قطعة الأثاث الوحيدة التي تحمل ذكريات أجداده. كان نوعا من الخلود، هو والهيكل القديم في الطابق العلوي.

«سارة، تعالي واعزفي تلك المقطوعة الصغيرة لشوبان، حاولي أن تتذكريها»

«لا أستطيع يا أبي، صوت البيانو مرعب»

همست روزاليا: «لا تقولي ذلك، ألا تعرفين في أي حال أبوك؟».

متى نظرت سارة إلى البيانو تحول في عينيها إلى فراش الزوجية الذي ترقد عليه هي والملازم أول، يتبادلان القبلات والأحضان.

مرت أيام وأيام، ولم يظهر مشتر مأمول، لا شيء إلا هاتف من حين لآخر من ذي الشعر الأحمر، كما لو كان طبيبا يتابع تقدم حالة مرضية. وانتهت فترة الإعلان.

«حسنا يا جوان، ماذا سنفعل بالنسبة له؟»

«ماذا سنفعل بالنسبة لأي شيء يا روزاليا؟»

«البيانو!»

«لن أبيعه»، صرخ جوان. «هؤلاء الطفيليون لا يعيرون أدنى اهتمام إلى البيانو، إنهم لا يريدون إلا المساومة، الأفضل عندي أن أعطيه لأي شخص يهتم به جيدا، شخص يعرف قيمته».

كان يسير جيئة وذهابا في اهتياج، وفجأة تغير تعبير وجهه.

«اسمعي يا روزاليا، ما رأيك في أن نتحدث مع أقاربنا في تيجوكا؟»

فهمت روزاليا قصده، وبدت مسرورة.

«هالو، هل ميسياس موجود؟ خرج؟ هل أنت ابنة العم ميكيتا؟ انظري... أريد أن أعطيك البيانو الذي لدينا كهدية... نعم، هدية... لا، إنها ليست مزحة... حقا... صحيح... تماما... وبالتالي لا يخرج من العائلة... حسنا. ارسلوا لأخذه في أقرب وقت... أهلا بك، إنني سعيد بهذا.»

وضع السماعة، واستدار لزوجته: «أتعرفين؟ لم تصدقني في البداية، ظنت أنها كذبة إبريل».

كانت روزاليا مسرورة، وسار جوان إلى البيانو العجوز كأنه يتباحث معه فيما فعله. «ضميري مرتاح»، فكر في نفسه، «لن ننبذك، ستبقى في العائلة، مع أناس من نفس الدم، أولاد أولادي سيعرفونك ويحترمونك، سوف تعزف لهم. إنني واثق من أنك تفهم، ولن تغضب منا».

«متى سيأتون لأخذه؟» وقطعت روزاليا حبل أفكاره، فقد كانت متشوقة لإعداد الحجرة للعروسين.

وفي اليوم التالي يتصل ميسياس بأقاربه في «إيبانيما» هل كانوا جادين حقا في إعطائه البيانو؟ إن هذا كثير جدا. إنه ممتن جدا، ولكن لا يجب هذا حقا. عندما أخبرته زوجته لم يستطع أن يصدق.

«لا، إنها حقيقة يا ميسياس. أنت تعرف أن بيتنا ضيق كصدفة الجوزة، لا نستطيع أن نبقيه هنا، وجوان لا يريده أن يقع في أيدي غرباء، إذا أخذتموه أنتم فسيكون كأنه لا يزال معنا. هل سترسل لأخذه بسرعة؟»

ومرت أيام عدة، ولم تأت أي سيارة لنقله. وأحس جوان أوليفيرا وزوجته أن صمت أقاربهم في تيجوكا غريب للغاية.

«هناك خطأ ما. اتصلي بهم يا روزاليا»

وأجابت ابنة العم ميكيتا على الهاتف. وكانت محرجة، لقد طلب أصحاب سيارات النقل أجرا باهظا.

«أظن أنه بسبب أزمة البنزين... انتظروا عدة أيام أخرى. ميسياس سيتدبر الأمر. إننا مسروران لأننا سنأخذ البيانو، لا نفكر في أي شيء آخر يا روزاليا»

فكرت روزاليا أن الجملة الأخيرة رنت بنغمة مزيفة. بعد أسبوع، اتصل جوان مرة أخرى.

«ميسياس، أتريده أم لا؟»

وجاءته إجابة متلعثمة: «جوان، لا تتخيل كيف نشعر بالحزن الشديد بسبب هذا الأمر، إنك تهدينا هدية عظيمة، ونحن لا نستطيع قبولها. إنهم يطلبون ما فوق الطاقة ليأتوا به إلى هنا. وعلى أي حال، في الحقيقة أنه ليس لدينا متسع له. إننا لا نجد مكانا كافيا لنضع الأثاث الذي عندنا. كان يجب أن نفكر في الأمر أولاً، إن ميكيتا حزينة جدا».

«باختصار، أنتم لا تريدون البيانو!»

إننا نريده... ولكننا... لا نستطيع...»

وضع أوليفيرا السماعة. كان قد بدأ يفهم.

«أترين يا روزاليا؟ إننا لا نستطيع حتى أن نعطيه لأحد. لا نستطيع التخلص منه»

«وماذا نفعل يا جوان؟ كل شيء ينتهي بأنه لا يوجد من يريده»

بعد دقائق قليلة من الصمت الثقيل، انتبها منه على تنهدات سارة المصحوبة بكلمات تدل على اليأس المرير، وأخذت أمها تسري عنها.

«لا تقلقي يا ابنتي. سيكون الأمر على ما يرام. سنبيعه ولو بأبخس الأثمان»

«أريده أن يخرج حالا يا ماما. سأتزوج بعد أيام وحجرتي لم تعد

بعد. لا شيء من احتياجاتنا دخل البيت. لا يوجد إلا هذا البيانو المرعب ليدمر حياتي، هذا البيانو الذي لا يريده أحد»

«اخفضي صوتك يا عزيزتي فمن الممكن هكذا أن يسمعك أبوك»

«أريده أن يسمعني». صرخت سارة مع تنهيدة أخرى، ومسحت دموعها.

في تلك الليلة لم ينم جوان دي أوليفيرا إلا قليلا. كان يتأمل في الحياة، وكانت أفكاره مضطربة وكئيبة بوجه عام. كانت هذه الأفكار تثير فيه غضبا عنيفا ضد الحياة والبيانو كليهما، وغادر البيت مبكرا، واتجه إلى الحانة القريبة، وأخذ يتحدث مع عدد من الرجال.

«ماذا يفعل زوجي في مثل هذا المكان؟» سألت روزاليا نفسها، فلم يكن جوان سكيرا أبدا.

عاد أوليفيرا مصطحبا زنجيا رث الثياب، ورجلين قويين من البرتغاليين في زي العمل، وأراهم البيانو. رفعوه، وقالوا إنهم يشكون في مقدرتهم على حمله ثلاثتهم فقط.

ووقفت روزاليا وسارة تشاهدان بدهشة.

سألته روزاليا: «هل وجدت مشتريا؟».

«لا يا زوجتي، لا يوجد من يشتري هذا البيانو»

«هل ستعطيه لأحد؟»

«لا يا زوجتي، لا يوجد من يريده حتى كهبة»

«وماذا تفعل إذن يا جوان؟ ماذا تفعل بحق الله؟»

دمعت عينا جوان، لكن وجهه بدا صارما.

«سألقيه في المحيط»

صاحت سارة: «أوه، لا يا أبي، هذا جنون»

لم يكن آل أوليفيرا يستطيعون رؤية المحيط من نوافذ منزلهم، لكنهم كانوا يشمون رائحته ويسمعون صوته، فلم يكن بينهم وبين طريق الكورنيش الموازي للشاطئ إلا ثلاثة صفوف سكنية.

كان الرجال ينتظرون، وهم يتحادثون فيما بينهم.

قالت زوجته: «هذا موقف شجاع يا جوان! لكن... ألا نتناقش في الأمر أولا؟ أما من مخرج آخر؟ سيسخر الناس منا ونحن نرمي بيانو في الماء».

«وماذا نستطيع غير ذلك يا روزاليا؟ عشرات السفن تذهب إلى قاع المحيط. وبعضها يحمل آلات بيانو»

وأسكت هذا المنطق الذي لا يدحض زوجته. بدا جوان كأنما يشجع نفسه.

وصاح: «هيا يا رجال، احملوه، هيا بنا!».

اقترب أحد البرتغاليين، وقال بتواضع إنه بالنيابة عنه وعن زميليه، يبلغه أنهم لا يستطيعون القيام بهذا الأمر، وأنهم يرجونه أن يعفيهم، لأن ضميرهم سيؤنبهم إذا ألقوا شيئا كهذا في البحر. الأمر يبدو وكأنه جريمة تقريبا.

«اسمع يا سيدي، لماذا لا تنشر إعلانا في الجريدة؟ إن البيانو في حالة طيبة!»

أجاب أوليفيرا بغيظ: «نعم، أعرف. يمكنكم الذهاب».

ذهب الرجال للحظة، وللحظة استمتع الزنجي بفكرة أنه يمكن أن يأخذ البيانو لنفسه. حدق فيه، وفتنته فكرة أن يمتلك شيئا جميلا وفخما كهذا. كان حلما يمكن أن يتحول إلى حقيقة فورا. ولكن إلى أين يأخذه؟ لم يكن لديه بيت.

أسندت روزاليا رأسها على كتف زوجها، وقاومت الدموع.

«آه، جوان، أي قرار هذا؟»

«ولكن، إذا لم يكن أحد يريده، وإذا كان غير ممكن أن يبقى هنا...»

«أعرف يا جوان، ولكن لا أستطيع مقاومة الحزن. كان دائما معنا. ألا يبدو من القسوة، بعد كل هذه السنين، أن نرميه في المحيط؟ انظر إليه، يقف هناك، لا يعلم بما سيحدث له. ظل هناك نحو عشرين سنة في ذلك الركن، لم يؤذ أحدا أبدا...»

«يجب أن نحاول تجنب العاطفة يا روزاليا»

نظرت له بإعجاب: «حسنا يا جوان، افعل ما تراه ضروريا».

عشرات من الأطفال الزنوج، أقذار ولكن سعداء، يخرجون من الأكواخ، في «بينتو» و«لاتولانديا» حيث يعيشون ويتجولون بين الأحياء الثرية المجاورة. يمكنك أن تجدهم يشحذون «نيكلات» ليشتروا آيس كريم، وهم يحدقون بنشوة في الملصقات المعلقة خارج دور السينما، أو يتدحرجون على رمال الشاطئ في «لبلون».

في ذلك الصباح، هبت ريح جنوبية غربية أثارت غضب أمواج الأطلنطي، ولا داعي لأن نذكر أن البيانو ظل هادئا كما كان أبدا.

كانت الاستعدادات تجرى للرحيل. طلب جوان دي أوليفيرا من زوجته وابنته إزالة الأجزاء التي قد تكون نافعة، وبالتالي تم خلع الشمعدانين البرونزيين، والبدالات والزخارف المعدنية، وأخيرا الغطاء البلوطي.

وهتفت سارة: «ياه، إنه يبدو مختلفا تماما».

ومن دون أن يخبر عائلته، جند جوان دي أوليفيرا جيشا من الصبيان الزنوج. كانوا ينتظرون فارغي الصبر خارج البيت. والآن طلب منهم أوليفيرا الدخول، أقواهم بنية دخل أولا.

كانت الساعة الرابعة والثلث بعد الظهر عندما بدأ خروج الموكب الجنائزي، بعض الواقفين المتجمعين على الرصيف أفسحوا له الطريق،

تحرك البيانو ببطء وفي غير انتظام. بعض الناس جاءوا لمراقبته عن قرب، وقفت روزاليا وابنتها تتأملانه بحزن من الشرفة، ذراع كل منهما فوق كتف الأخرى. لم تستطيعا أن تطاوعا نفسيهما لمصاحبته، وكانت الطباخة تمسح عينيها بطرف «مريلتها».

وعندما بلغ الصبية التقاطع، سألوا: «إلى أين؟» كانوا يحاولون جميعهم أن يشتركوا في حمله في الوقت نفسه والنتيجة أنه كاد يقع.

وأعادوا سؤالهم: «إلى أين؟».

صرخ جوان دي أوليفيرا: «إلى البحر!» وبالإشارة الكبرى لقائد أسطول أشار نحو الأطلنطي.

«إلى البحر... إلى البحر...» تردد الصدى بين الصبية كلهم في آن واحد. بدأوا يفهمون أن البيانو في طريقه إلى الدمار، مما بدا لهم نوعا من الإثارة. أخذوا يضحكون ويتحدثون بحيوية مع بعضهم، وأوحت الجلبة للكلبة الصغيرة دولي، أن تقفز في الهواء وأخذت تنبح بشراسة.

وازدحمت شرفات المنازل، خاصة بالفتيات.

«يا إله السموات». هتفن، «ما هذا؟» ثم، بارتياب: «بيانو!»

وصاح زنجي صغير، وهو يجري من بيت إلى بيت لينقل الأخبار إلى العائلات: «لقد جاء من البيت رقم ٩٩».

«ماذا؟ إنه البيت الذي تسكن فيه سارة!»

«إنه بيت جوان دي أوليفيرا»

وجرى أحد معارف أوليفيرا نحوه ليستطلع الحقيقة منه نفسه.

«ما المشكلة يا جوان؟»

«لا مشكلة هناك. إنني أعرف ماذا أفعل. فقط أفسحوا لنا الطريق»

«ولكن، لماذا لا تبيعه؟»

«حسنا، سأبيعه. سأبيعه إلى المحيط الأطلنطي، أتراه هناك؟ المحيط...»

وفي نغمة جلاد على درجة ما من الهياج استمر في قيادته.

«إلى اليسار أكثر يا رفاق... حاذروا، لا تدعوه يقع... الصبيان الكبار فقط الآن، الآخرون عليهم أن يتركوه».

ومن وقت لآخر يدخل أحد الصبية ذراعه داخل البيانو ويجريها على الأوتار، فيخرج صوت كأنه حشرجة الموت.

وصاحت سيدة في إحدى الشرفات بجوان: «هل قبيعه؟».

«لا يا سيدتي، إنه ليس للبيع. إنني أريد التخلص منه، أتريدينه؟»

واحمر وجه السيدة، وأحست بالإحراج، ودخلت بيتها. وأخذ جوان يعلن غرضه بوضوح.

«أما من أحد يريد بيانو؟»

وعند رقم ٤٣ قبلت عائلة من اللاجئين البولنديين. كانوا مذهولين، ولكنهم قبلوا.

«فهو لكم إذن»، صاح جوان دي أوليفيرا.

نزل أفراد العائلة البولندية، ووقفوا حول البيانو.

«ليكن، سنأخذه... ولكن... بيتنا ضيق. امنحنا يومين لنعد له مكانا»

أجاب أوليفيرا: «الآن وإلا فلا. ها هو، أمام منزلكم تماما. ألا تريدونه؟ حسنا، هيا بنا يا رفاق».

أخذ البيانو يقترب من البحر أكثر فأكثر. وكان يتمايل كصرصور ميت يحمله النمل.

لم يستطع أوليفيرا أن يميز إلا القليل من صيحات التعجب الآتية من أبواب ونوافذ وشرفات البيوت.

«هذا أسوأ جنون سمعت به في حياتي». زعق شخص ما من شرفة منزله.

«جنون؟» أجاب أوليفيرا وهو يرفع رأسه نحو المتكلم. «حسنا، خذه أنت إذن. خذه».

وكلما تقدم الموكب، تكرر المشهد. كل شخص قال إنه تصرف جنوني، وكل شخص أراد البيانو، ولكن ما أن عرض أوليفيرا أخذه في الحال، لم يكن هناك سوى صمت وارتباك. فعلى أي حال، من ذلك الذي لديه استعداد لاستقبال بيانو في غمضة عين؟

واصل جوان دي أوليفيرا في تصميم، مصحوبا بطنين من التعليقات وصيحات التفجع. وقرر ألا يجيب أحدا بعد ذلك.

وأوقفت الموكب مجموعة من دراجات الشرطة البخارية، وحاصرت البيانو العجوز، وأعطاهم أوليفيرا تفسيرا مفصلا، فطلبوا رؤية وثائقه. عاد إلى المنزل وأحضرها، وفكر في أن الطلب طبيعي جدا، فقد كانت البلاد في حالة حرب، ولكنه استاء من اضطراره لتقديم تفسير للأمر، لأنه كان يتصرف طبقا لقرار شخصي في أمر لا يخص أحدا خارج العائلة. فمن المؤكد أن من حقه أن يتخلص من أي شيء يملكه. هذه الأفكار أيقظت إحساسه نحو الآلة الموسيقية. وضع يده على البيانو كما لو كان يضعها على جبين صديق مريض، وأحس بقلبه ينقبض بشدة، وبدأ يتحدث عن حياة البيانو العجوز.

«إنه أثري، من أقدم البيانوهات في البرازيل»

كان ملكا لأجداده الذين كانوا في خدمة الإمبراطور.

«كان بيانو جميلا، صدقوني. عزف عليه أشهر الموسيقيين. يقولون إن شوبان كان يفضله على الآخرين جميعا. ولكن فيم يهم ذلك؟ لم يعد هناك من يقدره الآن. تغير الزمن... وسارة، ابنتي، ستتزوج. وستعيش معنا. والبيت صغير، ماذا أفعل؟ لا أحد يريده. هذا هو الحل الوحيد»

وأومأ برأسه ناحية البحر.

بدأ الزنوج الصغار يفقدون صبرهم بسبب هذه المقاطعات، كانوا مشتاقين لرؤية البيانو يغرق تحت الأمواج، ومثل هؤلاء النقالين المرتجلين في قلة صبرهم، كان الناس الذين تبعوا الموكب، ومنهم رجال بريد، وسعاة صغار، ونسوة قليلات، وعدد كبير جدا من الأطفال.

فحص رجال البوليس البيانو من الداخل، ولم يجدوا شيئا مريبا، فأعادوا الأوراق إلى أوليفيرا، واقترحوا أن يسرع لئلا يعوق حركة المرور.

جاء مصور وطلب من الناس أن يتجمعوا والتقط صورتهم. وكان جوان دي أوليفيرا في يسار الصورة في وضع يعبر عن الحزن. وبدأ يضيق بكل هذه المقاطعات التي أطالت من «سكرات موت» البيانو.

وهبط الليل سريعا، وقرر أحد رجال الشرطة أنه لا يمكن السماح لهم بالمضي بعد السادسة مساء. ويجب أن ينتظروا حتى اليوم التالي.

تفرق الصبية الزنوج، فسوف ينالون أجورهم فيما بعد عند بيت أوليفيرا، واستغرب الناس ذلك المساء لذلك العدد من الصبية الزنوج الذين كانوا يحومون في المنطقة يحملون قطعا صغيرة من الخشب المدهون باللون العاجي في أيديهم.

وظل البيانو هناك في الشارع حيث تركوه، مقلوبا على الحاجز الحديدي في الطريق، وضع سخيف، وأحاطه الشباب في نزهاتهم المسائية، وأخذوا يتبادلون التعليقات.

عندما عاد إلى البيت، وجد أوليفيرا مجموعة من صديقات سارة هناك، يسائلنها بفضول عن البيانو.

كان الظلام لا يزال يسود، عندما استيقظ جوان وزوجته على صوت مطر شديد. رياح، مطر، وزئير الأمواج. أضاءا النور وتبادلا النظرات.

«كنت أفكر في البيانو يا روزاليا»

«وأنا أيضا يا جوان. المسكين! وحده هناك في المطر.. والبرد شديد!»

«لابد أن المطر يعمل عمله الآن، ويدمر كل شيء... اللباد، الأوتار. شيء مرعب، أليس كذلك يا روزاليا؟»

«لقد كنا ناكرين للجميل بهذا الفعل يا جوان»

«إنني أكره حتى التفكير في هذا الأمر يا روزاليا»

نظر جوان خارج النافذة. ومضات البرق أضاءت الأشجار، وأظهرت أفرع الأشجار التي كانت تتأرجح بعنف في مهب الريح، عاد جوان إلى الفراش ونام نوما متقطعا، استيقظ مرة أخرى، وأخبر زوجته أنه كان يستمع إلى البيانو.

«سمعت كل ما عزف عليه طوال حياته، أياد كثيرة مختلفة. يدا جدتي، ويدا أمي، يداك، ويدا عمتي، ويدا سارة. أكثر من عشرين يد، أكثر من مئة إصبع أبيض تضغط المفاتيح. لم أسمع في حياتي موسيقى بهذا الجمال، كان شيئاً ساميا يا روزاليا. الأيدي الميتة عزفت أحيانا أفضل من الأيدي الحية. عشرات من الفتيات من الأجيال السابقة كن واقفات حول البيانو، يستمعن. المحبون الذين تزوجوا فيما بعد كانوا يجلسون بالقرب منه متشابكي الأيدي. لا أعرف لماذا، ولكن بعد قليل نظروا لي جميعا باحتقار. وفجأة رفعت الأيدي البيانو، ولكنه استمر في العزف ـ المارش الجنائزي ـ ثم أغلق غطاءه وحده... ثم سيل جارف من الماء، ترك البيانو نفسه ينجرف... نحو المحيط. صرخت أناديه، لكنه لم يسمع لي. بدا كأنه يشعر بالإساءة يا روزاليا، واستمر فقط في الذهاب... ووقفت هناك في الشارع، وحدي تماماً، وبدأت أبكي...»

كان أوليفيرا يتنفس بصعوبة. اللحن الغامض تركه في حالة حزينة، وأحس بالندم.

توقف المطر. وبمجرد ظهور ضوء الصباح، خرج جوان دي أوليفيرا ليجمع الصبية الزنوج. كل ما كان يريده الآن هو انهاء هذا الأمر بأسرع

ما يمكن.

كانت الريح لا تزال قوية، وكان المحيط يعول وكأنما كان يهضم عاصفة الليلة الماضية. جاء الأولاد، ولكن بأعداد أقل من ذي قبل، وكان بينهم عدد من الرجال البالغين. وبصوت مبحوح، تولى جوان دي أوليفيرا القيادة مرة أخرى.

وعلى الشاطئ كان الموكب يتحرك ببطء أكثر، وأخيراً بدأت الألسنة الطويلة للأمواج في التهامه.

وقف بعض العائلات على الرصيف، ينظرون إلى المشهد. حمل «طاقم» أوليفيرا البيانو ودفعوه داخل البحر بمسافة تكفي لأن تتولى الأمواج أمره وتسحبه إلى البحر. تكسرت موجتان عظيمتان فوقه بلا أي تأثير. الموجة الثالثة جعلته يترنح، والموجة الرابعة حملته بعيداً إلى الأبد.

وقف أوليفيرا هناك، بركبتيه الغارقتين في الماء، وفمه مفتوح. وبدا البحر صامتا صمتا رهيبا. ولم يستطع أحد أن يقول إنه كان يبكي، لأنه كان من الصعب تمييز الدموع بين رذاذ الماء الذي ملأ خديه.

وبعيداً، رأى سارة ورأسها مستند إلى كتف الملازم. وكانت دولي معها، أنفها يعبر عن التساؤل ورعب مبكر، فقد كانت دائما تنام بجوار البيانو، وكان جوان سعيداً لأن روزاليا لم تأت.

وفيما بعد، ظهر كثير من الناس على الشاطئ يسائلون بعضهم بعضا عما حدث. في البداية بدا وكأن عائلة بولندية كاملة قد غرقت، ثم عرفوا بعد ذلك أن شخصا واحدا غرق. قال البعض إنه طفل، وأكد البعض الآخر أنها كانت سيدة لها قصة حب حزينة. وأخيرا فقط عرف الجميع أن الشخص الذي غرق كان بيانو.

اتخذ الناس أوضاعهم في نوافذهم ليشاهدوا جوان دي أوليفيرا عائدا من الشاطئ.

وأعلن شخص ما: «هذا هو الرجل».

سار أوليفيرا ببطء، يحدق في الأرض، وشعر الجميع باحترام له.

«لقد ذهب يا روزاليا!» قال ذلك حين دخل البيت، «لقد تخطى نقطة اللا عودة»

«قبل أن نتحدث عنه يا جوان، اذهب وغير ثيابك»

«البيانو لن يعود أبداً يا روزاليا!»

«بالطبع لن يعود. ولهذا رميته أنت في البحر»

وقالت سارة: «من يعلم؟ ربما تلقيه الأمواج على شاطئ في مكان ما»

«دعونا لا نفكر فيه ثانية. انقضى الأمر. انتهى. سارة، لقد حان الوقت لتعدي غرفتك»

مرت برهة صمت، بعدها استأنف جوان مناحته:

«رأيت الأمواج تبتلعه»

«كفى يا زوجي، كفى!»

«وعاد يطفو على سطح الماء مرتين!»

«لقد انتهى الأمر، لا نفكر فيه ثانية»

«لم أذكر ذلك لأي شخص حتى لا يظنون أنني جننت... ولو أنهم بدأوا يظنون أني مجنون على أي حال.. والحقيقة، أنني قد أكون أعقل رجل في المنطقة كلها... ولكن، منذ لحظات، سمعت البيانو يعزف اللحن الجنائزي بوضوح!»

قالت روزاليا تذكره: «كان هذا في الحلم الذي حلمته في الليلة الماضية».

«لا، كان ذلك هناك بجوار البحر، في وضح النهار. ألم تسمعيه ياسارة؟ بعد ذلك فوراً غطاه الزبد تماماً، وتوقفت الموسيقى!»

أومأ برأسه معبراً عن يأسه أمام القدر المحتوم. كان يبدو وكأنه

يحدث نفسه...

«لابد أنه بعيد تماماً الآن. تحت المياه، يتحرك قدما أمام مشاهد غريبة، حطام السفن، الغواصات، الأسماك. حتى أمس لم يكن غادر هذه الغرفة أبداً. وبعد سنوات سوف تحطه الأمواج على جزيرة ما في المحيط في الناحية الأخرى من العالم، وعندما نموت، سارة وروزاليا وأنا، سيظل هو يذكر الموسيقى التي عزفت في هذا البيت».

غادر الحجرة، ونظرت سارة وحدها إلى المكان الذي كان فيه البيانو. ومرة أخرى، تصورت فراش الزوجية هناك، ولكنها شعرت بقليل من الذنب هذه المرة.

وقطعت أفكارها دقات على الباب. شخص أتى بمذكرة استدعاء رسمي، هناك شخص مجهول أبلغ الشرطة أن جهاز إرسال سري كان مخبأ في البيانو، وأن أباها أراد التخلص منه. كان عليه أن يذهب إلى مركز الشرطة ويجيب على الأسئلة. حسناً، كان يجب أن تتوقع مثل ذلك في وقت الحرب. ليس هناك ما يمكن فعله إزاء ذلك.

وقضى أوليفيرا بقية اليوم في مركز الشرطة. وعاد متأخراً إلى البيت.

«أي حياة هذه يا روزاليا؟» قال ذلك بعد أن انهار في المقعد. «أي حياة هذه، إننا لانستطيع حتى أن نرمي أشياء تخصنا»

كان جوان يحس بالاضطهاد والاختناق، تردد لحظة، ثم تكلم ثانية.

«ألم تلاحظي أبداً يا روزاليا كيف أن الناس يكرهون التخلص من الأشياء القديمة؟ كيف يتعلقون بها؟»

أجابت روزاليا: «ليس الأشياء القديمة فقط، بل الأفكار القديمة أيضا».

كانت دولي تتشمم المكان الذي كان فيه البيانو. أعولت قليلا، ثم استغرقت في النوم.

رن جرس الباب، دخل رجل وسحب بعض الأوراق من حافظة أوراق، وقال إنه جاء من مكتب قائد الميناء.

«أنت جوان دي أوليفيرا؟»

«نعم، أنا جوان دي أوليفيرا!»

«ماذا ألقيت في البحر هذا الصباح؟»

وأصيب أوليفيرا بالذهول.

«هذه المنطقة ليست الميناء يا سيدي العزيز. إنه المحيط»

«أتريد أن تعطيني درساً في اللغة يا سيد أوليفيرا؟»

وأعاد الرجل سؤاله السابق، وشرح أن التنظيمات تمنع الآن إلقاء الأشياء في البحر، أو إلى البحر من دون إذن رسمي.

«هل لديك إذن رسمي؟»

وسأل أوليفيرا بتواضع ما إذا كان ما فعله يعتبر عدوانا أو إيذاء بأي حال من الأحوال.

«ليس هذا هو السؤال، ألا تعلم أن البلاد في حالة حرب؟ وأن شواطئنا يجب حمايتها؟ إن النازيين يراقبوننا في انتظار فرصة مناسبة»

«ولكنه كان مجرد بيانو يا سيدي!»

«لكنه انتهاك. ولكن، هل كان بيانو حقيقة؟ أواثق أنت تماماً من ذلك؟»

«أظن ذلك!» قال جوان هذا بذهول، ناظراً إلى ابنته وزوجته «ألم يكن بيانو يا روزاليا؟ ألم يكن كذلك يا سارة؟»

صاحت روزاليا: «أين عقلك يا جوان. أنت تعلم أنه كان بيانو».

ارتياب زوجها أدهش الجميع، بدا وكأنه في حالة ذهول.

«كنت أظن أن الإنسان يستطيع أن يلقي بأي شيء يريد إلى المحيط!»

«في الواقع لا، هذا كل ما نريد...»

هب جوان واقفاً، وبدا في حالة اهتياج.

«افترض أنني أريد أن ألقي بنفسي في البحر، ألا أستطيع؟»

وأجابه الرجل الآتي من مكتب قائد الميناء: «هذا يتوقف على...»

«يتوقف على من؟ عليَّ أنا ولا أحد غيري! أنا رجل حر، حياتي تخصني وحدي»

قال الرجل: «تخصك أقل بكثير مما تظن!»

وقطعت سارة الحديث بتلك الابتسامة التي اعتادت أن تحيي بها الملازم، الذي دخل حالاً، وأسرعت لتقبله.

«أترى حجرتنا يا حبيبي؟ إنها تبدو جيدة الآن، أليس كذلك؟»

«نعم، جميلة جداً، أين ستضعون الجديد؟»

«الجديد؟»

«نعم، ألن تشتروا غيره؟»

تبادلت سارة وأمها نظرات التعجب.

وقال خطيب سارة: «إنني مجنون بالبيانو، لا تتصوري كم يريحني. إنني أسمع طلقات البنادق طوال النهار. وقليل من الموسيقى الناعمة في المساء...».

سعلت سارة لتوقفه، غادر جوان البيت. أحس بالاختناق، وبالحاجة إلى التنفس، من أيضا سيخرج من الليل ليأتيه ويطالبه بأشياء أخرى؟ كيف كان يمكنه أن يعرف أن بيانو ظل محجوباً عن العالم، وظل يعيش في خفاء هادئ، هو موضوع يحظى حقا باهتمام عام؟ لماذا لم يتركه فحسب حيث كان؟

إنه الآن على بعد أميال، مسافر.. بعيداً، راكب متن البحار الجنوبية.. وحر أكثر منه ومن سارة أو روزاليا. إنما هو، جوان دي أوليفيرا، وعائلته، هم الذين هجرهم البيانو. وبالنسبة له ولعائلته، لم يعد البيانو ملكاً لهم بعد ذلك. إنه مخلوق حر في العالم، مليء بالحياة والفخر، يتحرك بجرأة عبر البحار السبعة، يتصاعد بالألحان، تحتضنه كل مياه العالم، حر يذهب حيث يشاء، يفعل ما يشاء.

وتحت الأشجار أمام البيت، كان الصبية الزنوج ينتظرون أجر يومهم الثاني. لقد عملوا بجدية. كان الظلام شديداً حتى إنه استطاع أن يميز رؤوسهم الحليقة بصعوبة. وفي وسطهم رأى شبح شخص مألوف، فتح الشخص بوابة الحديقة، وسأله الإذن بالدخول.

وبصعوبة، تعرف جوان على ذي الشعر الأحمر، ولكنه كان غير مستعد إطلاقاً لسماع ماأراد الرجل قوله:

«لقد عدت من أجل البيانو. أظن أنني أستطيع أن أعرض عليك ثمناً معقولاً!»

ترجمة: سحر توفيق

الشاطئ الثالث للنهر

جوان جيمارانس روزا

جوان جيمارانس روزا
(١٩٠٨- ١٩٦٧) Joáo Guimaráes Rosa

- ولد- بصورة موحية- في سنة موت ماشادو ده أسيس نفسها. وقد وصفه كاتب القصة المكسيكي خوان رولفو بأنه «أعظم كاتب ظهر في الأمريكتين في هذا القرن».

- أتقن الفرنسية واللاتينية واليونانية والروسية والألمانية والإنجليزية واليابانية،وعمل مع مترجميه في ترجمات أعماله إلى الإيطالية والفرنسية والإنجليزية والألمانية. ومثل جويس في الإنجليزية، قام بابتكار لغته البرتغالية البرازيلية الخاصة.

- درس الطب، وتنقل في داخل البلاد كطبيب ريفي، كما درس الفلسفة والدين والعلوم الطبيعية (وخاصة علم النبات وعلم الحياة وعلم الحيوان) وهي عناصر مكونة للأبعاد الكونية لمرتكزاته الأدبية.

- كتب الرواية، والرواية القصيرة، والقصة القصيرة، والشعر، وتنطلق رائعته الروائية: «السرتون الكبير- دروب» من الأسطورة الفاوستية عن عقد اتفاق مع الشيطان، وتتخذ شكل مونولوج طويل يسرده ريبالدو تاتارانا الصوفي بغرابة، الذي يجد نفسه معلقا بين الرب والشيطان فيما كان يصارع التناقض بين ميل مذكر وميل مؤنث في أعماق روحه.

- منذ وفاته، لم تعوض القصة البرازيلية خسارتها لكاتبها الميتافيزيقي الأول والأعظم. وببطء ولكن بصورة لا يمكن تفاديها يجد جوان جيمارانس روزا مكانه الصحيح في الأدب العالمي.

الشاطئ الثالث للنهر

جوان جيمارانس روزا

كان أبي رجلا منقاداً، مطيعاً، مستقيماً. ووفقاً لأشخاص موثوقين عديدين سألتهم عنه، كان يتصف بهذه السجايا منذ المراهقة وحتى منذ الطفولة. وفي حدود ذكرياتي، لم يكن أكثر مرحاً ولا أكثر سوداوية من بقية الرجال الذين عرفناهم. ربما كان أهدأ قليلا. وكانت أمي، وليس أبي، هي التي تحكم البيت. كانت توبخنا كل يوم (أختي وأخي وأنا). غير أنه حدث ذات يوم أن أبي أمر بصنع قارب له.

كان جادا تماماً بهذا الخصوص. وكان ينبغي صنعه من أجله خصيصاً، من خشب الميموزا. وكان ينبغي أن يكون متيناً بما يكفي للصمود عشرين أو ثلاثين سنة وألا يكون كبيرا إلا بما يكفي لأن يتسع لشخص واحد. وتذمرت أمي كثيراً لذلك. هل سيصبح زوجها صياد سمك فجأة؟ أو صيادًا؟ ولم يقل أبي شيئاً. وكان بيتنا على مسافة تقل عن ميل من النهر، الذي كان في تلك الناحية عميقاً، وهادئاً، وعريضا حتى إنه لم يكن بوسعك أن ترى الشاطئ الآخر.

لا يمكنني أن أنسى اليوم الذي تم فيه تسليم القارب ذي المجدافين. لم يظهر أبي ابتهاجا أو أي انفعال آخر. كل ما هناك أنه لبس قبعته كما كان يفعل دائما وقال لنا مع السلامة. لم يأخذ معه أي طعام أو ربطة من أي نوع. وتوقعنا من أمي أن توبخ وتهاجم، لكنها لم تفعل. بدت شاحبة للغاية، وعضت على شفتها، وكان كل ما قالت: «إذا ذهبت بعيداً، ابق بعيداً. لاتعد أبدا!».

لم يرد أبي أي رد. نظر إلي برقة، وبإشارة طلب مني السير برفقته. خشيت أن تثور أمي غاضبة، لكنني أطعت بتلهف. اتجهنا معا إلى النهر، وأحسست بمزيد من الجرأة والبهجة فقلت: «أبي، هل ستأخذني معك في قاربك؟».

فقط نظر إلي، ودعا لي بأن يباركني الرب، وبإشارة طلب مني أن أعود. تظاهرت بأنني سأفعل ما طلب، لكنني، عندما أدار ظهره، تواريت وراء بعض الشجيرات لأراقبه. ركب أبي القارب وأخذ يجذف مبتعدا. وزحف ظل القارب على الماء كتمساح طويل وهادئ.

لم يعد أبي. كذلك لم يذهب في الواقع إلى أي مكان. فقط كان يجذف ويطفو هنا وهناك في عرض النهر، وارتاع الجميع. ما لم يحدث، ما لا يجوز أن يحدث، كان يحدث. وأقبل أقاربنا وجيراننا وأصدقاؤنا ليتشاوروا حول ذلك الحدث الخارق.

كانت أمي خجلة. ولم تقل سوى القليل، وتصرفت برزانة بالغة. وبالتالي، اعتقد الجميع تقريباً (مع أن أحداً لم يقل ذلك) أن أبي أصابه الجنون. لكن قلة لمحوا إلى أن أبي ربما كان يفي بنذر نذره للرب أو لأحد القديسين، أو أنه ربما أصيب بمرض رهيب، ربما الجذام، وأنه رحل خوفا على الأسرة، راغباً في الوقت ذاته في أن يبقى قريباً منهم إلى حد ما.

وروى المسافرون بمحاذاة النهر والناس الذين يعيشون قرب الشاطئ على هذا الجانب أو ذاك أن أبي لم يضع قدمه على البر، في نهار أو ليل. فقط كان يتنقل هنا وهناك في النهر، متوحداً، هائماً بلا هدف، مثل منبوذ. واتفق أقاربنا وأمي على أن الطعام الذي لا شك في أنه كان قد خبأه في القارب سينفد في القريب العاجل، وعلى أنه عندئذ إما أن يغادر النهر ويرحل بعيداً إلى مكان ما (الأمر الذي سيكون على الأقل أكثر احتراماً بعض الشيء)، أو أن يندم ويعود إلى البيت.

وكم كانوا بعيدين عن الحقيقة! كان لأبي مصدر سري للإمداد بالطعام: أنا. فكل يوم كنت أسرق الطعام وأحمله إليه. وفي الليلة الأولى بعد رحيله، أوقدنا جميعاً النار على الشاطئ وصلينا وظللنا ننادي عليه. كنت شديد الحزن، وأحسست بحاجة إلى أن أفعل شيئاً أكثر. وفي اليوم التالي نزلت إلى الشاطئ برغيف من خبز الذرة، وسباطة من الموز،

وبعض قوالب السكر الخام الأسمر. وانتظرت بتلهف ساعة طويلة، ثم رأيت القارب، بعيدا جداً، وحيداً، ينساب بهدوء لا تكاد تدركه العين فوق السطح الهادئ للنهر. كان أبي يجلس في قاع القارب. رآني لكنه لم يجذف نحوي أو يأت بأي بادرة. أظهرت له الطعام ثم وضعته في صخرة مجوفة على شاطئ النهر، فكان هناك بمأمن من الحيوانات، والمطر، والندى. وفعلت ذلك كل يوم، وظللت أفعله بلا انقطاع. وعلمت فيما بعد، لدهشتي، أن أمي كانت تعرف ماكنت أفعل فكانت تترك الطعام هنا وهناك حيث يمكنني أن أسرقه بسهولة. كان لديها الكثير من المشاعر التي لم تفصح عنها.

وأرسلت أمي في طلب أخيها ليأتي ويساعد في المزرعة وفي شؤون العمل. وأتت بالمدرس ليدرسنا نحن الأطفال في البيت لتعويض الوقت الذي أضعناه. وذات يوم - وبناء على طلبها - ارتدى القسيس أرديته ونزل إلى الشاطئ، وحاول أن يطرد الشياطين التي حلت بأبي. وصرخ بقوله: إن من واجب أبي أن يكف عن عناده الأثيم. وفي يوم آخر رتبت للمجيء بجنديين ليحاولا تخويفه. كل ذلك بلا طائل. ذلك أن أبي كان يمر بعيدا، وأحياناً بعيداً جدا حتى إنه كان يرى بالكاد. ولم يرد على أحد، ولم يقترب منه أحد مطلقاً. وعندما أتى بعض رجال الصحافة في قارب صغير ليلتقطوا له صورة، وجه أبي قاربه إلى الجانب الآخر للنهر وإلى داخل المستنقعات، التي كان يعرفها مثل كف يده، لكن سرعان ماكان يتوه فيها غيره. وهناك في متاهته الخصوصية، التي امتدت على مدى أميال، بأوراق النبات الثقيلة التي ترتفع إلى ما فوق الرأس وبالحلفاء على كل جانب، كان آمنا.

وكان علينا أن نعتاد فكرة أن أبي هناك في عرض النهر، لكننا لم نستطع.. لم نستطع مطلقا. وأعتقد أنني الشخص الوحيد الذي فهم - إلى حد ما - ما أراده وما لم يرده أبي. الشيء الذي لم أفهمه مطلقا هو كيف صمد لكل ذلك العناء ليلاً ونهارا، في الشمس والمطر، في الحر وفي زمهرير الشتاء المفزع، بقبعته القديمة على رأسه، وبقليل جدا من

الملابس الأخرى، أسبوعا بعد أسبوع، شهرا بعد شهر، سنة بعد سنة، دون أن يبالي بالفراغ والخواء اللذين كانت تنزلق إليهما حياته. لم يضع قدمه مطلقاً على أرض جرداء أو معشوشبة، على جزيرة أوشاطئ بر. ولا شك في أنه كان يربط قاربه أحيانا في مكان خفي، ربما عند رأس جزيرة ما، ليغفو قليلا. لم يوقد نارا قط، أو حتى يشعل ثقابا، ولم يكن لديه حتى بطارية صغيرة. وكان لا يتناول إلا جزءاً ضئيلاً من الطعام الذي كنت أتركه في الصخرة المجوفة، ولم يكن كافيا ـ فيما بدا لي ـ لمجرد البقاء على قيد الحياة. ماذا كان يمكن لحالته الصحية أن تكون؟ وماذا عن الاستنزاف المتواصل لطاقته، وهو يشد ويدفع المجذافين ليتحكم في القارب؟ وكيف نجا من الفيضانات السنوية. عندما كان النهر يفيض فيجرف معه كل أنواع الأشياء الخطرة- أغصان الشجر، جثث الحيوانات- التي كان يمكن أن ترتطم فجأة بقاربه الصغير؟

لم يتحدث مطلقا مع كائن حي. ولم نتحدث عنه مطلقاً. كنا نفكر فقط. لا، لم نستطع قط أن نخرج أبانا من رأسنا، وإن بدا لفترة قصيرة أننا نفعل، فإن ذلك لم يكن سوى خمود مؤقت كان لابد أن يفيقنا منه بحدة إدراك وضعه المريع.

تزوجت أختي، غير أن أمي رفضت إقامة حفل زفاف. كان ذلك سيغدو أمرا حزينا، ذلك أننا كنا نفكر فيه كلما أكلنا طعاما شهيا بوجه خاص. تماما كما فكرنا فيه ونحن في فراشنا الحميم الدافئ في ليلة عاصفة باردة. هناك في الخارج، وحيدا وبلا رعاية، يحاول أن ينزح الماء من القارب بيديه وبقرعة مجوفة لا غير. ومن حين لآخر كان يقول شخص ما إنني أزداد شبها بأبي أكثر فأكثر، لكنني كنت أعرف أنه في ذلك الوقت كان لابد أن شعره ولحيته أصبحا أشعثين وأظافره طويلة. وتخيلته نحيلا وعليلا، أسود بالشعر وبلفحة الشمس، وعاريا تقريبا رغم الملابس التي كنت أتركها له من حين لآخر.

كان لا يبدو أنه يهتم بنا على الإطلاق، لكنني أحسست نحوه بالمحبة والاحترام، وكلما امتدحوني لأنني فعلت شيئاً ما طيبا، كنت أقول: «علمني

أبي أن أتصرف بهذه الطريقة».

ولم أكن دقيقا تماما لكنه كان نوعا صادقا من الكذب. وكما قلت، كان لا يبدو أن أبي يهتم بنا. لكن لماذا إذن يبقى هناك بالقرب منا؟ لماذا لم يرحل صاعدا في النهر أو هابطا في النهر، بعيداً عن إمكانية أن يرانا أو نراه؟ كان وحده يعلم الإجابة.

رزقت أختي بمولود، وأصرت على أن يرى أبي حفيده. وذات يوم جميل نزلنا جميعا إلى شاطئ النهر، وكانت أختي في فستان زفافها الأبيض، ورفعت المولود عاليا. وكان زوجها يمسك بشمسية فوقهما. نادينا صائحين على أبي وانتظرنا. لم يظهر. بكت أختي، وبكينا جميعا كل منا بين ذراعي الآخر.

رحلت أختي وزوجها بعيدا، ورحل أخي ليعيش في مدينة. تغير الزمن بسرعته المعتادة غير الملحوظة. وأخيرا رحلت أمي، كانت عجوزا وذهبت لتعيش مع ابنتها. وبقيت أنا، فضلة متخلفة. لم يكن بوسعي على الإطلاق أن أفكر في الزواج. فقط بقيت هناك مع أثقال حياتي. كان أبي، وهو يطوف وحيدا ويائسا في عرض النهر، يحتاج إلي. كنت أعلم أنه يحتاج إلي، رغم أنه لم يخبرني مطلقا لماذا يفعل ما كان يفعل. وعندما طرحت هذا السؤال على الناس بصراحة وإلحاح، كان كل ما قالوه لي هو إنهم سمعوا أن أبي شرح السبب للرجل الذي صنع القارب. لكن هذا الرجل كان في ذلك الحين قد مات، ولا أحد كان يعلم أو يتذكر شيئا فقط كان هناك كلام أحمق، خاصة عندما كانت الأمطار تسقط ثقيلة ومتواصلة، مؤداه أن أبي كان حكيما مثل نوح، وأنه امر بصنع القارب تحسبا لطوفان جديد، وأنا أتذكر تذكرا باهتا أشخاصا كانوا يقولون هذا. وعلى أي حال، أنا لن أدين أبي على ما كان يفعل، وكان شعري بدأ يشيب.

لم يعد لدي سوى أشياء حزينة أقولها. ماذا كنت قد فعلت، ماذا كان ذنبي الكبير؟ أبي دائما بعيد وغيابه دائما معي. والنهر، النهر دائما، يجدد نفسه دائما أبدا، وكنت قد بدأت أعاني من الشيخوخة، التي تكون

فيها الحياة مجرد نوع من التلكؤ. أصابتني نوبات من المرض ومن القلق. أصابني روماتيزم مزمن مزعج. وهو؟ لماذا، لماذا كان يفعل ما كان يفعل؟ لابد أنه كان يعاني معاناة مفزعة، وكان عجوزا للغاية. وربما خذلته قواه، ذات يوم، ليترك القارب ينقلب، أو ربما ترك التيار يحمله مع مجرى النهر، فيظل يجرفه، إلى أن يندفع من فوق الشلال فيغوص في الخضم الهائج تحته. ضغط كل هذا على قلبي. كان هو هناك في عرض النهر، وكنت أنا قد سرقت مني طمأنينتي إلى الأبد. إنني مذنب.. لاأدري بماذا، وألمي جرح مفتوح بداخلي. وربما كنت عرفت لو كانت الأمور مختلفة. لقد بدأت أخمن أين كان مكمن الخطأ. قلها! أصابني الجنون. لا، تلك الكلمة لم تنطق في بيتنا أبدا، أبدا على مر السنين. لا أحد وصف أحدا بأنه مجنون، لأنه لا أحد مجنون، أو ربما الجميع. كان كل ما فعلت هو أنني ذهبت إلى هناك ولوحت بمنديل حتى يكون من المحتمل أكثر أن يراني. كنت كامل السيطرة على نفسي. انتظرت. أخيراً ظهر من بعيد، هناك، ثم هنالك، شبح معتم يجلس في مؤخرة القارب. ناديت عليه مرارا، وقلت ما كنت شديد التلهف على قوله، لأعلنه رسمياً، وأقسم عليه. قلته بصوت عال بأقصى ما استطعت:

«أبي، بقيت عندك طويلا بما فيه الكفاية. أنت الآن عجوز... عد، لاينبغي أن تستمر فيما تفعل... عد وسأذهب أنا بدلا منك. الآن فوراً إن شئت. في أي وقت. سأركب القارب. سآخذ مكانك»

عندما انتهيت من قول هذا خفق قلبي بمزيد من العزم.

سمعني. هب واقفاً. ناور بمجذافيه ووجه القارب نحوي. لقد قبل العرض. وفجأة ارتجفت، في أعمق أعماقي. ذلك أنه رفع ذراعه ولوح للمرة الأولى منذ سنين طويلة جداً، طويلة جداً. ولم أقدر.. في فزع، وشعري واقف، جريت، فررت بجنون. ذلك أنه بدا أنه آت من عالم آخر. وأنا ألتمس الصفح، ألتمس، ألتمس.

ذقت الإحساس المريع بالبرد الذي يأتي من الخوف القاتل، ومرضت.

لا أحد رآه أو سمع عنه مطلقاً بعد ذلك. هل أنا رجل بعد كل هذه الخيبة؟ أنا ما لا ينبغي أبداً أن يكون. أنا ما يجب أن يبقى صامتا. أعرف أنه فات الأوان. ينبغي أن أبقى في صحاري حياتي وسهولها التي لا تراها العين. وأخشى أنني سأقصر هذه الحياة. لكن عندما يأتي الموت أريد أن يأخذوني ويضعوني في قارب صغير في هذه المياه الأبدية بين الشاطئين الطويلين، وأنا، في قاع النهر، ضائع في النهر، بداخل النهر... النهر...

ترجمة: خليل كلفت

الصبي تارسيزو

ديناي سيلفيرا ده كيروس

ديناي سيلفيرا ده كيـــروس
(١٩١١-) Dinah Silveira de Queiroz

- كانت أول امرأة تفوز بجائزة ماشادو ده أسيس التي تمنحها الأكاديمية البرازيلية للآداب.

- عاشت في الخارج، وسافرت كثيرا جدا مع زوجها الدبلوماسي، قبل أن يستقرا في مدينة برازيليا.

- كتبت روايات ومسرحيات وقصصا قصيرة كما كتبت للأطفال.

الصبي تارسيزو

ديناي سيلفيرا ده كيروس

كانت ضيعة آل فيلارس تبدأ بعد الجسر الرمادي مباشرة. وكانت هناك أشجار صفصاف بابيلون قليلة تميل نحو الحائط، متدلية إلى الأرض الترابية، وكأنها تلتمس الراحة من معاناتها. وأثارت ريح مهدهدة دافئة أوراق الشجر في الأغصان العليا، وهزت نوافذ البيت وكأنها أرادت أن تفتحها عنوة.

كان البستاني يقتلع بعض الأعشاب الضارة، منحنياً إلى الأرض. وكان يقوم بذلك بعناية فائقة لكي لا يؤذي الزهور. ومن حين لآخر كان ينظر إلى السماء. وكانت الأرض بحاجة ماسة إلى الماء، ولم يكن هناك شيء سوى تلك الريح المدمرة الجافة التي هبت بلا رحمة على النباتات وعلى البشر.

انفتح الباب الأمامي للبيت، وظهرت مانينيا، رقيقة، طويلة، شاحبة، وكان شعرها يتطاير وفستانها الأبيض يرفرف في الريح مثل جناح.

«إذا رأيت سيارة تعبر الجسر» قالت، «اصرخ وحذرهم من المصرف»

«حاضر»، أجاب البستاني، «سأحذرهم. انتظري عندك قليلاً ياآنسة!»

ونهض واقفاً، ممسكاً بباقة من الزهور الحمراء. وكانت الزهور كبيرة ومنتفخة وغضة حتى إنها بدت صناعية تقريباً.

«إنها متينة، يا آنسة. ليست هناك ريح قوية بما يكفي لاقتلاعها»

ابتسمت مانينيا شاكرة، وأخذت الزهور، وأسرعت عائدة إلى البيت. وعندما دخلت حجرة الجلوس، أحست بنفس الجو المزعج المتوتر كما كان عندما غادرتها قبل ذلك بدقائق قليلة. ذلك أن أمها وأباها كانا لايزالان يتجادلان بطريقتهما الخاصة. كانا يجرحان بعضهما بصفة

مستمرة في سياق حرب كانت رهيبة ومكبوحة على نحو غريب. لاصياح، لا بكاء، لا انفجارات غضب مفاجئة. بل معركة منهجية باردة كانت إشاراتها مدروسة، وكلماتها محسوبة، لا طائشة أو انفعالية بحال من الأحوال. مرت مانينيا عبر الحجرة، بأثاثها الثقيل الداكن، كنسمة خفيفة، بيضاء كلها لولا البقعة الحمراء من الزهور في يدها. صعدت على السلم الحديدي. وهناك في الأسفل، قال كارلوس فيلارس لزوجته، وعيناه على ابنته:

«أنا أعرف الغرض من تلك الزهور، طبعاً. الصبي مريض، ربما مرضاً خطيراً جداً، وكل ما يمكنك أن تفكري فيه هو أن ترسلي ابنتك لاسترضاء القديسين بهبة. وربما شُفي الصبي على الرغم منك»

قال كارلوس هذا بلهجة ساخرة، وسحبت شفتاه الرفيعتان ما كان المقصود به ابتسامة. وبالنسبة لزوجته لويزا، كانت هذه الكلمات نوعاً من الخيانة. رفعت وجهها النحيل، وتفرّست فيه من زاوية عينها مثل طائر يوشك على مهاجمة فريسته بمنقاره.

«إنها زهور من أجل المذبح الذي صنعه تارسيزو بنفسه عندما كان صبياً صغيراً. كان ابنك مؤمناً، وكان مطمئن البال. أنت الذي دفعته إلى الشك، أنت بماديتك وبخُطبك المبتذلة. لم يكن إيماني، ولم تكن الزهور التي وضعناها أنا ومانينيا عند قدميّ السيدة العذراء، ماشوّش عقل الصبي، وأضله. إنه أنت! «أريد أن يكون ابني أسعد مما كنتُ أنا، أن يحصل من الحياة على سعادة أكبر. خُذ كل النقود التي تريدها، يا بني! لم تكن لديّ أي نقود على الإطلاق عندما كنتُ في عمرك. اذهبْ وتمتع بوقت طيب. افلتْ من هذا الالتصاق بأمك». تذكّر فقط... تذكّر فقط، أنت الذي خلقت هذه الأزمة لتارسيزو. أنت ونصائحك الرائعة»

فكّ كارلوس فيلارس أزرار البالطو وأخذ يذهب ويجيء بخطى واسعة. وكانت خطاه هادئة ومحسوبة.

«نعم، شرحتُ له بعض الأمور. طبعا. لم يكن بوسعي أن أترك ابني

يصبح مخنثاً. ما أكثر ما نظرت إلى الصبي - وهو في مثل طولي تقريباً، رجل ناضج تقريباً - وخجلتُ منه، من جبنه الذي لا يُصدّق»

عندئذ أدارت لويزا وجهها النحيل نحو زوجها وحدجته بنظرة قاسية.

«لقد ضحّيت بالصبي لإرضاء غرورك أنت. الحقيقة هي أنك أحسست فجأة بأن تارسيزو متعلق بي. كان ينتمي إليّ! لا شيء من فصاحتك، لا شيء من ماديتك الفظة، كان من شأنه أن يقنعه. كان مافعلته أنت... إجرامياً. نعم! أنا أقولها واضحة وجلية، وأنا أتحمل مسؤولية ما أقول: أنت أمرضت الصبي، ربما لبقية عمره!»

«ليس هناك جنون في أسرتي. هل يمكنك أن تقولي الشيء نفسه؟ عمك ذلك الذي ارتدى رداء الكهنوت وخرج إلى الشارع يتسول المحبة من أجل الفقراء! لقد بدّد ماله، منحه لأي متشرد كان بوسعه أن يلقاه. الناس في أسرتي أسوياء»

اختلج وجه لويزا غير أن صوتها كان حازماً وقاسياً.

«أنتَ؟... أنت لم تتصرف مطلقاً كما ينبغي لأب. لقد أطلعته على الكتب الفاضحة. صحيح أنك لم تطلعه عليها مباشرة، لقد اكتفيت بتركها حوله هنا وهناك حيث كنت تعلم أنه سيراها. بالنسبة لتارسيزو، بالنسبة لصبي في براءته، كان كل سلوكك صدمة مستمرة. هذه هي مشكلة الصبي كلها»

مرّ كارلوس بيده على رأسه الوسيم ذي الشعر الأشيب.

«عندما يصل الدكتور لايرتس إلى هنا، ناديني في الحال»

لم يحدث مطلقاً من قبل أن بدتْ لويزا شبيهة إلى هذا الحد بطائر عدواني. ارتفع صوتها درجة: «أنا طلبت الأب نيكولاو. حقوقي مساوية لحقوقك. أنت تعتقد أن تارسيزو يحتاج إلى طبيب. أنا أعتقد أنه يحتاج إلى قسيس».

كان زوجها يوشك على صعود السلالم.

«يا للصبي المسكين! يؤسفني لجوءك إلى حشر الأب نيكولاو في هذا الموضوع. طريقته تلك - ولا أدري أهو الحرص أم الغباء - في التفكير نصف ساعة قبل أن يقول أي شيء. اطلبي أي شخص تشائين، اطلبي البستاني إن شئت ما دام الدكتور لا يرتس سيأتي. هذا هو الشيء المهم»

صعد كارلوس ببطء على السلالم، ومر بمانينيا، التي كانت تنزل مسرعة إلى أمها. ولو أنه نظر إليها لرأى أنها كانت منزعجة. وبمجرد أن دخل أبوها حجرة تارسيزو، قالت مانينيا: «ماما، أقسمت أنني لن أخبر أحداً، ولكنني سأخبرك على أي حال. الآن أعرف الأمر برمته. لقد أخبرني!».

«هل فعل شيئاً ما... مخيفاً عندما خرج؟ ما هو؟ أخبريني، لكن تكلمي بصوت خافت حتى لا يسمع أبوك»

«شيء مرعب يا ماما. لا أعتقد أنه فعل هذا حقاً. لا أدري، لكنه أراد أن يفعله»

رفعت مانينيا عينيها ونظرت إلى باب تارسيزو. كان مغلقاً، لم يكن هناك خطر.

«بدأ الأمر كله ببعض الأحلام التي رآها. هل تتذكرين عندما اعتاد البقاء فوق يستذكر، ليلة بعد ليلة؟ أنت كنت غاضبة منه، أما هو فقال إنه لم يكن ميالاً إلى النوم. حسناً، الحقيقة هي... أنه لم يرغب في النوم. كان يخشى أن يرى كوابيس. ماما، لماذا يتعين على شخص طيب مثل تارسيزو أن يعاني هكذا؟»

دق جرس الباب.

«لا بد أنه الدكتور لايرتس»، قالت لويزا. «أخبريني بالباقي فيما بعد»

سارت مسرعة إلى واجهة البيت. ولدهشتها كان الأب نيكولاو هو القادم.

«جئت بأسرع ما أمكنني». كان يتوقف كل ثانيتين ليتنفس. «وصلني الكولونيل جوليانو بسيارته... ما المشكلة؟»

غاص متثاقلاً في كرسي مريح قبل أن تجد لويزا فرصة لتدعوه إلى الجلوس.

«هذه الريح... ليست طيبة بالنسبة لي.... السيارة كادت... تقع في مصرف... بعد ذلك مباشرة... حذرنا منه... بستانيكم»

«أنا آسفة جداً، لكن لحسن الحظ كان كل ما هناك مجرد (خضة)، أليس كذلك؟ لم يصب أحد بسوء».

«هذا صحيح. والآن أخبريني... ما الأمر؟... هناك مشكلة؟... هذه السيدة الشابة...؟»

«المشكلة لا تخصني»، قالت مانينيا. «إنها تخص أخي تارسيزو»

قاطعتها لويزا بإشارة خشنة.

«تارسيزو يتصرف منذ بعض الوقت بطريقة غريبة»، قالت للقسيس بصوت خافت: «يعتقد زوجي أنه مريض. أحياناً يفر من البيت دون أن يقول لنا إلى أين هو ذاهب، وبعد أن يعود لا يتكلم مع أحد لساعات عدة»

«آه!» قال الأب نيكولاو. «هكذا، إذن، تارسيزو... الذي اعتاد أن يلعب القداس... عندما كان صغيراً... يفر بطريقة غامضة؟»

«نحن نعتقد... أنه ربما كانت هناك فتاة»

«نحن نعتقد أنه ربما كانت له علاقة غرامية»، قالت مانينيا برزانة أخت كبرى.

ابتسم القسيس.

«لا بد أن الأمر كذلك... إفراط في الحب المراهق... ربما دلع... تدليل زيادة عن اللزوم»

«ماما، هل يمكنني أن أتكلم الآن؟ هل يمكنني أن أخبر الأب نيكولاو؟»

«طبعاً، يا مانينيا، لكن بصوت خافت. قد يسمعك أبوك»

«أيها الأب نيكولاو»، بدأت مانينيا، «إنه شيء فظيع. لا أدري كيف أبدأ»

«طفلتي، تخيلي... أنك على كرسي الاعتراف... لا تخافي»

«إنها كوابيس تارسيزو. في البداية كان دائماً يبذل جهداً ويوقظ نفسه... لكنه بعد فترة أصبح يترك نفسه ليستمر في النوم ويحلم. كان ذلك مريعاً»

نظرت عيناها المرتعبتان إلى القسيس، ثم إلى أمها، ثم إلى القسيس من جديد.

«رأى رجالاً تغطي القروح أجسادهم. رجالاً بلا وجوه. بعضهم يتدلى اللحم من عظامهم العارية مثل خرق بالية. رأى أرجلا متورمة، أرجلا مصابة بالغرغرينة. رأى شفاها أكلتها القروح. رأى دمامل يقطر منها الصديد. والأسوأ...»

كانت عينا مانينيا في تلك اللحظة تغشاهما الدموع.

«... أسوأ ما في الأمر هو أن تارسيزو أحب كل ذلك. ليتني أفهم. قال لي: (مانينيا، لا أريد أن أخفي عنك أي أسرار). هل يمكنني أن أخبرك بما قال بالضبط، أيها الأب نيكولاو، هل يمكنني أن أخبرك مهما كان الأمر فظيعاً؟ قال: (لم تجذبني بهذا القدر ولا واحدة من تلك الصور التي في الكتب والتي يعد النظر إليها خطيئة. وبدلاً من الإحساس بالاشمئزاز، رغبت في أن ألمس تلك القروح... أن أقبلها... أن أغمس أصابعي في الصديد)»

ساد صمت. ثم واصلت مانينيا: «يقول تارسيزو إن إحساسه لم يكن هكذا في البداية. لقد رأى أولئك الرجال المرعبين أمامه...»

زمت لويزا شفتيها، ثم قالت بصوت خافت: «ولدي الصغير المسكين!»

احمرّ وجه الأب نيكولاو. كان يتنفس بصعوبة، وبدا أنه على شفا الإصابة بالسكتة الدماغية.

«ثم ماذا؟» قال بصعوبة.

كان من الممكن أن يسمع صوت باب يفتح.

«بعد ذلك، بدأت الأحلام توغل في التخليط والتشوش: أولئك الرجال الذين تغطي القروح أجسادهم أخذوا يتحولون إلى صغار جدا، صغار جدا، وأحس تارسيزو بأنه ضخم وقوي. كانوا يضعون أذرعة هياكلهم العظمية حوله، ويطلبون المحبة أو شيئاً ما. لم يعرف تارسيزو ما هو بالضبط. (لا تتركنا! لا تتركنا!) هكذا كانوا يصيحون. وكان تارسيزو سعيداً بأن يدعهم يحضنونه ويقبلونه، ورغب في أن يقبلهم بدوره. كانت لديه رغبة مجنونة في أن يكون مثلهم، أن يكون واحداً منهم. لم يستطع أخي أن يشرح كيف كان إحساسه بالضبط، ماذا كان بالضبط ذلك الانجذاب المفزع... غير أنه أصيب فجأة بالخوف، وولى الأدبار. وجرى الرجال القصار ذوو القروح وراءه مثل جمع من الأقزام المفزعين. وظلوا يمسكون برجليه...»

«هكذا كان الأمر إذن!» كان كارلوس يقف ممتقع الوجه للغاية أمام مانينيا.

«اخبري أباك»، قال: «كان ينبغي أن أعرف. كان ينبغي... لن يحدث شيء. لن أفعل شيئاً. لكن ينبغي أن أعرف. لماذا ينبغي أن يعرف الأب نيكولاو ما يدور في هذا البيت أكثر مما أعرف؟ لماذا تخفون جميعاً أشياء عني؟ هيا، تكلمي!»

«هذا كل ما هناك يا بابا. باستثناء أنه كل صباح بعد تلك الأحلام المفزعة، أراد تارسيزو... أن يذهب إلى الكنيسة»

هز كارلوس رأسه غاضباً.

«أنا لست مندهشاً. استمري»

«عندما وصل إلى سلالم الكنيسة، ما كان منه إلا أن وقف هناك ينظر إلى الشحاذين. كان مفتوناً بهم. أنت تعرف تلك المرأة المصابة بالحمرة (مرض جلدي)، ذات الساق المتورمة، والرجل ذا القرحة الضخمة بدلاً من أنف... وقف تارسيزو هنالك ينظر إليهما. وأحس في دخيلة نفسه بأنه يرغب في أن يقبلهما، أن يتحسس القرحة بأصابعه، أن يربت على الساق المتورمة. ثم كان يستدير ويجري وهو يقول: (يا لطيف، انقذني! سأجن!) وذات ليلة ظل يحلم طول الليل، أحلاماً كانت كلها مشوشة، بأصوات مبهمة تناديه. لا أدري... وعندما جاء الصباح واصل أحلامه، وعيناه مفتوحتان، وهو يدور حول نفسه وكأن شخصاً ما كان يدفعه»

نظر كارلوس إلى لويزا بوجه تعلوه سيماء تعبر في آن معاً عن الظفر واليأس.

«ألم أقل لك؟ ألا يزال رأيك أنني الملوم؟» ثم استدار إلى الأب نيكولاو، وقال: «اعتقدت لويزا أن أشياء بعينها قلتها أنا لابني صدمته وأضلته. اعتقدت - هل تتصور؟ - أن ما أسمته ماديتي كان وراء كل متاعب الصبي. قل لها إن هذا الشيء الذي حدث لتارسيزو مرض، مرض، وأنني لست مسؤولاً عنه. يمكنك أن تدرك هذا!»

كان الأب نيكولاو مضطرباً.

«أحياناً»، قال، «كل من الأب والأم، من فرط الحب، يمكن أن يؤذي... يمكن أن يسبب اضطراباً في عقل طفل. إنهما يريدان أن يطبعا روحيهما على روح الطفل... كل منهما يحاول أن يطبع صورته على قلب الطفل. إنهما يريدان أن يدمرا روحه. هذه أنانية طبيعية، لكن أحياناً...»

خفضت لويزا عينيها. «أيها الأب نيكولاو»، قالت. «لنذهب إلى الصبي».

«تارسيزو نائم»، قال كارلوس. «إنه مرهق للغاية. لا ينبغي أن توقظوه».

«لماذا لم يأتِ الدكتور؟!» قالت مانينيا «قال لي تارسيزو إنه يحس بداخله بقوة هائلة. وهو يقول إنه سيرحل ولا يعلم إلى أين، وهو خائف... لقد أقفلت بابه بالمفتاح»

الأب نيكولاو، مبلبل الفكر بصورة ملحوظة، أخذ يطلق الكلمات كيفما اتفق: «الصبي كان يبدو دائماً... هادئاً... سوياً...» ثم مستديراً إلى لويزا: «ابنتي، الرب هو الخير، هو اللطف... بدلاً من أن تتجادلي مع زوجك... ينبغي أن تحاولي الاتفاق معه على حل وسط... أنت وزوجك لا ينبغي أن تظهرا لتارسيزو أنكما على خلاف... لا بد أن هذا أضر بالصبي بالتأكيد... يا للمسكين! لم يعرف إلى جانب أيكما يقف، وفي غمار حيرته أصبح عقله مشوشاً. هذا ما حدث... هل توافق ياكارلوس؟... ألا توافق؟ كما أن من الأهمية ألا تنسى في هذه اللحظة قوة الصلاة»

غير أن كارلوس حدج لويزا بنظرة مليئة بالاتهام. وبدا أنها تعني: «ألم أقل لك هذا؟»

فتحت مانينيا الباب الأمامي. أخذ الوقت يتأخر، وكانت الريح لاتزال تهب. وكانت تفكر في أن الدكتور لايرتس لا بد أن يصل في أي لحظة.

كانت السيارة تتحرك ببطء شديد. انحنى رجل إلى الخارج من نافذة المقعد الأمامي.

«الزم هذه الناحية»، صاح البستاني. «هذه الجهة».

بعد أن عبرت السيارة الجسر توقفت وخرج منها الرجل.

«أنا عرفتك»، قال، «بمجرد أن...»

شحب وجه البستاني.

«دكتور لايرتس!»

«نعم، إنه أنا. هل ظننت أن بوسعك أن تهرب من المستشفى ثم لايقبض عليك؟»

كانت الحالة البدنية للدكتور تعبر عن السلطة والاختصاص مثل حالة ضابط جيش.

«لماذا فعلت هذا؟ أنت تستحق العقاب. ينبغي أن أرسل سيارة الإسعاف إلى هنا وأضعك بداخلها، بلا تردد وأمام الجميع، ثم أحبسك، أحبسك في زنزانة»

«دكتور... أنا لست مريضاً...»

نظر إلى الطبيب متوسلاً، ووضع يديه خلف ظهره.

«أنت مريض. أنت تعرف هذا كما أعرف أنا. لا تخف يديك. هل تظن أنه يمكنك أن تخدعني؟»

ارتجف البستاني من فرط الانفعال.

«أنا الآن أكبر سناً من أن أعتاد العيش في مستشفى... ثلاثون سنة وأنا أفلح الأرض وأعتني بالزهور. أوه، يا دكتور، يا لها من حياة حزينة لشخص مسكين مثلي لا يعرف القراءة ولا يحب الاستماع إلى الراديو طوال اليوم. يا دكتور لايرتس... أستحلفك بالرب الذي في السماء، لاتجبرني على العودة!»

وانفجر الرجل باكياً مثل طفل، ثم واصل: «لا ينبغي أن تخشى شيئاً. أنا لا أعيش في الواقع مع الأسرة. لي حجرتي الخاصة بعيداً خلف البيت. لي أطباقي الخاصة، وأنا أطبخ وجباتي الخاصة...»

«لا فائدة»، قال الدكتور. «إذا لم تذهب معي الآن، سيكون هذا أسوأ لك. سأرسل في طلب سيارة الإسعاف!»

مسح الرجل المريض عينيه بكمي قميصه.

«لست هنا من أجل النقود التي يدفعونها لي. لست هنا حتى لكوني

حراً في أن أتجول في أي مكان شئت... أنا هنا لأنني أحب النباتات الصغيرة التي خلقها الرب، ومن أجل الصبي. إنه يخرج إلى هنا ونتحادث... وأقسم أنني لم أرَ مطلقاً طفلاً مثل هذا! إنني أحبه مثل... ابن. لكن، يا دكتور، صدقني، نحن نتحادث فقط، تماماً كما أتحادث معك الآن. وأنا لا ألمسه أبداً بيدي»

نظر الدكتور إلى ساعته وتجهم.

«استعد ودعنا نذهب. أنا أعني ما قلت. إن شئت، اخترع ذريعة من نوع ما للرحيل. لكن أسرع!»

ثم سار الدكتور لايرتس بصرامة نحو البيت.

عندما وصل البستاني إلى باب حجرته، تردد. ثم استدار وشرع في صعود السلالم الخلفية.

أحس البستاني بالعرق يسيل على وجهه، وكأنه كان يحمل حملاً ثقيلاً للغاية. طرق الباب برفق، ثم وضع يده على المقبض، لكن قبل أن يجد الوقت ليديره انفتح الباب. ربما كانت الريح السبب. وأشرق نوع غامض من النور على السرير الخشبي من النافذة العليا نصف المغلقة.

اقترب البستاني ببطء من السرير. كان جبينه يختلج. «الصبي نائم»، فكّر. «ربنا يحميه، ربنا يحميه!»

فتح تارسيزو عينيه، لكنه ظل ساكناً بلا حراك فيما عدا ذلك. نظر حوله في الحجرة ورأى البستاني.

«أوه، أنت. ادخل... اجلس. لم أكن نائماً. كنت أغمض عيني فقط»

اقترب البستاني من السرير.

«لم آت إلا... لأقول وداعاً»

«سترحل؟ لماذا؟ ألم تعد تحبنا؟»

«أتمنى أن أبقى هنا... دائماً. عليّ أن أذهب لأن... يصعب عليّ أن

أخبرك، لكنني لن أعرف كيف أكذب مع تارسيزو»

«لعل السبب أنهم لا يدفعون لك ما فيه الكفاية. هل تود أن أتحدث مع بابا؟»

«لا، يابني. لا حاجة إلى الحديث مع أبيك. السبب أنني... أنني... مريض...»

«أنت... مريض؟» هب تارسيزو جالساً على فراشه، وقال: «أنت في أتم صحة. قوي للغاية! أعتقد أن الحقيقة هي أنك لم تعد تريد أن تعيش معنا»

«أريد، لكن هذا خطر على الجميع. أمرني الدكتور بالعودة إلى المستشفى. يجب أن أبقى هناك... ألم تلاحظ القروح على يدي؟ لا أظن. من الصعب رؤيتها من خلال كل هذه القذارة»

تسرب شعاع من الضوء المصبوغ بلون برتقالي خفيف من الشمس الغاربة عبر الغبار وسقط مباشرة على وجه تارسيزو. تغيرت سيماؤه فجأة. كانت بشرته مشدودة لامعة وملساء كالفخار الصيني.

«كنت أظن أن عملك هو السبب. لكن... دعني أرى يديك». كان في صوته لهجة آمرة على نحو غريب.

«يا بني...»

اقترب الرجل من النور الساطع عند السرير، لكنه عندما وصل إليه توقف وضم يديه خلف ظهره، لأنه أحس بالخزي. ارتجف. وتلعثم بقوله «لا» بصوت هياب واهن مثل صوت طفل.

«أريد أن أرى يديك. يديك! تعال!»

بدا الرجل وكأنه منوَّم. قاوم دقائق قليلة، ثم مد يديه. اخترقتا النور الساطع، واكتسبتا نوعاً من الارتياح السحري. كانتا مزركشتين، ومشوهتين، ومغطاتين بالكدمات وأرجوانيتين، ومتورمتين.

والواقع أن تارسيزو لم يلاحظهما من قبل. كانتا هناك في تلك اللحظة أمام عينيه، قطعتين من اللحم موسومتين بسمة الموت الوشيك، تتلويان مثل حيوانين مصابين بجرح قاتل.

عندئذ أحس الصبي بموجة حنان تجتاحه مثل نار الحب العذبة. وفيما وقف البستاني وكأنه مشلول، أمسك تارسيزو باليدين المريضتين المسكينتين، ووضع عليهما ببطء شفتيه، وقبلهما.

عندما أخبر كارلوس الدكتور لايرتس بمرض ابنه من قبل، قال الدكتور بنوع من الخطورة العطوفة: «في الخامسة عشرة من عمره. هم! من المحتمل أن الأمر ليس بالخطورة التي تظنها. يبدو أنه نوع من الأزمة العاطفية التي يمر بها الأطفال أحياناً في فترة البلوغ. أنا لم أفحص الصبي. لكنني أعتقد - مما رويته لي - أن مشكلته يمكن تشخيصها بسهولة في ضوء السيكولوجيا الحديثة. إن خوفه الديني، الذي غرسته فيه أمه - معذرة، أيها الأب نيكولاو - انحرف ببعض ميوله الجنسية السوية. والقروح المفتوحة والتشويهات التي يحلم بها ليست شيئاً آخر سوى غريزته الجنسية متنكرة. إن مخاوفه الجنسية تجعل من المستحيل عليه أن يدع هذه الغريزة تعبّر عن نفسها مباشرة».

تبادل الأب نيكولاو ولويزا نظرات عجلى. ونظرت مانينيا إلى الدكتور مستفسرة.

نظر الدكتور لايرتس إلى ساعته مرة أخرى.

«حسناً، فلنذهب لنلقي نظرة على المريض الصغير»

غير أن صيحة عالية، صيحة رجل، شقت الجو. فتح البستاني باب حجرة تارسيزو، وهبط السلالم مندفعاً، ووقف أمامهم، يضحك ويصيح مثل مجنون.

«الرب في السماء! الرب في السماء!»

نظر إليه الدكتور لايرتس بحزم وسأل: «ما هذا يا رجل؟ ماذا جرى

لك؟ لماذا لا تزال هنا؟ هل تريد أن أرسل في طلب سيارة الإسعاف لتنقلك؟»

«دعني أحكي لك، يا دكتور، دعني أحكي لك!... حدث شيء... أريد أن أحكي لك. لكنه صعب! ذهبت لأقول وداعاً للصبي، هناك فوق في حجرته». كانت الدموع تسيل غزيرة على خديه. «لم أكن أقصد سوى أن أودعه. لم أكن أريد أن يعرف شيئا عن يدي. لكنه اكتشف ذلك. رآهما»

فتحت لويزا فمها لتتكلم، لكنها ـ لأنها مذعورة ـ ظلت صامتة.

«يا دكتور، ما حدث... ما حدث هو أنه عندما اكتشف تارسيزو أمر يدي، تغير وجهه بكامله. كان مختلفاً للغاية، وبدا وكأنه شخص آخر. وكنت مرتعباً»

وقفوا جميعاً حول البستاني في دهشة وخوف. أحسوا بأن شيئاً مفزعاً حدث. وواصل الرجل كلامه.

«أمسك تارسيزو بيدي. أردت أن أسحبهما بعيداً، لكنني والرب على ما أقول شهيد عجزت عن الحركة. كان ذراعي أشبه بحجر! وبدأ تارسيزو يقبل يدي. فعل هذا بنوع من الحزم، لكنه كان في الوقت ذاته حنوناً ورقيقاً... من الصعب أن أصف كيف فعل ذلك... وبعد ذلك... حدث»

اختنق صوت البستاني قليلاً، ولم يستطع أن يواصل، ثم استرد صوته وراح يتكلم كما اتفق: «معجزة! معجزة! دكتور لايرتس، انظر إلى يدي! ملاك سيدتنا العذراء هذا، فيما كان يقبل يدي بدأت البقع تختفي. حتى القروح... لقد ذهبت! انظر!».

ومد الرجل يديه ليراهما الدكتور. كانتا صافيتين، رقيقتين، مثل يدي طفل حديث الولادة.

وفيما كان الجميع يحملقون، قال الأب نيكولاو بصوت خفيض، وكأنه يرثي: «ولم أفهم قط... لم أرَ قط...»

اندفعت مانينيا صاعدة السلالم، وهي تصرخ «تارسيزو!»،

وفتحت الباب، وبعد ذلك بلحظة اندفعت هابطة السلالم.

«لقد رحل»، قالت. لكنني كنت أقفلت الباب بالمفتاح. إنني أتذكر أنني فعلت هذا»

اندفعت مانينيا، يتبعها والداها، إلى الحديقة. جرت بخفة، وفستانها الأبيض يرفرف مثل شراع في البحر. عبرت الجسر. كان تارسيزو سبقهم بمسافة، وكان يسرع خطاه.

«تارسيزو، لا ترحل! انتظر، تارسيزو. انتظر من أجلي!»

ورغم محاولتها المستميتة، عجزت عن اللحاق به. ومن بعيد لوح بهدوء، مودعاً. أحست مانينيا بأن الأرض تميد من تحتها. فكرت في الدنيا الواسعة للفقراء، المرضى، المشوهين، الدنيا التي رحل إليها أخوها في غمرة حب، من غير رجعة. وبدا أن الشفق الأحمر بلون الدم يتركز على شبح الصبي، الذي بدا أنه يزداد جلالاً فيما كان ينطلق مبتعداً أكثر فأكثر.

ترجمة: خليل كلفت

كيف أزاح بورسيونكولا الخلاسي الجثة عن كاهله

جورج أمادو

جورج أمادو Jorge Amado (١٩١٢ ـ)

- كاتب أمريكا اللاتينية الأكثر شعبية وغزارة.
- ولد في مزرعة كاكاو صغيرة في قفار جنوب باييا. وكانت أمه نصف هندية، وكان أبوه أحد «الكولونيلات» الأسطوريين الذين روضوا المرتفعات بماسورة البندقية.
- في الفيضان الكبير في ١٩١٤، خسرت أسرة أمادو كل شيء، وقضى والداه الأعوام الثلاثة التالية يتجولان لبيع الأحذية الخشبية التي كانا يصنعانها في أفقر أحياء إليوس، عاصمة تصدير الكاكاو. وفي ١٩١٧ بدأ أبوه مزرعة جديدة بالقرب من سيكويرو دو إسبينيو، المنطقة المتنازع عليها في حروب الكاكاو العنيفة التي انتهت مع ذلك العقد، وتم تخليد ذكراها فيما بعد في رواية أمادو الملحمية «الأرض القاسية» (١٩٤٣).
- وفي العاشرة من عمره، أرسل أمادو إلى مدرسة ابتدائية يسوعية في السلفادور، غير أنه بعد ذلك بعامين، هرب إلى المرتفعات، حيث وجده أحد أعمامه بعد شهور عدة. وقضى عامين آخرين في المدرسة الابتدائية. ثم في الرابعة عشرة تسلم وظيفة كصحافي في السلفادور، بينما ظلّ يعيش في الحي الشعبي بالمدينة القديمة. ومع الانهيار الاقتصادي في ١٩٢٩، خسر والد أمادو معظم ممتلكاته، غير أنه نجح في إرسال جورج إلى المدرسة الإعدادية في ريو. حيث تخرج فصله بمرسوم بسبب ثورة ١٩٣٠ (التي أتت بجيتوليو فارجاس إلى السلطة).
- في العام التالي، نشر الكاتب أول عمل قصصي له وهو رواية تصور الشك الفكري القلق لجيله. وفي فترة التحاقه بمدرسة القانون في ريو، كان يكتب أكثر مما يدرس، غير أنه أكمل دراسته، وفي الوقت نفسه التقى بزوجته الأولى وتزوج منها.
- نشر أول رواية «بروليتارية» له تمثل الاحتجاج الاجتماعي. «الكاكاو» (١٩٣٣). التي صارت قضية شهيرة عندما صادرتها الشرطة. وفي غضون عام واحد توطدت شعبيته بقوة بنشر «العرق» (١٩٣٤)، روايته الأليمة عن الحياة في مباني الأحياء الفقيرة في السلفادور، وسرعان ما نشرت الروايتان في الخارج، أولاً في موسكو ثم في بوينس آيريس.
- وفي أواخر الثلاثينات، انضم أمادو إلى الحزب الشيوعي البرازيلي بعد أن نشر مجموعة من الروايات: «جوبيابا» (١٩٣٥)، و«بحر الموت» (١٩٣٦)، و«قباطنة الرمال» (١٩٣٧). وهي تدور وسط أرصفة الشحن والتفريغ ومدن الأكواخ في خليج جميع القديسين.

والحقيقة أن تلك الأعمال ـ عن طريق إعادة صياغة الإيقاعات الشعبية لمنشدي القصص الغنائية ـ منحت صوتاً مقنعاً للفئات الهامشية الأفروبرازيلية وميراثها الثقافي المقموع بعنف إلى ذلك الحين.

- عندما صار الحزب الشيوعي البرازيلي علنياً بعد سقوط فارجاس عن السلطة، في ١٩٤٥، فاز أمادو بمقعد في الجمعية التأسيسية حيث قدم تشريعاً يمنح حرية العبادة الدينية في البرازيل.
- في ١٩٥٥، قطع أمادو علاقاته بالحزب الشيوعي البرازيلي، وكرّس وقته تماماً للكتابة.
- بعد ثلاثة أعوام، نشر روايته التي لقيت الترحيب عالمياً: «جابرييلا، القرنفل والقرفة» (١٩٥٨)، وأعقبها بسرعة تقريظه الكوميدي الباروكي لإمكانات الحياة في مواجهة الموت، وهو رواية قصيرة متألقة بعنوان: «الموتان الخاصان بكينكاس واتريل» (١٩٥٩). وفي الستينات والسبعينات، كتب الفانتازيا الشهوانية «دونا فلور وزوجاها» (١٩٦٦). وقد عارض بنشاط الدكتاتورية العسكرية في فترة ما بعد ١٩٦٤ برفض إحالة أعماله للرقابة المسبقة.
- في ١٩٨٥، نشر أمادو روايته: «تصفية الحساب»، وهي رواية حافلة ذات أصداء ميثولوجية تقريباً عن تأسيس البلدة التي كانت مسقط رأسه، وهي عمل يعتبره الكثيرون رائعته. وهو يقسم وقته، منذ ذلك الحين، بصورة رئيسية بين باييا وباريس حيث تم منحه وسام جوقة الشرف.
- ومن أعماله: «الحصاد الذهبي» (١٩٤٤)، و«عودة البحار» (١٩٦١)، و«رعاة الليل» (١٩٦٤)، و«خيمة المعجزات» (١٩٦٩)، و«تيريزا باتيستا، عائدة من الحروب» (١٩٧٢)، و«تييتا» (١٩٧٧)، و«حرب القديسين: حكاية عن الشعوذة» (١٩٨٨).

كيف أزاح بورسيونكولا الخلاسي الجثة عن كاهله

(زفاف عروس ميتة)

جورج أمادو

كان الجرينجو (الغريب) الذي ألقى مرساته هنا منذ سنوات شخصا كتوما أشقر. ولم ير أحد مثله في حبه لشرب الخمر بكثرة. وليس الأمر أنه كان مسرفا في الشرب إلى أقصى حد، فكلنا نفعل ذلك، شكرا للرب. لكنه قد يقضي يومين وليلتين يعب الزجاجة تلو الزجاجة دون تعب أو كلل. ولم يكن يبدأ ثرثرة أو يختلق مشاجرة، ولم يبدأ في أغنيات الذكريات القديمة، ولا في إفاضة الحديث عن قصص سوء الحظ في ماضيه. كتوما كان وكتوما ظل، غير أن عينيه الزرقاوين ظلتا تضيقان، قليلا قليلا، بينما كانت هناك جمرة متقدة في كل نظرة تتوهج في عمق تلك الزرقة.

وحكوا عنه قصصا كثيرة، وكان بعضها يبدو محكما حتى إن الاستماع إليها كان ممتعا. غير أنها كانت كلها أقاويل، لأنه كان مستحيلا أن تعرف شيئا من فم الجرينجو نفسه. هذا الفم المخيط الذي لم يفتح ولاحتى في الأعياد الكبيرة عندما تشعر بساقيك يسوقهما المرح الصاخب المتراكم في قدميك. ولا حتى مرسيدس - بما تحمل من ضعف نحو الجرينجو والذي لم يخف على أي منا، وبكل ما فيها من فضول كما هي في العادة - لم تستطع اعتصار حقيقة واحدة صريحة عن تلك المرأة التي قتلها في بلاده، أو عن ذلك الشخص الذي ظل يتعقبه عاما بعد عام، من مكان لآخر، حتى طعنه أخيرا بسكين في بطنه. وعندما سألت مرسيدس عن ذلك في تلك الأيام الطويلة التي تذيب الخمر فيها كل تحفظ،

ظل الجرينجو ينظر إلي. لا أحد يعرف ما بعينيه الصغيرتين الضيقتين - تلكما العينان الزرقاوان والمحتقنتان بالدم الآن، وتكادان تنغلقان على نظرة شزراء - ليصدر في النهاية مجرد صوت كنخر الخنزير، لا يعني شيئا على الإطلاق. تلك الحكاية عن المرأة المصابة بسبع عشرة طعنة سكين في كل أنحائها السفلى، لم أتوصل أبدا لمعرفة كيف انتهى الأمر، فقد كان غارقا في التفاصيل، أو مرة أخرى، حكاية ذلك الشخص الثري الذي تعقبه من ميناء لآخر حتى طعنه الجرينجو بمطواة، المطواة نفسها التي استخدمها لقتل المرأة بسبع عشرة طعنة كلها في نصفها الأسفل. ولا أعرف، لأنه إذا كان يحمل هاتين الجثتين على كاهله حقا حيثما ذهب، فهو لم يرغب أبدا في التخلص من عبئه. فحتى حين يشرب كان يغلق جفنيه، وتلك الفحمتان المتقدتان تحتهما تتدحرجان على الأرض عند أقدام الجميع. اسمع، إن الجثة عبء ثقيل، وكثير هم الرجال الشجعان الذين رأيتهم يتركون ما يحملون من عبء ينزلق إلى يدي غريب ما عندما تفك الخمر أقفالهم. دعك من جثتين، رجل وامرأة، بهذه الطعنات في البطن... لم يترك الجرينجو سقطته أبدا، والتي انحنت ضلوعه بسببها، تحت ثقلها ولا ريب. لم يطلب من أحد أي مساعدة، لكنهم هنا وهناك تحدثوا عن الأمر بالتفصيل، وتحولت إلى حكاية جيدة بالفعل، بعضها يضحك وبعضها يبكي، حكاية كما يجب أن تكون الحكاية.

ولكن ما يجب أن أقوله الآن لا علاقة له بالجرينجو. فدع حكايته تنتظر لوقت آخر، فقط لأنها تحتاج الوقت. ولن يكفي كأس واحد صغير ملعون - لا أعيب أحدا هنا الآن - لكي يمكنك الحديث عن الجرينجو، وأن تفك حياته ككرة من الصوف أو تنسل خيوط غموضه. فلا بد أن ينتظر هذا ليوم آخر (إن شاء الله). فلا الوقت ولا ضوء القمر سوف يختفيان. وعلى كل حال، لأي شيء تعمل معامل التقطير ليل نهار؟

ولا يمر الجرينجو هنا - كما يقولون - إلا عابرا، غير أنه جاء في تلك الليلة المطيرة ليذكرنا بأن موسم أعياد الميلاد على الأبواب، وليذكرنا أيضا بتلك البلاد التي أقبل منها حيث كان عيد الميلاد عيدا حقيقيا، وليس كما هو هنا. كان عيدا لا يقارن بأيام الأعياد في «سان جوان» بدءا بأعياد سانتو آنتونيو وحتى أيام سان بدرو، أو تلك الأيام التي يحتفل فيها بذكرى مياه أوشالا، عيد بونفين، الأيام المقدسة لعهد شانجو، ثم، آه يا أخي، من دون ذكر عيد «الحبل بلا دنس» في برايا والذي كان عيدا، وأي عيد! وحيث إنه لا تنقصنا الأعياد هنا، فلماذا نذهب ونستلف عيدا من غريب؟

وقد تذكر الجرينجو عيد الميلاد في الوقت نفسه عندما حدث أن برسيونكولا - ذلك الخلاسي في القصة التي رويت عن كلب الشحاذ الأعمى - غير مكانه، وجلس على برميل الكيروسين، مغطيا كأسه بكف يده ليبعد الذباب النهم عن شرابه. ألا تشرب الذبابة الخمر؟ معذرة ياسادة، سيظنون أن هذا هراء لأنهم لايعرفون الذباب عند ألونزو. الذباب كان شريرا حقا. وقد يجن جنونه من أجل قطرة حتى يلقي بنفسه داخل الكأس، يمتص قطرته الصغيرة، ثم يسرع خارجا، مترنحا، ويئز كحشرات مايو. ولم يكن هناك من سبيل لإقناع ألونزو - هذا الإسباني الجامد الرأس - أن يضع حدا لمثل هذا العار. فقد كانت حجته - وكان محقا - هي أن الذباب جاء مع المكان الذي اشتراه، وأنه لم يكن ينوي التخلص منه ومن إزعاجه لأنه يريد مجرد رشفة صغيرة. لم يكن هذا سببا كافيا، فقد كان كل زبائنه يحبون الشرب ايضا، ولم يكن هذا ليجعله يطردهم، أليس كذلك؟

ولا أعرف إذا كان برسيونكولا الخلاسي قد غير مكانه ليصبح أقرب لمصباح الكيروسين، أو لأنه جاءته فكرة أن يحكي حكاية تيريزا باتيستا ورهانها. في تلك الليلة - كما شرحت لكم - انطفأت الأنوار في الناحية المواجهة للشاطئ، وأشعل ألونزو مصباح

الكيروسين متذمرا. كان يريد بالفعل أن يطردنا، لكنه لم يستطع. فقد كانت تمطر، أحد أمطارها المجنونة الكثيفة التي تغرقك بللا أشد من المياه المقدسة، ينفذ مباشرة من اللحم إلى العظم. كان ألونزو إسبانيا مدربا شرب الكثير من الصنعة من عمله ساعيا في فندق. ولهذا أشعل المصباح، ووقف يحسب حساباته «بعقب» قلم رصاص. كان الناس يتحدثون عن هذا وذاك، يصطادون الذباب، يتدحرجون من موضوع إلى موضوع، يقتلون الوقت قدر استطاعتهم. وعندما غير برسيونكولا مكانه، ونخر الجرينجو قصيدته عن عيد الميلاد ، شيء ما عن الثلج والأشجار المضاءة، لم يترك برسيونكولا الفرصة تضيع. فبينما كان يبعد الذباب و«يسكب» كوب خمر في جوفه أعلن بصوت ناعم: «حدث في إحدى ليالي عيد الميلاد أن تريزا باتيستا كسبت رهانا، وبدأت تعيش حياة جديدة».

«أي رهان؟»

إذا كانت مرسيدس قد سألت هذا السؤال لتشجع برسيونكولا، فهي لم تكن بحاجة لأن تفتح فمها. لم يكن برسيونكولا بحاجة إلى حث أو إجبار. أنزل ألونزو قلمه، وأعاد ملء الكئوس، والذباب يطن حولها مقتنعا بأنها حشرات مايو، في حالة سكر كامل! ابتلع برسيونكولا شرابه، وتنحنح، وبدأ حكايته. برسيونكولا هذا، كان أفضل متكلم خلاسي عرفته في حياتي، وهذا يعني الكثير. أديب جدا، متدفق جدا، حتى إنك تظن، إذا كنت لا تعرف شيئا عن خلفيته، أنه أبلى مقعدا مدرسيا، رغم أن فنتورا العجوز لم يدخله أي مدرسة، لكنه أطلقه في الشوارع وعلى الواجهة البحرية. كان ساحرا في قص الحكاية، وحتى لو أصبحت هذه الحكاية مرة في حلقي، فليست هذه غلطة القصة ولا غلطة برسيونكولا الخلاسي.

انتظر برسيونكولا قليلا حتى استراحت مرسيدس على الأرض وهي تميل مستندة إلى ساقي الجرينجو لتسمع بشكل أفضل. ثم

شرح أن تريزا باتيستا لم تظهر في الواجهة البحرية إلا بعد دفن أختها، بعد أسابيع قليلة.. الوقت الكافي لتصلهم الأخبار حيث يعيشون، فقد كان مكانهم بعيدا جدا. فجاءت لتعرف بنفسها ماذا حدث، وبقيت منذ ذلك الحين هنا. كانت تبدو كأختها، غير أن التشابه كان في الوجه فقط، تشابه خارجي، وليس من الداخل، لأن روح ماريا ذات الطرحة لم تكن ولن تكون لأحد آخر. ولهذا فإن تريزا ظلت طوال حياتها تريزا باتيستا، تحتفظ بالاسم الذي ولدت به، دون أن يظهر من يرى ضرورة تغييره. ومن ناحية أخرى، فمن في أي يوم من أيام الأسبوع قد يفكر في مناداة ماريا ذات الطرحة بماريا باتيستا؟

أرادت مرسيدس الفضولية أن تعرف من في هذا العالم كانت ماريا هذه، ولماذا هي «ذات الطرحة»؟

فأوضح برسيونكولا بصبر قائلا إنها كانت ماريا باتيستا أخت تريزا، وقال كيف أن ماريا وصلت سرا إلى هذه النواحي عندما بدأ الجميع ينادونها بماريا ذات الطرحة فقط، وليس باسم آخر. كان ذلك بسبب جنونها بألا يفوتها حفل زفاف، مع تعلق عينيها الدائم بفستان العروس. كانوا يتحدثون كثيرا عن ماريا ذات الطرحة هذه في الواجهة البحرية. كانت جميلة، وقال برسيونكولا - بطريقته في التلميح بالكلمات - إنها حين كانت تهيم حول الواجهة البحرية، كانت تبدو كعروس البحر التي خرجت من الماء في الليل. كانت تبدو جزءا من الواجهة البحرية، وكأنها تقريبا ولدت هناك، بينما الحقيقة أنها جاءت من «الداخل»، ترتدي أسمالا، ولا تزال تتذكر (العلقة) التي أكلتها، لأن باتيستا العجوز، أبوها، لم يكن ليخدع، وذلك عندما سمع كيف أن ابن الكولونيل باربوزا قد أفقدها عذريتها، التي كانت لا تزال طازجة مثل مشمش الكاكي. لقد قبض على ذقنها، وأخذ يضربها ضربا مبرحا لتخليها عنها، ثم طردها من البيت. لم يكن يريد امرأة ساقطة في بيته. فمكان

المرأة الساقطة هو الممر الخلفي، مكان المرأة الضائعة هو منطقة النور الأحمر. هذا ماقاله العجوز، وهو يهوي بهراوته على فتاته الصغيرة مفعما بالغضب، ومفعما أكثر بالألم، لرؤيته ابنته التي لاتتعدى الخامسة عشرة، الجميلة كالصورة، لم تعد عذراء، ولم يعد لها نفع في شيء سوى أن تكون عاهرة. كيف أن ماريا باتيستا أصبحت ماريا ذات الطرحة وانتهت إلى المجيء إلى العاصمة لأنها في موطنها هناك في نهاية العالم لن يكون لها مستقبل كبغي. وبعد وصولها أخذت تطوف من عمود إلى سارية حتى هبطت على تل سان ميجل، كانت طفلة لا تزال حتى إن تيبريا، سيدة بيت الدعارة الذي جرت إليه صرة ملابسها، سألتها إن كانت تظنه مدرسة ابتدائية.

تفاصيل كثيرة من الحكاية قبل ذلك وبعده، أخذها برسيونكولا من فم تيبريا، المواطنة المحترمة جدا، وأفضل مديرة لبيت دعارة في «باييا» على الإطلاق. ولا أمدح قيادتها لأنها صديقتي. فهي ليست بحاجة إلى ذلك. ومن ذا الذي لا يعرف تيبريا ومن الذي لايحترم «مؤهلاتها»؟ إنهن - بشكل عام - نساء طيبات ككلمتهن، قلوبهن من ذهب، يساعدن نصف العالم. والجميع عند تيبريا عائلة واحدة كبيرة، وليس كل واحد لنفسه وليذهب ما عداه للشيطان، لا شيء من هذا القبيل. الجميع منسجمون، إنها عائلة محكمة النسج. وكان برسيونكولا عزيزا جدا لدى تيبريا، كثير التردد على البيت، يمر دائما من أجل فتاة أو أخرى، ومستعد دائما لإصلاح ماسورة مكسورة، تغيير لمبة محترقة، ترقيع مزاريب على السقف، وبركلة قوية من الخلف يمكن أن يلقي خارجا أي شخص يجرؤ على أن يفقد احترامه لنفسه ويتحول إلى حيوان . وتيبريا هي التي أخبرته بكل شيء، كلمة كلمة ، ولذا كان يمكنه أن يحل خيوط قصتها من بدايتها إلى نهايتها دون أن يتعثر في أي جزء منها . كان يهتم جدا لأنه ما أن وقعت عيناه على ماريا حتى

وقع في حبها بجنون، وأصبح أحد هؤلاء المحبين اليائسين.

عندما جاءت ماريا، كانت أصغر من في البيت، لم تكن بلغت السادسة عشرة، وقد دللتها تيبريا والنساء الأخريات بشدة، وكن يعاملنها كابنتهن، يحضرن لها الدمى البديعة. حتى إنهن أعطينها دمية بدلا من «آن»، دميتها البالية، التي كانت تستخدمها للعبة الخطوبة والزفاف. كانت ماريا ذات الطرحة تقضي وقتها على الشاطئ، كانت تحب النظر إلى البحر، كما يفعل أهل البلاد الداخلية. كانت هناك بمجرد أن يهبط الليل، في ضوء القمر أو الضباب، في الرذاذ أو العاصفة، تسير على شاطئ البحر تغوي. وقد توبخها تيبريا ضاحكة. لماذا لم تنتظر ماري داخل بيت الدعارة، تستمتع بالدفء والراحة، ومرتدية فستانها ذا الورود، تنتظر الرجال الأغنياء المجانين بفتاة شابة مثلها؟ وربما يمكنها أن تدبر حارسا غنيا، رجلا عجوزا يمكن أن يقع في حبها، ويوفر لها حياة طيبة في حضن الرفاهية دون أن تضطر للذهاب إلى الفراش مع كل توم وديك وهاري، بمعدل اثنين أو ثلاثة في الليلة. ولا نذهب بعيدا، فمثلا، هنا في بيت الدعارة، كانت هناك لوسيا، التي كان القاضي مايا يأتي لرؤيتها مرة كل أسبوع، وأعطاها كل شيء. حتى إنه حصل على وظيفة حمال لبارسيلينو المسرف، حبيب لوسيا. ومما أذهل تيبريا أيضا أن ماريا لم تهتم ببرسيونكولا الخلاسي، الذي اشتعل حبا للفتاة التي كانت تنام مع كل شخص إلا هو. كانت تسير بجواره، يدها في يده عبر «مونت سرات» تنظر إلى البحر، أو ربما أكثر، يتمايلان جنبا إلى جنب كما يفعل العاشق عندما يخرج مع معشوقته في الليل في رحلة صيد بحرية في ضوء القمر. وفي ذلك الوقت تحكي للخلاسي كل شيء عن حفلات الزفاف التي حضرتها، كم كانت العروس جميلة، وكم كانت طرحتها طويلة. ولكن عندما يأتي وقت الذهاب إلى الفراش وفعل الشيء الصحيح، كانت تقول تحية المساء وتترك برسيونكولا مغسولا بالعرق، مغبونا.

هكذا تماما حكى برسيونكولا الحكاية في تلك الليلة المطيرة عندما كان الجرينجو يستغرق في ذكرياته عن عيد الميلاد. أما السبب في أنني أحب سماع الخلاسي يحكي الحكاية فهو أنه لا يلوي الحقائق ليظهر نفسه بمظهر أفضل. كان يمكنه أن يقول إنه عاشرها، وحتى مرات عدة. وهذا ما ظنه الجميع، خاصة هؤلاء الذين رأوهما معا على طول الشاطئ. كان يمكنه أن يدعي، ولكنه - على العكس - حكى الأمر على حقيقته، ولم يكن ذلك مفاجأة لكثير منا. كانت ماريا تنام مع هذا وذاك، كانت تنفعل في الوقت المناسب. ولم يكن الأمر أنها لم تكن تحب ذلك. ولكن عندما ينتهي الأمر فقد انتهى، لم تكن تحب الحديث عنه. أي عاطفة حقيقية في ذاتها، حالة الاشتياق اللانهائي حيث يعاني المحبون آلام البعد عن بعضهم البعض، وهكذا، حسنا، لم تشعر بذلك أبدا تجاه أي واحد. إلا إذا كان هذا شعورها نحو برسيونكولا الخلاسي، ولكن لماذا إذن لم تذهب معه للفراش؟ قد تجلس بجانبه على الرمل، وهي تغمر قدميها في الماء، تقفز مع الأمواج، تنظر بعيدا إلى حافة البحر التي لا يمكن لأحد أن يفهمها. من يمكنه أن يرى آخر البحر؟ هل هناك أحد من السامعين الكرام يمكنه ذلك؟ معذرة، ولكني لا أظن ذلك.

والذي كان واقعا في الحب حقا هو برسيونكولا الخلاسي. لم تكن تمر ليلة دون أن يقف لمراقبة ماريا على الشاطئ، يتعقبها، يريد أن يحطم نفسه كسفينة على صخرتها. بهذه الطريقة قالها، دون مواربة، وحتى حينئذ كان ألم الحب يجعل صوته ناعما. كان ضائعا أكثر من كلب بلا صاحب، يتشمم أي شيء، يشير إلى ماريا ذات الطرحة، بينما كانت تيبريا تدور لتهمس بأشياء في أذنيه. وهكذا بدأ يحل خيوط الشبكة، يجمع قصاصات حكاية ماريا حتى حدثت الجنازة.

عندما تمكن ابن الكولونيل باربوزا ـ وكان طالبا مهندما في إجازته الدراسية - من أن يفعلها بماريا، لم تكن بلغت خمس عشرة سنة تماما، لكنها كانت بالفعل تحمل صدر امرأة وجسد امرأة. امرأة

تستحق النظر إليها، ولكن من الداخل كانت لا تزال طفلة تلعب بدميتها القماش طوال اليوم، دمية من ذلك النوع الذي يمكنك شراءه بدولار من السوق، جمعت قطعا من بقايا الأقمشة معا، وخاطت منها ثوبا لدميتها القماش، وجعلت لها طرحة وتاج عروس. وفي أيام الزفاف في الكنيسة في نهاية العالم الذي كانت تعرفه، لا بد أن تكون ماريا هناك، ترقب، عيناها عالقتان بثوب العروس. كانت تفكر في كم يكون جميلا أن تلبس الفتاة مثل هذا الثوب، كله أبيض، بطرحة طويلة وزهور على رأسها. كانت تصنع ثيابا للدمية، وتتحدث إليها طوال الوقت، وتخترع في كل يوم زفافا لتراها في الطرحة والتاج. تزوجت الدمية من كل حيوانات الجيرة، خاصة الديك العجوز الأعمى، والذي كان عريسا رائعا لأنه لم يكن يهرب، وإنما كان يربض مكانه مطيعا، في عماه. ولهذا عندما قال ابن الكولونيل باربوزا لماريا: «أنت الآن ناضجة للزواج. هل تحبين أن تتزوجيني؟» قالت نعم، لو كان سيعطيها طرحة جميلة. المسكينة لم تكن تعرف أنه كان يخدعها بمعسول الكلام، وأن حديث الزواج كان طنينا ليتمكن منها على شاطئ النهر. ولهذا فإن ماريا، وقد انفعلت بشدة، قبلت، ولا تزال تنتظر يوم الفستان والطرحة وإكليل الزفاف. وبدلا من ذلك أخذت علقة من باتيستا العجوز، وعندما انتشرت القصة أخذت أيضا اسم «ماريا ذات الطرحة». لكنها لم تفقد حلمها. ورغم طردها من بيتها، لم يفتها حفل زواج، مختبئة في الكنيسة، لأن البغي ليس مسموحا لها بحضور حفلات الزفاف. وعندما تزوج الفتى باربوزا، ذلك الذي أسدى إليها جميله، من ابنة الكولونيل بوفنتورا – وكان زواجا تحدث عنه الجميع- كانت هناك لترى العروس، فتاة جميلة أنيقة، ترتدي ثوبا لم ير أحد مثله، ثوب مصنوع في ريو، وبذيل طوله نصف ميل، ووشاح وجه مطرز بالكامل، شيء مدهش حقا. وبعد ذلك خرجت ماريا إلى هذا الموضع، ولزمت بيت تيبريا للدعارة.

لم يكن الوقت الطيب بالنسبة لها يتمثل في الذهاب إلى السينما

أو الكاباريه، ولا في الرقص والشرب في بار، ولا في النزهة في قارب. وإنما كان يتمثل في حفلات الزواج ومشاهدة فستان العروس. قصت صورا من المجلات، عرائس يلبسن الطرحة، جمعت إعلانات لوازم الزفاف، ولصقت كل ذلك على الجدار عند رأس فراشها. وبقطع جديدة من القماش صنعت ثوب زفاف جديدا لدميتها الجديدة، التي أهدتها إياها تيبريا والنساء الأخريات. فتاة صغيرة، صغيرة جدا حتى إنها تقول لتيبريا: «يوما من الأيام سترينني في ثوب كهذا». ضحكن منها، ولعبن خُدعا عليها، سخرن بها، لكن ذلك لم يغيرها.

وفي هذا الوقت نفد صبر برسيونكولا، وتعب من كبت رغباته، ومن التسكع مغلول اليدين، ومن سماع الحديث الدائر على الشاطئ. إن لكل رجل كبرياءه، وقد رأى أنه لا أمل هناك، فقد انتظر بما يكفي، ولم يكن من ذلك النوع الذي يموت من أجل الحب، أسوأ «ميتة» في العالم. فتحول إلى كارولينا، الخلاسية الضخمة التي كانت تعيش فقط لتمارس معه الحب. شفى نفسه من ماريا ذات الطرحة ببعض الكئوس وبعض ضحكات كارولينا العالية. ولم يعد يريد أن يتحدث في الأمر بعد ذلك.

في هذه اللحظة، طلب برسيونكولا مزيدا من الشراب وقدم له. كان ألونزو مستعدا لأن يقدم بؤبؤ عينه لقصة جيدة، وهذه كانت توشك أن تنتهي. وكانت النهاية هي الأنفلونزا التي اجتاحت البلاد وقضت على نصف العالم، منذ بضع سنوات. أصيبت ماريا ذات الطرحة بالحمى، ولضعفها لم تحتمل سوى أربعة أيام. وعندما وصل الخبر إلى برسيونكولا كانت قد ماتت بالفعل. في تلك اللحظة كان برسيونكولا خارج المنطقة بسبب الورطة التي وقع فيها مع شخص يدعى جومس. وكان جومس - الذي يملك كشكا تجاريا في أجوادوس منينوس - قد خسر في لعب الكروت. والمعروف أن «قطع» الكوتشينة مع برسيونكولا معناه أنك تلقي بنقودك إلى الهلاك. كان يلعب لأنه كان يحب اللعب، ولم يكن يتحمل أن يشكو

أي شخص من اللعب بعد ذلك.

كان برسيونكولا يترك العاصفة تهدأ عندما وصلته رسالة تيبريا تتوسل إليه أن يأتي فورا. كانت ماريا تطلبه على وجه السرعة. وقد ماتت في نفس ساعة وصوله. وقد شرحت تيبريا له الرغبة الأخيرة التي طلبتها على فراش موتها. كانت تريد أن تدفن في ثياب الزفاف، بطرحة وإكليل. والعريس، هكذا قالت، يجب أن يكون برسيونكولا الخلاسي الذي كان ينتظر أن يتزوجها.

كان طلبا مؤلما للغاية، ولكن أن يأتي من شخص ميت، فلم يكن هناك مجال للرفض. سأل برسيونكولا كيف له أن يحصل على ثوب زفاف، وهو غالي الثمن، كما أن المتاجر مغلقة في الليل. كان يظن أن هذا سيكون صعبا، لكنه لم يكن كذلك. لأن كل هذا الحشد من النساء في بيت الدعارة وفي الشارع، كل الداعرات القدامى المتعبات من الحياة، كل هؤلاء فجأة وجدن أنفسهن يتحولن إلى حائكات، يقمن بحياكة فستان وطرحة وإكليل عرس. بسرعة جمعن ما معهن من نقود معا واشترين ورودا، أعددن القماش، أحضرن الشرائط، يعلم الله من أين، وجدن حذاء، جوربا حريريا، وقفازا أبيض. واحدة تحيك قطعة والأخرى تضيف بعض الشرائط.

قال برسيونكولا إنه لم ير أبدا ثوب زفاف يفوق هذا، رائع الجمال والأناقة، وكان يعرف ماذا يقول لأنه في وقت صحبته لماريا كان يذهب إلى كل مكان يشهد حفلات الزفاف، وقد «قطع نفسه» في مشاهدة هذه الثياب.

بعد أن ألبسن ماريا، كان ذيل ثوبها يمتد على الفراش ويتكوم على الأرض. جاءت تيبريا بباقة ووضعتها بين يدي ماريا. لم تكن هناك عروس في مثل جمالها وجلالها، وفي مثل سعادتها عند زفافها.

كان برسيونكولا يقف بجوار الفراش، فجلس. كان هو العريس.

أخذ يد ماريا. كلاريس، وهي امرأة متزوجة هجرها زوجها وترك لها ثلاثة أطفال لتربيهم، أخذت تبكي، ونزعت خاتم زواجها من إصبعها- ذكرى أسعد أيامها - وأعطته للخلاسي. وضعه برسيونكولا ببطء في إصبع المرأة الميتة ونظر إلى وجهها. كانت ماريا ذات الطرحة تبتسم. «قبل تلك اللحظة لا أعرف، ولكن في هذه اللحظة كانت تبتسم»، كان هذا وصف برسيونكولا، وقال إنه لم يكن قد شرب الخمرة يومها، لم يمس قطرة واحدة. انتزع عينيه بعيدا عن الوجه الجميل، ونظر إلى تيبريا، وأقسم أنه رأى تيبريا حقا، وقد تحولت إلى كاهن، يلبس ثياب الكهنوت الخاصة بمراسم الزفاف، بشعر حليق وكل شيء، كاهن بدين يبدو أشبه بقديس. ملأ ألونزو الكئوس مرة أخرى وشرب.

وهنا توقف برسيونكولا الخلاسي، ولم يكن ممكنا إخراج كلمة أخرى عن القصة منه. لقد أزاح الجثة عن كواهلنا، وأراح نفسه من العبء. وكانت مرسيدس لا تزال تريد أن تعرف ما إذا كان الكفن أبيض لعذراء أم أسود لخاطئة. هز برسيونكولا كتفيه وأبعد الذباب. أما عن تريزا باتيستا، والرهان الذي كسبته، والحياة الجديدة التي بدأتها، فلا شيء قيل، ولاأحد سأل. ولا أستطيع أن أقول شيئا عنها، فلست ممن يحكي عن أشياء لا يعرفها. أما ما أستطيعه فهو أن أحكي قصة الجرينجو، فهذه أعرفها ككل من في الواجهة البحرية. ولكني أعرف أنها ليست من نوع القصص التي تحكى على كأس واحد كهذا، إذا سمحتم لي أن أقول ذلك. إنها قصة كاملة وتامة الطول حتى يمكن أن نشرب عليها طوال ليلة شتاء ممطرة، أو ربما الأفضل، في رحلة صيد بحرية في ضوء القمر. ورغم ذلك، يمكنني أن أحكيها إذا كنتم ترغبون. لا أرى سببا يمنع ذلك.

ترجمة: سحر توفيق

الساحر السابق
من مطعم مينيوتا

موريلو روبياون

موريلو روبياون Murilo Rubiáo (١٩١٦ -   )

- مثل جيمارانس روزا، ولد موريلو روبياون في ميناس جيرايس، وكان ـ مثل سكان ولايته المعروفين بشدة التحفظ ـ من أشد الكتاب عزوفا عن النشر.
- في السابعة ترك روبياون بيئة المدينة البرازيلية الصغيرة التي تميز بها العديد من قصصه وانتقل إلى عاصمة الولاية بيلو أوريزونته.
- كانت طفولته محاطة بكتاب (منهم جده وأبوه وعمه وعدد من أبناء عمومته) كما تغذت على القراءة وإعادة القراءة بلا انقطاع لحكايات الجنيات، والكتاب المقدس، وألف ليلة وليلة، مثل أستاذه المعترف به ماشادو ده أسيس.
- في ١٩٣٨، قام مع مجموعة من زملائه الطلاب في جامعة ميناس جيرايس بتأسيس أول مجلة من عدد من المجلات الأدبية التي ظل مرتبطا بها طوال حياته الأدبية.
- وفي الوقت الذي نال فيه شهادته في القانون في ١٩٤٢، بدأ روبياون في نشر الطبعات الأولى لفانتازياته الفريدة التي كان عليه أن يجمعها ويعيد جمعها طوال العقود الثلاثة التالية، بادئا، في ١٩٤٨، بمجموعة الساحر السابق وقصص أخرى.
- وفي ١٩٤٥، حضر المؤتمر الأول لكتاب البرازيل، والذي دعا إلى الوقف الفوري للرقابة، وكان حاسما في وضع حد لديكتاتورية فارجاس.
- في الخمسينيات عمل موظفا بالولاية، ثم من ١٩٥٦ إلى ١٩٦٠ عمل ملحقا بالسفارة البرازيلية في مدريد، ولم يكتب خلال هذه السنوات الأربع سوى قصة واحدة بعنوان «الأرنب».
- عند عودته إلى البرازيل، وإلى ميناس، أسس الملحق الأدبي الواسع التأثير للجريدة اليومية ميناس جيرايس، ونشر أكمل طبعة إلى اليوم من قصصه المبكرة.
- في ١٩٧٤، أعيد اكتشاف قصص روبياون، وصارت الأكثر مبيعا.
- ضمنت له الحكايات القليلة «الكاملة الأوصاف» ـ التي نشرها طوال حياته ـ مكانة الأستاذ بلا منازع للفانتازيا في الأدب البرازيلي المعاصر.

الساحر السابق من مطعم مينيوتا

موريلو روبياون

أمل يا رب أذنك. استجب لي.

لأنني مسكين وبائس أنا.

سفر المزامير- ٨٦: ١

أعمل في الوقت الحالي موظفا حكوميا، وليس هذا أسوأ مصائبي.

وحتى أكون أمينا، لم أكن مستعدا للمعاناة. إن كل إنسان، عندما يصل إلى عمر بعينه، يكون مهيأ تماما لمواجهة سيل من الضجر والمرارة، ما دام قد اعتاد منذ طفولته على تقلبات الحياة اليومية عبر عملية تدريجية من الاضطراب المتواصل.

لم يحدث هذا لي. لقد قذف بي إلى الوجود من دون أبوين، من دون طفولة أو مراهقة.

وجدت نفسي ذات يوم، بشعر أشيب خفيف، في مرآة مطعم مينيوتا، ولم يفزعني هذا الاكتشاف أبدا، بقدر ما أدهشني أنني أخرجت صاحب المطعم من جيبي. أما هو فقد سألني، متحيرا إلى حد ما، كيف أمكنني أن أفعل شيئا كهذا.

بماذا كان يمكنني أن أجيب، وأنا في وضعي هذا، كشخص لا يملك أدنى تفسير لوجوده في هذا العالم؟ أخبرته أنني متعب وضجر منذ ولادتي.

ودون أن يفكر مليا في إجابتي أو يسألني أكثر، قدم إلي عرض عمل، وهكذا بدأت، منذ ذلك الوقت فصاعدا، في تسلية عملاء تلك المنشأة بنشاطي السحري.

غير أن الرجل ذاته فاته إدراك أهمية اعتيادي أن أقدم للمشاهدين

تشكيلة من وجبات الغداء المجانية التي كنت أنتزعها بطريقة خفية من داخل جاكتتي. ولأنه ارتأى أن أفضل الصفقات لا تتمثل في مجرد زيادة عدد الزبائن- من دون نمو مقابل في الأرباح- فقد قدمني لمدير حديقة السيرك الأندلسي، الذي عرض أن يستأجرني عندما حدثه عن قدراتي. غير أنه نصحه أولا بأن يتخذ بعض التدابير الاحتياطية ضد حيلي، لأن من المحتمل أن أقرر على الفور توزيع تصاريح لدخول العروض.

وعلى النقيض من التوقعات المتشائمة لصاحب عملي الأول، كان سلوكي نموذجيا. ولم تقم التزاماتي العامة بإثارة الجماهير فقط، بل عادت على أصحاب الشركة بأرباح خيالية أيضا.

وبصفة عامة، استقبلني الجمهور بشيء من الفتور، ربما لأنني أحجمت عن تقديم نفسي مرتديا بدلة فراك وقبعة رسمية. لكن بمجرد أن بدأت لا إراديا في إخراج أرانب، وثعابين، وسحالي، من قبعة، ارتعش المشاهدون من فرط الإثارة، وخاصة في النمرة الأخيرة حيث أجعل تمساحا أمريكيا يظهر من بين رؤوس أصابعي. ثم، بالضغط على ذلك الحيوان من كلا الطرفين، قمت بتحويله إلى أكورديون، وأنهيت الفصل بعزف النشيد الوطني للدجاج الصيني. وينفجر التصفيق من كل ناحية، تحت نظرتي المحدقة من بعيد.

وكان مدير السيرك، الذي راح يراقبني من بعيد،مستفزا من عدم اكتراثي بتهليل الجمهور، خاصة عندما كان يأتي من الأطفال الصغار الذين كانوا يحضرون ليصفقوا لي في الحفلات الصباحية أيام الأحد. فلماذا تهتز مشاعري، مع ذلك، إذا كانت هذه الوجوه البريئة، التي قدر عليها أن تعاني العذاب الذي يصيب أي إنسان يبلغ سن الرشد، لم تحرك بداخلي أي شفقة، ولا أي غضب من باب أولى، إزاء امتلاكهم لكل شيء تلهفت عليه لكن لم أمتلكه: الميلاد، وماض يخصني.

وعندما صرت أكثر شعبية، أصبحت حياتي لا تطاق.

وفي بعض الأحيان، وأنا جالس في مقهى ما، أراقب عامة الناس

بعناد وهم يسيرون عابرين صفوفا على الأرصفة، كان الأمر ينتهي بي إلى أن أخرج من جيبي حماما، ونوارس، وغيرها من طيور البحر. وكان الناس من حولي يتصورون أن سلوكي مقصود فينفجرون دائما في ضحكات صاخبة مدوية. فكنت أحدق في الأرض مغتما، وأغمغم ضد العالم والطيور.

وكلما حدث أن فتحت يدي، شارد الذهن، كانت تتسل منهما أشياء غريبة. وفي إحدى المناسبات أدهشت نفسي بسحب شكل غريب بعد شكل غريب آخر من كمي. وفي النهاية كنت محاطا تماما بأشكال غريبة، دون أدنى فكرة عن أي هدف أعزوه إليها.

ماذا كان بإمكاني أن أفعل؟ نظرت في كل اتجاه حولي، وكانت عيناي تلتمسان نوعا من العون، عبثا، وكان وضعا معذبا للغاية.

ودائما تقريبا، كنت إن أخرجت منديلي لأتمخط أدهشت أولئك الذين بجواري بسحب ملاءة سرير بكاملها من جيبي. وإن تململت ضجرا بياقة معطفي، ظهر صقر ضخم في الحال. وفي مناسبات أخرى، فيما كنت أحاول ربط رباط حذائي، أخذت الثعابين تنزلق خارجة من بنطلوني. النساء والأطفال أجفلوا يصرخون. الحراس أتوا مهرولين من بعيد، المتفرجون تزاحموا حولي، فضيحة. وكان لا مناص من اقتيادي إلى مقر الشرطة للمثول أمامها، وأصغيت بصبر فيما كانت السلطات تحظر علي القيام مرة أخرى بإطلاق ثعابين في الطرق العامة.

لم أبد أي اعتراض. وبجبن، ذكرت متذللا صفتي كساحر، وأكدت نيتي على ألا أضايق أحدا.

وصرت معتادا، ليلا، على الاستيقاظ فجأة في منتصف نوم عميق، على طائر مرتفع الصوت يرفرف بجناحيه وهو يطير خارجا من أذني.

وفي إحدى هذه المناسبات، وقد استولى علي الغضب تماما، عقدت العزم على ألا أمارس السحر مرة أخرى أبدا، قمت بقطع يدي عبثا. فبمجرد أن تحركت، ظهرت اليدان من جديد، ناضرتين كاملتين، على

الطرف المبتور من كل ذراع!

وكان علي أن أبدد يأسي بطريقة ما. وبعد أن أطلت التفكير في الموضوع بعناية، انتهيت إلى أن الموت وحده سيضع نهاية مناسبة لمحنتي.

وعقدت العزم على تنفيذ قراري، أخرجت عددا من الأسود - ربما اثني عشر أسداً - من جيوبي، وانتظرت مكتوف اليدين اللحظة التي ستقوم فيها الأسود بالتهامي. لكنها لم تلحق بي أذى.. ومحيطة بي.. شمت الأسود ملابسي، ثم ـ وهي تراقب المشهد ـ انسلت خلسة.

وفي الصباح التالي عادت الأسود من جديد وربضت بطريقة استفزازية أمامي.

«ماذا تتوقعين مني، أيتها الحيوانات الغبية؟» زأرت باستياء.

هزت الأسود لبدها بحزن، وناشدتني أن أجعلها تختفي.

«هذا العالم ممل بصورة مفزعة»، أعلنت الأسود.

فشلت في كبح جماح غضبي العارم. ذبحتها جميعا، وبدأت أنا نفسي في التهامها. وراودتني آمال في أن أموت ضحية عسر هضم قاتل.

مصيبة المصائب! عانيت مغصا هائلا في المعدة، وبقيت على قيد الحياة.

ولم يؤد هذا الفشل إلا إلى مضاعفة إحساسي بخيبة الأمل. تركت ورائي تخوم المدينة ورحلت باحثا عن الجبال، وعندما وصلت إلى أعلى قمة - وكانت تطل على الهوة المظلمة - تركت جسمي للفضاء.

لم أحس بأكثر من إحساس طفيف باقتراب الموت، ودفعة واحدة تقريبا وجدت نفسي متدليا من باراشوت. وبصعوبة، وأنا أرتطم بعنف بالصخور، مشوها وملطخا، عدت أخيرا إلى المدينة، حيث كانت الخطوة الأولى التي قمت بها هي الحصول على مسدس.

في البيت من جديد، وأنا راقد على فراشي، رفعت السلاح إلى

أذني. وضغطت على الزناد، متوقعا انفجارا مدويا وألم الرصاصة وهي تشق طريقها داخل راسي.

لم تكن هناك طلقة، ولا موت: تحول السلاح الناري الصغير إلى قلم رصاص.

تدحرجت على الأرض، منتحبا. أنا الذي كنت أستطيع أن أخلق كائنات أخرى لم أملك وسيلة لتخليص نفسي من الوجود.

تعبير سمعته بالمصادفة، وأنا في الشارع ذات يوم، منحني أملا جديدا في قطع صلتي بالحياة بصفة نهائية. فقد سمعت من رجل حزين أن العمل كموظف حكومي يعني الانتحار بالتدريج.

ولم أكن في وضع يسمح لي بأن أقرر ما هو شكل الانتحار الذي يناسبني على أفضل صورة: البطيء أو السريع. ونتيجة لذلك، عملت بوظيفة في وزارة الخارجية.

سنة ١٩٣٠، سنة مريرة، أطول من تلك السنوات التي أعقبت التجلي الأول الذي عرفته لوجودي، هناك في مرآة مطعم مينيوتا.

لم أمت، كما كنت آمل. وكلما عظمت مصائبي، كانت تعظم محنتي.

وحينما كنت ساحرا، كانت صلتي بالناس ضئيلة للغاية. كانت خشبة المسرح تحتفظ بي على مسافة كافية منهم. والآن وقد أصبحت مجبرا على أن أكون على اتصال مستمر مع أمثالي من الكائنات البشرية، كان من الضروري أن أفهمهم، وأن أخفي الكراهية التي يثيرونها في نفسي.

ولأن مهام وظيفتي كانت تافهة، كان أسوأ ما في الأمر هو أنني وجدت نفسي في وضع يضطرني إلى أن أتسكع بلا هدف ساعات متواصلة بلا توقف. وأدى الفراغ إلى استيائي من افتقاري إلى ماض يخصني. فلماذا كنت وحدي، بين كل أولئك الذين يعيشون أمام عيني، من لم يكن لديه شيء يتذكره؟ كانت أيامي تطفو في فوضى، مختلطة بقليل من الذكريات التافهة، المقدار الإيجابي الصغير المتمثل في ثلاث سنوات في الوجود.

الحب، الذي جاءني عن طريق موظفة حكومية معي، مكتبها بالقرب من مكتبي، أشغلني لفترة عن همومي. وسرعان ما عاد قلقي، وتصارعت مع شكوكي. وكيف كان لي أن أتقدم لخطبة زميلتي هذه إذا كان لم يصدر مني قط أي تصريح بالحب، ولا كانت لي تجربة حب واحدة؟

سنة ١٩٣١ بدأت كئيبة، بتهديدات بتسريحات جماعية من العمل، وبرفض من جانب موظفة الآلة الكاتبة النظر في طلبي ليدها. وأمام احتمال فصلي من الخدمة، حاولت أن أعتني بمصالحي الخاصة. (كانت الوظيفة لا تعنيني تقريبا. كنت ببساطة خائفا من أن أترك ورائي امرأة رفضتني، غير أن وجودها صار بالتدريج أمرا لا غنى عنه بالنسبة لي).

ذهبت إلى المشرف على القسم الذي نعمل فيه وأعلنت أنه لا يمكن فصلي لأنني، بعد عشر سنوات في الحكومة، أتمتع الآن بضمان العمل.

أخذ يحملق في وجهي بعض الوقت في صمت تام، ثم قال ـ عابسا في وجهي ـ إنه مندهش لحديثي الساخر. فهو لم يكن يتوقع أبدا من شخص له سنة واحدة فقط في الخدمة أن يملك الجرأة على أن يدعي أن له عشر سنوات.

ولأثبت له أن موقفي لم يكن مستهترا، أخذت أفتش في جيوبي عن أي وثائق تؤيد صحة ادعائي. ومذهولا، نجحت فقط في إخراج قطعة ورق مجعدة، وكانت شذرة من قصيدة من إلهام ثديي موظفة الآلة الكاتبة.

وبقلق، قمت بتقليب كل جيوبي، لكنني لم أعثر على شيء آخر.

كنت مجبرا على التسليم بالهزيمة. والحقيقة أنني كنت قد أصبحت واثقا أكثر مما ينبغي بقدراتي على عمل السحر، تلك القدرات التي قضت عليها البيروقراطية.

والآن ـ مجردا من موهبة السحر الخارقة السابقة الذكر ـ غدوت غير قادر على الاستغناء حتى عن أسوأ المهن البشرية. وينقصني حب زميلتي موظفة الآلة الكاتبة، كما ينقصني وجود أصدقاء، الأمر الذي

يرغمني على التردد على الأماكن المهجورة. وفي كثير من الأحيان يفاجئني الناس وأنا أحاول أن أنتزع، من داخل ملابسي بأصابعي، أشياء ضئيلة لا يلمحها أحد منهم على كل حال، مهما قاموا بالتحديق باهتمام.

وهم يظنون أنني مجنون، خاصة عندما أقذف إلى الهواء بتلك الأشياء الضئيلة جدا.

ويأتيني انطباع بأن عصفورا يوشك على أن يخلص نفسه من بين رؤوس أصابعي. وأتنهد بصوت مرتفع، بعمق.

وبالطبع لا يمنحني الوهم أي راحة. إنه لا يقوم إلا بزيادة حدة أسفي على أنني لم أخلق عالما سحريا بالكامل.

وفي بعض اللحظات أتخيل كم سيكون رائعا أن أنتزع مناديل حمراء، وزرقاء، وبيضاء، وخضراء، من جسمي، وأن أملأ الليل بألعاب نارية، وأن أدير وجهي إلى السماء فأجعل قوس قزح يتدفق من بين شفتي، قوس قزح يغطي الأرض من أقصاها إلى أقصاها. ثم التصفيق من الرجال المسنين بشعرهم الأبيض، ومن الأطفال اللطفاء.

ترجمة: خليل كلفت

لقاءان مع هيلينا

باولو إميليو سايِّس جوميس

باولو إميليو سايس جوميس
Paulo Emilio Salles Gomes (١٩١٦-١٩٧٧)

- ولد في سان باولو من نسل مختلط، برازيلي وإنجليزي، وكان ابن طبيب شهير.
- في شبابه المبكر، كان نشطا سياسيا في التحالف اليساري الذي كان يسعى إلى الإطاحة بالديكتاتور جيتوليو فارجاس الذي كان قد وصل إلى السلطة عبر ثورة شعبية في ١٩٣٠، غير أنه كان قد جمع في يديه، بحلول ١٩٣٢، سلطة أوتوقراطية ضخمة. وخلال موجة القمع (في ١٩٣٦) التي أعقبت الانتفاضة الشيوعية الفاشلة - بإيعاز من موسكو في أواخر ١٩٣٥ - كان سايس جوميس بين آلاف المناضلين والمثقفين الشيوعيين واليساريين الذين تم القبض عليهم واعتقالهم من دون محاكمة. وفي السجن نظم عروضا مسرحية و«جامعة» لتثقيف النزلاء سياسياً وفكريا. وفي السنة التالية اشترك في هروب مثير من السجن تضمن حفر نفق إلى مبنى مجاور، وهو هروب أفسده تقريبا جوميس بوقوعه في عشة دجاج.
- وفي أواخر ١٩٣٧ برأته محكمة الأمن القومي غير آنه كان قد هرب بالفعل إلى فرنسا. وهناك درس مع هنري لانجلوا في السينماتيك الفرنسي مفعما بولع بالسينما قاده إلى أن يكتب (بالفرنسية) سيرة حياة كلاسيكية لجان فيجو، نشرت في ١٩٥٧.
- بعد عودته إلى البرازيل في ١٩٤١، عمل ناقدا سينمائيا. وقطع علاقاته بالحزب الشيوعي في ١٩٤٥، عندما اقترح لويس كارلوس بريستيس، زعيم انتفاضة ١٩٣٥، الذي كان قد أطلق سراحه من السجن من وقت قصير، أن ينضم الحزب إلى فارجاس (الذي غازل قوى المحور وبعد ذلك روض نفسه على قضية الحلفاء) في إطار مصالحة وطنية.
- وفي ١٩٤٨، عاد إلى أوروبا لحضور مؤتمر السلام العالمي في وارسو، في بولندا (مع جورج أمادو)، ولمواصلة العمل في سيرة حياة فيجو.
- ومن أوروبا، ساهم بمقالاته عن السينما والأدب في مختلف الملاحق الأدبية في البرازيل.
- استمر في تنظيم أقسام جامعية عديدة للسينما في البرازيل، وأسس سينماتيك البرازيل.
- في الستينيات قدم سايس جوميس الإلهام الفكري والسياسي لمؤسسي «السينما الجديدة» البرازيلية، ومنهم نيلسون بيريرا دوس سانتوس، وجلاوبر روشا، اللذين كانا ينخرطان بنشاط في معارضة الديكتاتورية العسكرية في فترة ما بعد ١٩٦٤.
- وفي وقت لاحق تزوج جوميس من الروائية ليجيا فاجوندس تيلس.
- كما يقول توماس كولتشي «صار سايس جوميس أحد أهم نقاد الفيلم الأمريكي اللاتيني في القرن العشرين قبل أن يجلس ليؤلف القطعة القصصية الأكثر تسلية (البرازيل)».
- في آخر سنة في حياته، نشر كتابه القصصي الوحيد «نساء ب. الثلاث». تلك التحفة التراجيكوميدية ذات التعقيد الكوسموبوليتاني الذي لا يضارعه شيء في الأدب البرازيلي منذ أعمال ماشادو ده أسيس.

لقاءان مع هيلينا

باولو إميليو سايِّيس جوميس

لولا التهاب المفاصل، لكان من الممكن ألا ألقى هيلينا ثانية أبدا. وأعرف أنه ليس من المناسب أن أبدأ قصة عن أيام الشباب بالإشارة إلى التهاب المفاصل، التهاب مفاصلي أو مفاصلها، لكن الحقيقة أنه لولا هذا المرض فإن لقاءنا في سان بدرو بعد ثلاثين عاما لم يكن ليحدث أبدا. ولأنها كانت في باكايمبو وأنا في ألتو دوس بينييروس، وكان كل منا يتحرك في دوائر مختلفة، مستقلا سيارة أجرة أو مستخدما سيارته الخاصة، لا أحد منا اعتاد ارتياد الملاهي الليلية أو الحفلات، ولا أحد منا يتمتع بشهرة، كانت فرصة التقاء طريقينا شبه منعدمة، وفي الحقيقة أن هذا لم يحدث طوال ثلاثة عقود، وكأنما استجاب الله لتضرعاتى الحارة التي وجهتها إلى السماء. ومع ذلك، فلو توقف المرء ليفكر في الأمر، فإن رجلا وامرأة، كلاهما فوق الخمسين، مصابان بالتهاب المفاصل، وموسران، ويعيشان في سان باولو، من المؤكد أن يظهرا عاجلا أو آجلا في وقت واحد في أجواس دوسان بدرو، قرية المياه المعدنية حيث يحجز البرجوازيون وأبناء الطبقة المتوسطة المصابون بالروماتيزم غرفا في الفنادق الرئيسية التي لا تزيد عن اثنين أو ثلاثة.

ولم أتعرف على هيلينا لأول وهلة عندما رأيتها. كانت تجلس بجوار البروفيسور ألبرتو، يتسممان الهواء في الحديقة الصغيرة المزدانة بتماثيل أقزام جصية ملونة. أما هو، فقد عرفته على الفور، رغم شعره الأبيض والنظارات الحديثة التي حلت محل النظارات السميكة كدرقة السلحفاة، والتي كانت تزين أنفه الضخم. كان لسنوات مرشدي وصديقي الحميم. وكان اتساع معرفته والطريقة التي استطاع ذكاؤه بها ترتيب ما تراكم لديه من معطيات ثقافية سببا في تقديري للبروفيسور - عندما كنت قادرا على تقييمه - كأول عبقري حقيقي ألقاه.. الأول والوحيد، أستطيع أن أقول ذلك اليوم وأنا على أعتاب الشيخوخة، وأتوقع من ذوي الذكاء

أكثر من مجرد مجموعة من المواهب. ولم يحبني أحد في حياتي كما أحبني البروفيسور. فقد اعتقد أنني موهوب، وكان يعيرني الكتب منذ كنت في المدرسة الابتدائية، وهكذا وجه قراءاتي. واستمر اهتمامه الدؤوب بي طوال المرحلة الجامعية، عندما حاولت بسذاجة تعميق تذوقي للأدب، والفن، والأفكار التي أثارها بداخلي عامدا. لقد أخذ على عاتقه تشكيل أفكاري الأساسية في كل المجالات، كان يقابل صديقاتي ويوافق عليهن، حتى أول عشيقة بحكم المهنة تقريبا. كان هو الذي دبر لي ببراعة منحة للدراسة في أوروبا، وكان هو - الذي لم يسافر أبدا - الذي نظم بطريقة منهجية خط الرحلة وقائمة الزيارات السياحية التي يجب القيام بها: القسم الذي دفن فيه بودلير في مقابر مونبارناس، الرقم المضبوط للبيت الذي عاش فيه أوجست كونت في شارع مسيو لو برانس، وعنوان مكتبة الفاتيكان في ميلانو حيث تحفظ سكتشات خاصة أقل شهرة لليوناردو دافينشي.

وبالنسبة لعقلي وأنا في العشرين، كانت العقود الأربعة للبروفيسور قد جعلته في عيني أعزب، فاته قطار الزواج، وقد تلقيت في باريس، من دون دهشة، الرسالة التي تعلن زواجه. وخلال السنتين اللتين قضيتهما في الخارج كنا نتراسل بانتظام، ولكن مع مرور الوقت بدأت أتحسس في رسائل مرشدي جرعات متزايدة دوما من الاكتئاب. وكذلك تراجعا في حماسه لرعايتي ثقافيا. وقد أرجعت هذا التغير في اللهجة إلى الإحباط الذي لابد أنني كنت أسببه له. فقد كان حبي المتجرد للثقافة يتحول إلى الاهتمام بالسياسة، بينما كان هو يجد السياسة مثيرة للضجر كفرع معرفي. والأسوأ من ذلك، أنني كنت أميل إلى الفاشية، وهي الحركة التي كان البروفيسور ألبرتو يحتقرها، خاصة بعد ظهور الاندماجية والدولة الجديدة. وعجل قيام الحرب العالمية الأولى بعودتي للوطن، وداخلني نوع من الخشية والتوجس وأنا ذاهب للقائه لأول مرة في بيته الجديد في باكايمبو الذي اشتراه بعد الزواج. كنت أشعر بفضول لمقابلة هيلينا، التي لم أكن أعلم عنها شيئا أكثر من اسمها، فلم تكن

رسائل البروفيسور تهتم بالمسائل الشخصية. لكنها لم تكن هناك، كانت تقضي بعض الوقت في كامبوس دو جورداون، أخبرني بهذا بابتسامة ترحيب واسعة لم أنسها أبدا. ولأسابيع عدة بعدها قلما تركني وحيدا. كنت قد عدت من أوروبا أكثر نحافة بكثير، مما أصابه بقلق شديد. أصر على ذهابي لعدد من الأطباء وإجراء العديد من الفحوص المعملية.

ورغم أن صحتي كانت ممتازة أطعته بلا مقاومة، واعتبرت أنه ـ ككثير ممن يقتربون من الشيخوخة ـ أصبحت تنتابه هواجس المرض، وأنه كان يشملني بهذه الهواجس. واختفى ضيقي بالتدقيق الشديد المطول للأطباء بمجرد أن رأيت ارتياح صديقي إزاء النتائج «السلبية» للفحوص المعملية. وأما الباقي، المناقشات التي كنت أتخوف منها، فلم تحدث أبدا. عندما كان اسم هتلر أوموسوليني يدخل المناقشة ـ استفزازا مني ـ كان يهز رأسه ويغير الموضوع وذات يوم أمسكت به متلبسا وهو يبدي تسامحا تجاه المتطرفين، كما كنا نسمي المخربين في تلك الأيام. ولكنه جردني من سلاحي على الفور، موضحا أنه في السياسة يجب أن يتسامح ليبرالي مثله مع كل شيء، حتى مع الفاشي، رغم أنه في الحقيقة كان يتسامح مع شخص واحد فقط.. أنا.

بعد عودتي بثلاثة أسابيع، سافر البروفيسور ليلحق بزوجته في كامبوس دو جورداون، مع دعوته لي بالذهاب إلى هناك لبضعة أيام. استعددت للسفر معه. لكنه لم يرحب بالفكرة. واستعان بدفتر يوميات صغير نظر فيه باهتمام، وسأل عن تاريخ اليوم، وأحصى على أصابعه، وعين اللحظة المحددة التي يجب أن أصل فيها، بعد ثلاثة أو أربعة أيام. وعندئذ أدركت أنه أراد الاطمئنان على أنني سأكون بجواره في عيد ميلادي، الذي كان يقترب موعده، وشكرته على تذكره له. لكنه تظاهر بالدهشة، كما لو كان في تلك اللحظة فقط تذكر تاريخا، لم يدعه يمر من قبل دون اهتمام.

كان من السهل العثور على الكوخ المنعزل، المحاط بأشجار الصنوبر، في أمواراما. لم أعرف لأول وهلة أن الفتاة التي فتحت الباب كانت هي

هيلينا، لم أفترض أبدا أن زوجة صديقي الأربعيني العمر، ستكون صغيرة هكذا، بل وجميلة هكذا. لكن ظرفا طارئا كان بانتظاري. إذ إنه، استجابة لرسالة عاجلة من أسرته فيما يبدو، رحل البروفيسور في ذلك الصباح نفسه، دون أن يكون لديه وقت لإخباري، لكنه سيعود خلال أربعة أيام أو خمسة. أعلنت هيلينا ذلك بسرعة، دون أن تنظر إلي، وهي واقفة أمام الباب. وانتقلت إلى عدوى اضطرابها. فأجبت مرتبكا أنه لا توجد مشكلة، وأنني سأقيم لدى عمة لي في كابيفاري وأعود خلال بضعة أيام لأرى ما إذا كان البروفيسور قد عاد. كنت على وشك أن أمد يدي لأصافحها، حين لاحظت ارتعاشا في شفتيها وهي تتراجع بسرعة إلى داخل المنزل. وعندما تحدثت أخيرا، لم أستطع فهم كلماتها. ولم أستطع أن أستخلص من تمتماتها المشوشة سوى سلسلة من اللاءات، معلنة باهتياج. أصابتني الحيرة، وشعرت باضطراب شديد. وأخيرا، وبعد مجهود واضح، نجحت هيلينا في أن تقول إن البروفيسور ترك تعليمات مشددة بأن أستقر في الكوخ وأنتظر عودته. كنت أكبح انفعالي بشدة مثلما كانت تفعل. واعترمت ألا أقبل هذا الوضع الذي يفرض علي، لكن هيلينا، مسيطرة على عصبيتها، أصرت على أنها لا تستطيع أن تتركني أذهب. كانت تتكلم الآن بثقة مدهشة، رغم أنها كانت لاتزال تحول عينيها الخضراوين الواسعتين بعيدا عني، هاتان العينان اللتان كانتا العنصر الوحيد في سلوكها الذي لم يتغير منذ فتحت لي الباب. ولابد أن أضيف أنني خلال الأيام التي قضيتها هناك، لم تنظر هيلينا إلي مرة واحدة، وأول مرة تنظر فيها إلي كانت بعد ثلاثين عاما، في الحديقة ذات الأقزام الجصية. وإذا كنت ممانعا في الإقامة في بيتهما الريفي، فقد كان ذلك بسبب الأسى الذي أثارته تلكما العينان المراوغتان في نفسي: أجمل عينين رأيتهما في حياتي، تركزان دائما على شيء ما على يمين رأسي أو يساره. ولم أقبل البقاء إلا حين أخبرتني أنني سأضعها في موقف حرج أمام زوجها الذي أصر على أن أنتظره هناك. وضد إرادتي، أخذت حقيبتي إلى غرفة النوم التي عينتها لي. كان الجو بعد الظهيرة مشمسا رغم برودته، وقبلت بارتياح اقتراحها بأن أتمشى منفردا. فالعشاء ـ كما

أخبرتني - سيكون في السابعة.

أثناء تمشيتي خلال الغابة، لم أستطع أن أحول تفكيري عن الاستقبال الغريب الذي لقيته، وكان تفكيري يتنقل بين لوم البروفيسور ألبرتو والصفح عنه، فهو الذي كان مسؤولا عن هذه الحالة غير المريحة. لم أستطع أن أتبين أي نوع من النساء يمكن أن تكون هيلينا. ما الذي كان يمكن لها، في شبابها وجمالها، أن تجده في البروفيسور، فهو رجل استثنائي من نواح عديدة وكثيرة، لكنه متقدم في السن وبلا أي ثروة تذكر. لاشيء يناسب موضعه، كان الارتياب في الأمر كله مقلقا، وهاتان العينان اللتان لا تلتقيان بعيني!

عندما دخلت غرفة الطعام الصغيرة، كانت هيلينا تنتظرني. وقد تأنقت وصففت شعرها بعناية، كان شعرها مصففا عاليا فوق رأسها، ورقبتها الطويلة يبرزها ثوب بـ «ديكولتيه» جريء كذلك الذي نراه في الأفلام الأمريكية. كانت ذراعاها العاريتان مكتنزتين ورقيقتين. وتبينت أنها بالإضافة إلى جمالها كانت مغرية بشكل نادر المثال. كانت هناك نار صغيرة تتأجج في المدفأة. ذهبت إلى المطبخ مرات عديدة، عائدة بوعاء حساء، أو بطبق كبير يحمل بطة مشوية بالبرتقال «آلورانج»، أو زجاجات نبيذ فرنسي فاخر. واكتشفت - مما أربكني ثانية - أن البيت ليس به خدم، وأن هيلينا قامت بكل شيء. وفي الوقت نفسه، انتهزت الفرصة لمشاهدتها وهي تسير جيئة وذهابا ليزداد إعجابي بثوبها، الذي كان يلتصق تماما بردفيها. وفكرت كيف أن طراز الثياب قد تغير كثيرا خلال فترة غيابي.

كان العشاء ممتعا. وفي البداية كانت مضيفتي تبدو جافة، ولكن تعبيراتها أصبحت تدريجيا أكثر استرخاء، ربما بمساعدة النبيذ، الذي كانت تشرب منه بالكمية نفسها التي أشربها. وعندما ضحكت لأول مرة من حكاياتي عن باريس، بُهرت، وظهر صف أسنان جميل منتظم، وبدت أعلاه شريحة رقيقة من لثتها الوردية لتشكل اللمسة الأخيرة من فتنتها. وضعت كأسي فجأة وأنا أحس بما يشبه الدوار. وقطع نشوتي إحساس

خفيف بعدم الراحة، وبينما أعدل من جلستي لأكون أكثر ارتياحا، اكتشفت أنني في حالة استثارة جنسية. بدأت، مضطربا، أتحدث عن البروفيسور، ماذا يعني بالنسبة لي، كم أدين له، مدى حبي له وإعجابي به. كان فم هيلينا يتهيأ متوقعا مزيدا من الضحك، لكنه ذاب في ابتسامة تأييد شاحبة عندما ذكرت زوجها. وتحولت عيناها من نقطة تركيزهما المعتادة ورائي لتتركزا على زجاجة النبيذ، التي رفعتها، وملأت كأسينا حتى أترعتهما. وبيني وبين نفسي، أنا القادم حديثا من أوروبا، لاحظت أن ملء كأسي النبيذ حتى يفيضا، كأنما هما كأسا بيرة، هي الفكرة البرازيلية عن الضيافة، لكني لم ألاحق هذا التفكير التطلعي المبتكر. كنت أموت شوقا للمحة أخرى من الشريحة الوردية من خلال شفتيها الجميلتين، فلم ألجأ لذكر البروفيسور ثانية. وبدلا من ذلك عدت إلى نكاتي الباريسية، بمزيد من المبالغة والنجاح.

وكررت هيلينا رحلاتها المتماوجة إلى المطبخ مرات عدة. وفي الوقت الذي ذقت فيه بودنج الكراميل، لم تعد الاستثارة مشكلة، بل كانت أهلا وسهلا. بينما كانت درجة خاصة من الثمالة تسبب لي أفكارا ساخرة عن الليبرالي العظيم الذي يتسامح مع كل شيء، وكان شق من الصراع الدائر في نفسي يواسيني بفكرة أنني في الواقع لا أرتكب خطأ. عرضت على هيلينا أن أساعدها في عمل القهوة، وضحكت من حماقتي. في الحقيقة، ما أن وقفت حتى أحسست بحمق أكثر من قبل. كان طراز الثياب في ١٩٤٠ يجعل اللباس الداخلي والبنطلون كليهما على درجة ما من الاتساع. إن تلك النظرة، التي كانت تتجنب وجهي بالحركة من قمة رأسي لتتجول بين جوانبي وأجزاء جسمي السفلى، غامرت بالتركيز على هذا الإخلال بآداب السلوك والقادر على إلغاء سحر هذا المساء. ولكن، لم تستمر وساوسي طويلا، ليس لأنني تغلبت عليها، بل لأنني ببساطة تركت نفسي تنجرف خلف تعاقب الإيماءات، والشراب والضحكات. بعد القهوة، أحضرت هيلينا كؤوسا وزجاجة من شمبانيا فاخرة من نوع خاص جدا، كنت قد تذوقتها مرة في زيارة للراين، ولم

أكن أدرك أنه يمكن شراء مثلها في البرازيل، حيث كان من الصعب أن تجدها حتى في باريس، كما كانت باهضة الثمن. وعندما طلبت هيلينا مني أن أفتح زجاجة أخرى، فكرت، وأنا أبذل مجهودا لإزالة سدادة الفلين، في الزيادة الواضحة في رخاء البروفيسور. وكانت عينا هيلينا المراوغتان أبدا تلتمعان الآن ببريق جديد. كان هذا البريق هو الذي جعل فكرة الجنون تمر بخاطري، عندما ـ بعد لحظة صمت ساكنة ـ تقدمت ناحيتي بتصميم وألصقت جسدها بجسدي.

الغرفة التي قادتني إليها كانت مظلمة تماما. هذا الطقس المكاني الذي أحاط بفعل الحب بيننا استمر في إظلام تام خلال الأيام الأربعة ولياليها التي قضيتها معها في المنزل الريفي. حتى عندما بحثت عنها خلال ضوء النهار الكامل، كان ملجؤها دائما مظلماً. وبسبب رغبتنا الطارئة غير المنتظرة، قضيت في غرفة النوم هذه وقتاً أكثر من أي مكان آخر في كامبوس دو جورداون، رغم أنني في الحقيقة لم أر أبدا شيئا واحدا فيها، لا قماشها، ولا أي قطعة من الأثاث الذي تحتويه خارجها، لم أكن مع هيلينا أبداً تقريبا. ولم يتكرر تأنقها في الليلة الأولى ولا المأدبة الفاخرة. كانت تقدم الطعام بثياب متحفظة، لكنها لم تكن تجلس معي على المائدة. وكان الطعام يتألف من مواد مشبعة لكنها كافية: قطع من اللحم بدلا من البطة، وأباريق من عصير البرتقال في محل النبيذ. وبتسلط وضعت توزيع وقتي: عندما لا أكون في الظلام أو على المائدة، كنت أذهب في جولات منفردة بين الأشجار أو أستريح في غرفتي، التي لم تدخلها إلا لتحضر لي شراب البيض المخفوق بكونياك فاخر، وكانت تراقبني حتى أنتهي من شربه، كممرضة قاسية وكفء، وحقاً، كان الشعور الذي يملؤني خارج لحظاتنا الغرامية هو بالضبط شعور من نجا من مرض قاتل، ويمر بإرهاق فترة النقاهة.. كلمة «إرهاق» هذه مناسبة هنا، ليس لأن هيلينا كانت نهمة تماما، بل لأنها كانت تجتهد في إثارتي إلى الذروة بأسرع ما يمكن وأكثر عدد من المرات. وقللت من جولاتي في الغابة بموافقتها، لإطالة فترات راحتي.

في الليلة الأولى لم ألحظ أنها اتخذت أي إجراءات وقائية على الإطلاق - في تلك الأيام لم يكن «للحبة» وجود - وخوفا من عدم خبرتها، سألتها عن ذلك. وكان الصوت الذي جاء من بين الظلال ساخرا وهي تجيب بأنها تعلم ماذا تفعل، وأن خبرتها في هذا المجال أكثر بالتأكيد من خبرتي. والحقيقة أننا لم نتكلم إلا قليلا، داخل أو خارج ظلمة فراش الطقوس الواسع. لا أذكر أنني سمعتها تذكر اسمي، وقد قدرت ذلك منها في نفسي، حيث إنني دائما كنت أجده اسما سخيفا. ولم نلمح إلى البروفيسور مرة أخرى، ولكن، في خمول أوقات الراحة، كانت صورته تنتاب أفكاري، وأنفقت ما تبقى لي من طاقة قليلة في إطالة التفكير فيه، وفي هيلينا، وفي نفسي، فينا. عاطفتنا المتفجرة بررت كل شيء. لابد أن نواجه الزوج بالوفاء.

مرت أربعة أيام. جلبت صيحات الطيور لظلام غرفة النوم الدائم إحساسا باقتراب الفجر في العالم الواقعي. واقتربت اللحظة لأخبر هيلينا بأننا يجب أن نتخذ قرارا، ولم يكن صوتها أبدا بهذا الهدوء الطيع وهي تجيبني. لقد تم اتخاذ القرار بالفعل. فسوف أغادر في هذا الصباح نفسه، لأن البروفيسور ربما يعود بعد الظهر. إنها لم تقع في حبي. لم يكن الأمر أكثر من نزوة كانت تتمنى أن تخوض تجربتها، حسنا. لقد جربتها وانتهى الأمر. وهي غير نادمة عليها، ولكنها تعتبرها انتهت. إنها لم تخن زوجها أبدا من قبل ولا تتوقع أنها ستفعل ذلك مرة أخرى. وإذا غيرت رأيها فسوف تتصل بي، وتخبرني. كان ممنوعا علي أن أحاول أي اتصال بها أو بالبروفيسور. وسوف تخبره بأنني لم أكن محترما في تصرفاتي فاضطرت لطردي، لكي يكون ابتعادي النهائي عنهما مبررا. لا يجب أن أرهق نفسي بالأسئلة الأخلاقية، فالأمر واضح: إما أن أفقد الرأي الطيب للبروفيسور في، أو أن أدمر صديقي. فإذا مااستيقظت مباشرة، فسيكون لدي الوقت لأحلق ذقني وأعد حقيبتي وأشرب كوبا من الحليب مع بعض البسكويت، وألحق بسيارة السابعة صباحا. والتذكرة التي تحمل رقم مقعدي في السيارة موجودة في درج

الدولاب في غرفتي. الحليب موجود في الثلاجة والبسكويت في خزانة المطبخ، داخل العلبة التي عليها صورة ببغاء. ولن تودعني. لقد قيلت كلمات الوداع وستبقى في غرفة النوم حتى أرحل. لم تتكلم هيلينا أبدا بهذه الكثرة. واتبعت كل تعليماتها حرفيا، حتى ما يخص الحليب والبسكويت. ورحلت في حالة من الدوار حتى إنني لم أتذكر إلا بعد وصولي إلى سان باولو أنه كان يوم ميلادي الخامس والعشرين.

في الثواني التي استغرقتها لأقترب من البروفيسور العجوز عندما نهض من المقعد الحجري في الحديقة المزينة بتماثيل الأقزام، عشت من جديد مشاعر ثلاثين عاما. في بدايتها، كان حبي لهيلينا وإحساسي بالخجل تجاه البروفيسور قد اتحدا في شيء واحد، جعلني مخلوقا بائسا تعيساً، ولم يعد لدي اهتمام بانتصارات هتلر، ولا بعملي، ولابالنساء، ولا بالحياة ذاتها. وفي المرحلة الثانية، كنت أفكر أحيانا في هيلينا وأحيانا في البروفيسور. وعندما كنت أفكر في هيلينا، كان يغمرني أحيانا أمل عبثي في أن تبحث عني مرة أخرى، وهو احتمال أثارته هي نفسها في ذلك الصباح عندما ودعتني. ومن ناحية أخرى، كان تفكيري في البروفيسور ألبرتو، يجعل قدرتي على التخيل تتلاشى. إنني مقتنع بأنني بسببه بدأت أكره الفاشية. حاولت أن أنضم إلى الجيش، حلمت بالموت بطلا شهيرا، صوري في كل الصحف، حتى يعرف ويصفح عني. وبمرور الوقت، بدأت حرارتي نحو هيلينا تبرد تحت تأثير البدائل. لكن طوال هذه السنوات الثلاثين لم يكن هناك عار، شخصي أو قومي، يمكنه أن يضارع ذلك الذي كانت تغمرني به صورة البروفيسور. وفي اللحظة نفسها التي انحنيت فيها لأصافحه، غمر الإحساس بالخزي غضون وجهي العميقة بلون أحمر، صبياني وبكر، واضح كوضوح البيريه الملون باللون الأحمر القرمزي على رأس القزم بين شجيرات الورد. وبعد نظرة أكثر تمعنا، استطعت تقدير مدى الدمار الذي حاق بوجه الأستاذ العجوز، فهو أكثر مما يتوقعه المرء لصاحب السبعين عاما الذي وصفته. وإذا كنت قد تعرفت عليه في الحديقة من مسافة ياردات عدة فذلك

كان بسبب ضوء الشفق المتزايد، الذي نقل فقط صورة ظليلة له، مألوفة لي تماما، وخاصة لأنني لم أره منذ ثلاثين عاما، وكنت أفكر فيه بالفعل يوميا. أن ألقاه فجأة في ضوء النهار الكامل، ربما لم أكن لأتعرف عليه إلا بصعوبة. وعندما نطق اسمي قام بإيماءة كأنما سيقوم بتقديم هيلينا، التي لم أتعرف عليها إلا في تلك اللحظة. وعلى عكس البروفيسور، كان من الصعب التعرف عليها من بعد، فقد كانت تبدو ظلا مطوي الأطراف، بتأثير الروماتيزم الشديد وكان وجهها عن قرب لايزال خاليا من التجاعيد وقريبا من أصله، والذي كان الزمن قد جعله ضبابيا في ذاكرتي. تلاقت يدانا ببساطة، نفور متبادل زاده تحذير التهاب المفاصل. لم تتوقف أبدا عن التحديق بهدوء في وجهي طوال الوقت، عيناها مشحونتان بالتساؤل. أما البروفيسور، فقد كانت تعبيراته المسرفة عن إعزازه القديم لي تشوبها علامات لا تخفي من عدم الارتياح. لقد نسيت ما قلناه في هذا اللقاء القصير، فيما عدا بعض التلميحات اللبقة عن المفاجأة. وعند نقطة ما أكد أنه لو كان في السن الملائم، فربما كان سينهب البنوك ويهاجم مراكز المؤسسات مثل... تردد قطعته هيلينا، التي وضعت يدا مصابة بالروماتيزم على كتفه. نظرت بانتباه أشد إلى وجه الرجل العجوز، محاولا الوصول إلى فهم معنى هذه اللعبة، وأزعجني أن اكتشفت اهتياجا ينطلق من عينيه ويسبب ارتعاشا لشفتيه. انتهت الأزمة بسرعة، لكنها استنزفت البروفيسور الذي، بعد لحظة من اللهاث ليلتقط أنفاسه، اقترح على هيلينا أن يرجعا. سرت معهما في الطريق وعبر الجسر الصغير، الذي أطلق عليه اسم شاعر منسيّ. توقفنا أمام فندق له اسم محلي: جيروبيسابا. وأشار العجوز إلى لوحة قرأت عليها أن «جيروبيسابا» في لغة الهنود «التوبى» كانت تعني «الوفاء». ومرة أخرى أحسست بالدم يندفع ليصبغ غضون وجهي، لكنه علق فقط، بالحسياسية الشديدة الواضحة للعارف القارئ، أن معرفة مؤسسة الفندق بلغة «التوبى» لاتوحي له بثقة أكثر من معرفة القس المحلي باللغة اللاتينية. وأضاف أنه كان زائرا مواظبا للكنيسة الصغيرة هناك في أجواس، حيث كان كاهن عجوز يصر على تلاوة القداس بالطريقة القديمة. فالإشارة إلى الوفاء لم تكن

موجهة ضدي بكل تأكيد، وأراحتني هذه الفكرة، لكن راحتي لم تستمر طويلا. فقد أدركت ـ مرتعبا ـ أن البروفيسور كان يقول ملاحظات ساخرة ليكسب وقتا. أعلن أنه كان ينوي أن يخبرني بشيء ذي أهمية بالغة. انتظرت متجمدا. فكر بعمق للحظات قليلة، وهو ينظر إلى الأرض، ثم بدأ يتحدث بصوت خفيض حتى إنني وجدت من الضروري أن أقترب بوجهي من وجهه لأسمعه، وانتهزت هيلينا فرصة ابتعادها قليلا عن همسات زوجها، وودعتني بحركة متحفظة من رأسها. وحانت ساعة الحساب الرهيبة، التي انتظرت ثلاثين عاما. لكن رحيل هيلينا ترك البروفيسور في حالة يائسة تقريبا. انحنى على ذراعي بقوة حتى إنني للحظة تخيلت أنه سيهاجمني، لكنه سرعان ما سكنت نفسه، وأصبح صوته أكثر وضوحا. وأما أنا، فقد أعطاني تأجيل التنفيذ هذا وقتا لأستجمع شجاعتي من أجل التصرف الذي نويت عليه. سأستمع إلى كل شيء دون أن أنطق كلمة واحدة. في النهاية سأركع أمامه، وإذا لم يطردني سأقبل يده.

بدأ يقول بصوت هادئ إن الوقت والمكان ليسا ملائمين للحديث الطويل الذي كان ينويه معي، لكن يمكننا أن نلتقي في اليوم التالي. ومرتعشا بالأمل، فقد كان صوته يوضح الغفران الأكيد، استطعت أن أتمتم كلمة ما عن امتناني البالغ للنعمة التي يسبغها علي. لكنه عندما أكمل، أسكتتني كلماته مرة أخرى، ليس بسبب الندم، وإنما بسبب ماأثاره الاتجاه غير المتوقع نهائيا لحديثه. فقد تحدث بمزيد من الوضوح حديثا بدا غارقا في اليأس، قائلا إنه ارتكب جريمة ودفع ثمنها غاليا. وكان العقاب شديدا حتى إنه لم يستطع أن يتصور شيئا أسوأ منه. ورغم ذلك لم يتوصل إلى السلام النفسي. وقد عاد إلى كنيسة طفولته، وظل يتردد عليها يوميا، محاولا أن يعترف، لكن طبيعته جعلته يتمرد يوميا أيضا، رغبة في تجنب العقاب القاسي بما لا يمكن تخيله، رغم كونه مستحقا. كان يمضي أيامه يزن الجريمة والعقاب بحسابات ميزان جنوني. وبدت مصادفة اللقاء غير المتوقع معي قدرا مكتوبا. هكذا أضاف بابتهاج

عظيم. الملاحظة حول «الميزان المجنون» جعلتني على حذر شديد، فقد خطر لي فجأة أن البروفيسور يمكن أن يكون مشوشا عقليا، وأعددت نفسي لسماعه بصبر. هذا الاحتمال الجديد قد يشرح مودته الصادقة منذ التقينا في الحديقة، وفوق ذلك، استيقظت في نفسي وخزات الندم التي أصبحت الآن بلا حل، حيث إن عفو المجنون يصبح بلا معنى. وأظهرت لي كلماته التالية أنه خمن ما في رأسي من شكوك. فقال إنه يستطيع أن يفهم قلقي، وإن العبارات الغامضة المضطربة التي يتحدث بها لابد أنها تجعله يبدو ضحية هذيان مرضي. لكن لسوء الحظ ليس هذا هو الحال، فهو ليس مخبولا، فالحقائق كانت موجودة، وكانت غير قابلة للتغيير. في اليوم التالي سأكتشف كل شيء، وأستطيع أن أحكم بنفسي. اتفقنا على اللقاء في الحديقة الصغيرة عند الغروب، فضوء النهار القوي ضار بالنسبة له.

وإذ اتخذت طريقي ببطء صاعدا المنحدر المؤدي إلى «الفندق الكبير» والذي يطل على المشهد الطبيعي الرائع، كان عقلي مغيما بالاهتياج، الحالة التي استمرت طوال الليل، ولم ينهها إلا الإجهاد الشديد في الساعات الأولى من الصباح. وعندما استيقظت، سرعان ما هاجمني قلق المساء السابق، وظل توتري يزداد باقتراب ساعة اللقاء. وعلى المقعد نفسه كما في المساء السابق، كانت هيلينا جالسة وحدها. كانت تنظر باهتمام إلى بقايا قزم جصي، لم يبق منه إلا حذاء أصفر صغير، يتباين لونه مع خضرة المرجة. وكان قد سقط إما بفعل الريح أو بفعل سائح ما غير حسَّاس للجمال البسيط للمنتجع. بدأت قائلة إن البروفيسور لم يكن في حالة طيبة، وأنه قضى اليوم في الفراش، ولكن لم يكن هذا هو السبب الوحيد وراء امتناعه عن الحضور. والحقيقة أنه، بعد أن قابلني ثانية لم يستطع أن يجد القوة للاستمرار في مواجهتي. وقد طلب من هيلينا أن تفعل ذلك نيابة عنه، أن تخبرني بكل شيء، كل شيء، وهي مستعدة للقيام بمهمتها حرفيا. ولكن هناك عدد كبير من التفاصيل تحيط بحقيقة مهمة لم تكن هي تعرفها، ورفضت بحث خباياها.

وأصرت - فوق ذلك - أن أتركها تتكلم دون مقاطعة، ليس فقط لجعل مهمتها أيسر، ولكن أيضا لأنها سوف تستنفد الموضوع المطروح إلى الدرجة التي قد لا يبقى معها أي استفهام بلا إجابة.

كل عواطفي السابقة حل محلها الآن فضول شديد، حتى إن شخصية هيلينا نفسها أصبحت منسية في هذه اللحظة. وأعتقد أن الشيء نفسه حدث لها، فبمجرد أن بدأت تتحدث تبددت شخصيتي، رغم أن عينيها لم تفارقا وجهي لحظة واحدة. تحدثت ببطء، وفي تدفق متواصل بلاتوقف تقريبا، محاذرة أن تنسى شيئا، وبطريقة منهجية، حتى إنها لم تكن بحاجة أبدا للعودة لملء فراغات في جزء غطته بالفعل. كان الأسلوب الخطابي الانفعالي إلى حد ما الذي استخدمته هيلينا في التعبير عن نفسها، يحمل تأثير أدب مألوف بالنسبة لي، وعندما حاولت أن استدعي اسم الكاتب الذي تحتذى به، اكتشفت أنه أنا، الكاتب الذي لم ينشر شيئا من أعماله العديدة، ذات الأسلوب التقليدي، واللغة الطنانة أحيانا. وظل أسلوبها بسيطا خلال سردها بكامله، وكانت إشارات السخرية القليلة التي كانت تطفر بين الحين والآخر جوهرية بالنسبة للحقائق التي كانت تسردها، ولم يكن مقصودا منها أبدا أن تثير الأسى الذي عدت أشعر به الآن.

«أحب ألبرتو ثلاثة أشخاص فقط طوال حياته. كان الأول هو أنت، وإذا لم تكن أنت سافرت إلى الخارج، ولم أظهر أنا في حياته، فربما ظللت أنت الإنسان الوحيد الذي أحبه. كان هذا أمرا استثنائيا للغاية، لأنني أشك أن هناك أي إنسان قادر على الحب والعطاء أكثر منه. لاأستطيع أن أفسر ذلك، لكني أعرف أن مشاعره بالنسبة لأبويه وإخوته لم تتعد الحاجات العرفية. وكان من يمكن تسميتهم أصدقاءه، منذ الطفولة وخلال الشباب والبلوغ، كثيرين لكن متغيرين، وكانوا مجرد رفاق لعب أو دراسة أو مناقشة. ولاشك أن هذا العائق النفسي كان يصعب فهمه، ولكن يمكن تخطيه، حيث إنه فقط بتوجيهك وإرشادك استطعت أن تقتحم مخزون مشاعره المدخرة. ومنذ تعرفه عليك لأول

مرة عندما كنت في المدرسة الابتدائية حتى سافرت إلى أوروبا، كنت مركز حياته. لم يمسك شيئا عنك أبدا، بل وجد حتى اسمك جذابا. عندما التقينا، كنت أنا التي وقعت في حبه أولا، كانت أفكاره تحوم حول صديقه الغائب. كم كان يندب عدم وجود صورة لك معه. إنني أحب زوجي اليوم كما أحببته دائما، وأنا غيورة بطبعي. وهكذا، خلال ثلاثين عاما من حبي له، كنت أنت الشخص الوحيد الذي أغار منه دائما. لقد أعجبت بألبرتو يوم رأيته لأول مرة، وبدأت أبحث عنه بكل عذر ممكن. وأظن أنه كان سعيدا بصحبتي لأنه وجدني مستمعة جيدة ومهتمة بقصصه عنك. قرأ لي رسائلك بصوت عال وهو يعلق طويلا عليها، حاذفا من السرد، كما اكتشفت فما بعد، بعض المغامرات التي تتسم بالنذالة. قد يتحدث ضاحكا عن فتياتك الكثيرات، وإصرارك على تقديمهن إليه واحدة بعد الأخرى لترى رأيه. ربما كانت غيرتي لا تليق، ولكن كان الفضل لك حيث بدأ يعرفني أكثر ويعجب بي. وفي اجتهادي لإبعاده عنك تعجلت الأمور بتهور، وذات صباح تحاببنا وفي المساء نفسه بدأ يعد أوراق زواجنا. كان الدافع لاستعجاله في الزواج هو الرغبة في أن أحمل بأسرع ما يمكن، وهي الرغبة التي وجدتها في البداية مؤثرة، ثم أصابني البرود عندما قال إنه يريد طفلنا أن يكون مثلك تماما. ومن هذه اللحظة بدأت حياتنا تظلم. مرت شهور ولم أحمل. وفي اعتداده بنفسه ألقى باللوم علي. ولكن بعد أن فحصني مختصون كثيرون، وأكدوا بالإجماع مقدرتي على الإنجاب بدأ يسلم نفسه لإجراء فحوص مماثلة. ذهب إلى مجموعة أطباء، وفحص في معامل عدة، وأخيرا- ومتقبلا لحقيقة أنه عقيم - بدأ يقترب مني أكثر من قبل. وفي كل سنواتنا الثلاثين معا، كانت هذه الفترة هي أكثر فترات اتحادنا، أفكارنا وردود أفعالنا كانت كأنها لشخص واحد. مثل هذا التعارف العظيم الذي لا يصدق بيننا كان وحده القادر على أن يجعل الجنون الذي لجأنا إليه ممكنا. أول مرة شرح لي ألبرتو خطته، كان رد فعلي هو الرعب، وأسرعت باكية لأعترف. لقد كنت ولاأزال كاثوليكية، كانت عقائدي الدينية حقيقية دائما رغم بساطتها، وبقيت هكذا في وجه إلحاد زوجي، وحتى بعد

نموي فكريا وبعد أن أصبحت قادرة على المعرفة والتفكير والتعبير عن النفس. كان قس الاعتراف قد غضب مني من قبل في مناسبتين، أولاهما عندما أعطيت نفسي لألبرتو قبل الزواج، والثانية، لعدم دفع زوجي للزواج في الكنيسة. في هذه المرة، فقد أعصابه وصرخ في وجهي. كان يرى أنني قد أغواني الشيطان لتحدي إرادة الله مباشرة، ولارتكاب جريمة ضد جاري. وقال إنني إذا أصبحت شريكة في مكيدة زوجي الشريرة، فإنه لن يكون لي مكان بعد ذلك في الكنيسة الكاثوليكية، ومنعني على كل حال من ذكر الأمر له ثانية في الاعتراف أو غيره. لكنه لم يواصل هذا المنع، واستمر - بأسى - يستقبلني ويسمعني وينصحني في بيت الاعتراف وغرفة المقدسات، وبيت الأبرشية، حتى آخر سنواته عندما مات شيخا مسنا. وناقشت حجتي القس مع ألبرتو. وبوضوحه المعتاد، أثبت تناقضا بين مقولتي القس. أدلى بملاحظات ساخرة عن الاعتقاد في قدرة الإنسان على تحدي الرب، فهذه فكرة لا يمكن أن تنبع إلا من خطيئة الغرور الشيطانية، وهذا موضوع اعتقد ألبرتو أنه حجة فيه، وكان محقا، ورغم ذلك لم يعلق على الإشارة إلى الجريمة في حق الجار، وهذه هي النقطة التي عاد إليها مرة بعد مرة خلال الأسابيع التي قضاها في إقناعي. وبسهولة استطاع آن يدمر حججي الضعيفة، حيث كان - في الواقع - هو الذي شكل بكفء وصبر طريقتي في التفكير. اليوم أستطيع أن أرى بوضوح المنهج الذي اتبعه. فأولا، عزل فكرة الرب جانبا، مبينا أن الوصول إليه غير ممكن لا من المؤمن ولا من الملحد على السواء. ثم ركز على الجريمة ضد «جاره» هذا الجار - بالطبع - هو أنت. ولأجل البرهنة في مناقشته سمى نفسه بالمجرم وأسماك بالضحية، وسأل من الذي سيكون قد أصيب بضرر أشد. وعامدا، بدأ المقارنة من المستوى المبتذل للمظاهر المباشرة. هو المطعون في شرفه وأنت المغوي. ثم قارن بين إحباطه المؤلم أمام المتعة الطاغية بالجنس التي سبق لك أن وصفتها له كثيرا في رسائلك وأحاديثك. وبدأت أفكاره تتقدم إلى أعلى المستويات حتى وصلت إلى طقس من القيم الروحية السامية، التي لاأزال أذكرها حتى اليوم باعتبارها مؤثرة في كوامني . كانت أخطر

العواقب لكل منكما هو الفقد التام للصداقة. وحلل ألبرتو ذلك بأنه سيكون قليل الأهمية بالنسبة لك، حيث تمتلئ حياتك بحب العائلة والأصدقاء والنساء، أنت الذي أحدثت تعلقا بالفعل البسيط للحياة، أنت الذي كشفت قدرة هائلة على البدايات الجديدة. ثم قد يعالج الأمر من الزاوية المضادة، مبرزا كل ما تعنيه أنت بالنسبة له. المقارنة كانت لايمكن مقاومتها. ربما تكون أنت منزعجا قليلا لقطع صداقتكما، أما هو فسوف يقوم بتضحية حقيقية. شرح لي الحاجة لهذه التضحية بمصطلحات نظام جديد من الميتافيزيقا التي بدأ يتبناها ويعتقد فيها اعتقادا جازما، ميتافيزيقا تنكر المذهب الطبيعي العلمي الذي كان يعتنقه دائما. لقد كان أحد هؤلاء الرجال المقدّر لهم أن ينالوا مساحة قليلة في أي ناحية من نواحي الحياة. فهناك قانون غامض ينكر على مثل هؤلاء الأفراد حق الاكتمال أو التحقق. وهذا لا يمكن الحصول عليه إلا من خلال التعويض. كان الرقم اثنين هو «نصيب» (كوتا) مقدر له في هذا العالم، وقد اكتمل بي وبك. حب طفل قد يتطلب التضحية بواحد منا، أنت أو أنا. حقا، لقد أخبرني بشيء لم أسامحه عليه إلا مؤخرا، وهو أنه إذا استطاع أن يمنحني الحمل، فقد يكون مما ينسجم مع الأمور أن أموت عند ولادة الطفل، وسيكون «نصيبه» تاما بك أنت والطفل. هذه الحالة الوسيطة كانت نادرة التحقق. تغلبت فكرة وحدتنا بشكل عام، وعلى هذا الأساس، نبذ ألبرتو الفكرة البديلة التي طرحتها، والتي تمثلت في تبني طفل. وبدا أساسيا له أن يكون الطفل على الأقل ثمرة أحد نصفي الكينونة الواحدة التي نؤلفها. لا أحتاج لقول المزيد، لأن الشخص الخارجي بالنسبة لنا، الذي لا مفر من وجوده، حتى لو مؤقتا، لا يمكن أن يكون إنسانا آخر سواك. لابد أن أعترف أن الجانب المظلم من شخصيتي لعب دورا فيما حدث. فإذا وقعت في شرك المخاوف والوساوس من كل الأنواع، كان هناك عنصر واحد ضمن هذا الجنون كله أثار انفعالي دائما، أنك سوف تختفي نهائيا من حياة ألبرتو».

توقفت هيلينا عن الكلام لحظة، دون أن تبعد عينيها عني. لم

أقل شيئا، وأكملت هي.

«لا أعتقد أنه من الضروري أن أشرح بالتفاصيل الدقيقة المشروع الذي خطط له ألبرتو، حيث إنك قد حضرت التنفيذ كما حضرته أنا. وما جعل كل شيء أكثر سهولة هو معرفته الدقيقة الاستثنائية بك. فقد لاحظ الفتيات اللاتي كن يجذبنك بشدة - في الحياة، وفي المجلات المصورة، أو على شاشة السينما - كلهن كان لديهن شيء واحد مشترك، عندما يضحكن يمكن رؤية أطراف اللثة العلوية. لم أكن أبدا من ذلك النوع الذي يضحك كثيرا، وعندما كنت أضحك لم أكن أفتح فمي تقريبا. كان لابد أن أخضع نفسي لتدريب مؤلم أمام المرآة حتى استطعت أن أجبر عضلات وجهي المتوجعة على رفع شفتي إلى الوضع الضروري. السينما، التي كان دائما يمقتها، كانت مفيدة أيضا. وكنت تجره جرا لرؤية أفلام - لم يكن هناك من يستطيع ذلك سواك - وكان ألبرتو يسلي نفسه بمشاهدة حماسك لتصفيفات الشعر التي تطيل الرقبة والثياب التي تبرز استدارات الجسد بلا خجل. ومنذ رحيلك إلى أوروبا لم يضع قدما في مسرح، لكنه بدأ يذهب ثانية معي، تقوده الصور في الإعلانات، مع جذب اهتمامي إلى ثياب الممثلات وطريقتهن في المشي. وأكمل تلقيني بالكثير من أعداد المجلات المثيرة، معظمها بالإنجليزية. ذهبنا إلى المحلات للبحث عن الأقمشة، أنا نفسي توليت مهمة القص والحياكة، لأنني لم أكن أتحمل عبث طلب مثل هذا الثوب من الخياطة. وأنا ماهرة في الخياطة، لكن كان لابد أن أعيد صنع هذا الزي الغريب خمس مرات. أما البروفات فقد كانت أطول في البداية في سان باولو، وأخيرا في البيت الريفي في كامبوس دو جورداون، مسرح الأحداث المنتظر. بروفة الرداء، التي كانت متعبة للغاية، لم تنته إلا قبل وصولك بساعة واحدة. وفي هذه المناسبة تجلى تنوع مواهب ألبرتو مرة أخرى. أعتقد أنه كان يمكن أن يكون مخرجا عظيما، وفي «الفصل» الذي أسترجع أحداثه، كانت العقبة الوحيدة، التي لم يتمكن إبداعه من أن يتغلب عليها، هي عدم براعتي كممثلة. ولابد أنك وجدتني امرأة مشوشة، قلقة

ومتقلبة. بينما كان يجب أن تكون الشخصية التي أمثلها متصفة بالترحيب والدفء قبل أي شيء. حتى هذا، ذلك القليل الذي استطعت أن أفعله أدين به إلى عناد زوجي و ـ لماذا لا أقولها؟ ـ عبقريته. وفي اللحظة التي ظهرت فيها «على خشبة المسرح»، عندما قرعت أنت جرس الباب، غلبتني نوبة عصبية شديدة حتى إنني كدت أتخلى عن الموضوع كله. استجمعت كل قواي، لكنني أحسست بنفسي كإنسان آلي يوشك على الانهيار. كان فشل مشهد فتح الباب سببا في تغيير السيناريو، واضطررت للارتجال. وأدرك أنني عبرته بسوء، ولكن على الأقل استطعت أن أهزم العقبة التي كادت أن تتسبب في فشل الخطة كلها.. وهي قرارك غير المتوقع بانتظار عودة ألبرتو في منزل أقاريك في «كابيفاري». استطعت أن أتحكم في نفسي، ولكن لكي أقوم بدوري خلال أربعة أيام وليال تعيسة طويلة مملة، كان لابد أن أعدل تماما من الشخصية التي تم تأليفها بمثل هذا الاهتمام والخيال الواسع. استخدمت قليلا جدا من الحوار الطويل الذي كتبه هو والذي حفظته عن ظهر قلب، والذي اضطررت إلى ترديده مرة بعد مرة عند المائدة، في الفراش وفي ساعات فراغي. وقد ساعدتني أنت كثيرا خلال العشاء الأول عندما كنت تتحدث طوال الوقت، لتردد قصصا لم أكن أسمعها، حيث كنت قلقة على رفع شفتي العليا لإظهار أطراف اللثة وأنا أضحك. وفي الفراش كان الصمت أسهل بالنسبة لي، واستطعت أن أعفي نفسي من تلك السطور الشهوانية الثقيلة التي ترجمها ألبرتو من كتب فرنسية خاصة وهيأها. باقي الوقت، شكرا لله، وافقت أنت بلا شكوى على أن تذهب في جولاتك في المناطق الريفية المحيطة أو أن تستريح في غرفة الضيوف، ويمكنني أن أقول بحق إنه قبل أن نتعرض للمأساة التي أصابتنا، فإن هذه الفترة التي قضيتها معك كانت أسوأ أيام حياتي. وكان يمكن أن تكون غير محتملة على الإطلاق لولا طريقتك في الإذعان لقواعد اللعبة دون أدنى تبرم، رغم أنني وضعت هذه القواعد بشكل أكثر سلطوية مما تخيلت أنني أستطيعه. وأشعر أنه من المحتمل أنني أعزو الفضل لك ولي أكثر مما يجب، بينما الفضل كله يرجع لألبرتو الذي ندين له بالتنفيذ المتكامل للعملية التعسة. كان زوجي

المسكين والنبيل يستحق أن يسير كل شيء كما يجب. إن الاهتمام الذي أبداه حتى للتفاصيل الصغيرة السخيفة سيعطيك فكرة عن مدى مابذله من قرار وعمل وتكاليف. كان يعرف ما يمتعك أكثر من الطعام، وأصيب بخيبة الأمل عندما لم يجد طيور الحجل ودجاج غينيا متوفرة في ذلك المساء. كانت رسائلك من أوروبا هي التي أنقذته، والتي كان يستشيرها دائما، وكنت قد تحدثت بحماس بالغ فيها عن «البط بالبرتقال» (كانار أوزورانج). الأنبذة كان قد تم تخزينها من أجلك قبل الليلة المشئومة بوقت طويل، لكن الشمبانيا التي كتبت عنها على كارت بوستال مصور لكاتدرائية رنس حصلنا عليها ببحث مضن ومبلغ كبير. كان مقتنعا بأن هذه الشمبانيا ولا شيء سواها يجب أن تلعب دورا فاصلا في ذلك العشاء الأول، الفصل الحاسم في المؤامرة. وفي سان باولو لم يكن هناك بائع أنبذة قد سمع عن هذا النوع، وسافر ألبرتو إلى ريو للبحث عنها، وهو ما كان معقولا، لكنه مد بحثه إلى بورتو أليجري، مضللا بمعلومة خاطئة. وسأل خبراء النبيذ بلا طائل، وأخيرا - مقتنعا بأنه يجب أن يذهب إلى أقصى مدى - حاول مع محرري أخبار المجتمع. وأخبره أحدهم أن عددامن الزجاجات من هذا الصنف الشهير كانت مصدر فخر لمخزن النبيذ في نادي الجوكي بالأرجنتين. وقرر ألبرتو القيام برحلة إلى بوينوس أيريس، لكنه تذكر حينئذ أن أحد خبراء الأنبذة الذين استشارهم، وكان أستاذا لنظرية الأدب، كان يستعد للذهاب إلى هناك. وقد استقبله هذا الأستاذ هو والخدمة الغريبة التي طلبها بدهشة طاغية، حيث إنه لم يكن يعرفه إلا لماما. وحيث إن الرجل كان ميالا ومغرما بكل ما يخص الأنبذة، فقد أخذ على عاتقه القيام بالمهمة الصعبة، والتي كان من ضمنها رشوة خادم الفندق الإنجليزي، وهو شخصية لها وقارها ومكانتها في الشريحة العليا لبوينوس أيريس. لكن على الرغم من هذا العمل الشاق للحصول على الشمبانيا، لم يكن هذا هو النموذج الأخير لدقته الشديدة في كل التفاصيل، لأن الأمر كان في الأساس خطة لإصابتك بصدمة. الأكثر براعة من كل ذلك كان اختيار الحلوى. فالبطة والأنبذة كانت إغراء مباشرا لشهيتك وحسن تذوقك، وكانت

فعاليتها تمهيد الأرضية لتحس بالراحة البيتية التي يمكن أن يضيفها بودينج منزلي مقدم في طبق واسع. كانت وظيفة الحلوى سيكولوجية إلى أقصى حد، فقد كان عليه أن يثير التركيب اللاواعي لذاكرتك، والذي كان شديد الحساسية للإيحاءات الحسية. في البداية اختار ألبرتو التين، لكن حينئذ لم يكن التين على درجة عالية من الجودة كالذي يزرعونه اليوم في فالينيوس. كانت الصعوبة في العثور على تين جيد، من حسن الحظ، لأنها قادت إلى حل أكثر صلاحية بما لا يقارن. لقد كان على معرفة جيدة بالعلاقة التي كانت تربطك قبل رحلتك إلى أوروبا بتلك المرأة ذات الضحكة المتدفقة حتى تظهر أطراف اللثة، والتي ـ بناء على تأكيداتك ـ كان لها من الجاذبية الجنسية بالنسبة لك أكثر مما كان لأي امرأة أخرى. ولم تستطع أن تنساها، وكان إحساسك بالإحباط عظيما عندما عرفت بزواجها. وكان ألبرتو قد ذهب معكما إلى المطاعم مرات عديدة، وعرف أنها تحب الوجبات المتنوعة، لكن بالنسبة للحلوى، كانت دائما تطلب بودينج الكرامل. وأظن أنه كان محقا عندما أصر ـ في مواجهة شكوكي ـ على أن هذه الحلوى، المتواضعة في عيون الأغلبية، لابد أنها قد حازت لديك على شحنة عاطفية من أشد الأنواع قابلية للتفجر. وعندما أعطيته التقرير المفصل عن الأيام الأربعة التي قضيناها في الكوخ، اعترفت بأن البودنج كان عاملا أكثر حسما من الفستان، والنبيذ، أولئتي في جذبك إلى المطبخ عندما حان موعد قهوة ما بعد العشاء في حالة من الطيش الشديد يمكن أن تريك أي شخص مهذب. ولكن حينئذ، من غير الدقيق أن نقول إن إعداداتنا أنا وألبرتو، كانت مستلهمة على وجه الحصر من المراقبة المباشرة للحياة. فقد قرأنا ودرسنا قدرا كبيرا، خاصة ألبرتو، الذي تناول بمفرده النصوص من اللغات الأجنبية، وهي المنطقة الدراسية التي كنت لا أتقن منها غير الإسبانية والفرنسية. وعلمتنا الكتب الجنسية أن وجبة مصحوبة بخمور جيدة تكون محفزة، ولكن تكرار مثل هذا الطعام يحدث تأثيرا عكسيا. كان قسم كبير من هذه القراءات بلا طائل، حيث إن معظم المادة كانت مكرسة فقط لإطالة أمد المثيرات حتى تصل إلى الحد المقبول، أنواع من

التفنن ليس لها استخدام عملي يفيد أهدافنا. أما بالنسبة لنا نحن، فقد كنا دائما نقتصد في الجنس. وحيث إن الموضوع المستهدف منك كان بسيطا، فإن التحقيق البسيط للطبيعة كان كافيا، وكانت هذه هي المنطقة التي قدمت فيها مساهمتي المتواضعة. فأنا ابنة وحفيدة لقوم من المزارعين، وقضيت طفولتي بين الجياد والماشية. وأدهشني أن أقرأ، في ترجمة إسبانية لكتاب اسكندنافي، الوصف المزود بالصور لطريقة تشبه كثيرا المعالجة التي تمارس مع الجياد لزيادة قدرتها على الإنجاب والتقصير في الوقت نفسه من الزمن المطلوب للعملية».

في هذه المرة توقفت هيلينا وقتا أطول قليلا. وأصبح صوتها أجش. وانتقلت إلى موضع أقرب لتتمكن من التحدث بصوت أكثر خفوتا. عيناها تغيرتا، ولم تصبحا موجهتين ناحيتي مباشرة فقط، ولكن كانتا تتفحصاني بإمعان، وبانتباه كامل لوجودي.

«البرتو كان قلقا جدا على صحتك. كانت فقرات معينة في إحدى رسائلك التي كنت تسخر فيها من الأطباء الفرنسيين أحيت شكوكه في أن تكون قد أصبت بمرض تناسلي في باريس. ولكن هذا لم يكن السبب الوحيد الذي جعله يجري لك تلك الفحوص الكثيرة. فمن خبرتنا مع الأطباء، تعلمنا أن نسبة الرجال المصابين بالعقم أكثر كثيرا من الشائع افتراضه. وكان من الضروري تماما أن نكون واثقين من قدرتك على الإنجاب، وإلا فإن كل جهدنا الشاق قد يصبح بلا معنى، بل، وهذا أسوأ، يصبح حماقة. وبمجرد إثبات خصوبتك، فإن الأيام التي خططت لنا معا تم اختيارها بعناية. والشيء الوحيد الذي لم يستطع ألبرتو أن يتذكره هو إيقاع دورتي الشهرية. فوضع خطوطا تحت التواريخ في دفتر يوميات صغير كان يرجع إليه، وقد أحرجه ذلك نوعا ما، وهو يحدد التاريخ الذي يجب أن نلتقي فيه في كامبوس دو جورداون. ولكنه ارتاح فقط عندما ذكرت أنك سوف تحتفل بعيد ميلادك معنا. ورغم تخطيطنا كله، كنا نخشى تدخل أي عامل غير منتظر، ولذلك فقد قررنا أنه عندما نفترق أنا وأنت، لا يجب أن نوقف احتمال وقوع لقاءات أخرى. فقد

وضعنا في اعتبارنا احتمال الحاجة لأن أبحث عنك ثانية، مرات عدة لو كان ذلك ضروريا. ولم يحدث. ولد ابننا في موعده الطبيعي، تسعة أشهر بالتمام، يوما بيوم، ساعة بساعة، منذ مغادرتك الكوخ. وأنا واثقة أنك لو غادرت قبلها بيوم واحد، فإن المسألة كلها سيتم تكرارها مرة أخرى. ومنذ اللحظة التي تأكد فيها حملي، لم نذكر اسمك مرة أخرى أبدا. وفوق ذلك، أعرف أنه طوال خمسة عشر عاما لم يفكر هو فيك أبدا، مما جعلني أعتقد في هذه النظرية الغريبة الخاصة بتحديد «نصيبه» بالنسبة لعدد من يحبهم باثنين. لكن الحب والتفاني اللذين غمر بهما حياة ابني وحياتي كانا قويين وغامرين حتى إنهما وحدهما كانا قادرين على إحداث التحول الكامل للعالم، إذا اعتبرنا الفرضية المستحيلة لقدرة فرد على المساهمة في ذلك. أما أنا، فقبل أن نلتقي كنت أعرفك جيدا من خلال ألبرتو، معرفة لم يكن لها أبدا مرجع مرئي. فلم تكن لك صور في بيتنا، ولكي أقوم بالمهمة التي أخذتها على عاتقي، كان من الضروري ألا أنظر إليك. وفي الدقائق القليلة الأولى، كان يجب أن أراقب نفسي، لكن بعد ذلك أصبح عدم رؤيتك عملية آلية. في الفراش، كان الظلام يسهل الأشياء، لكن كانت لدي دوافع أخرى لاختيار الظلام. أن أقبلك دون أن أراك قد يكون أسهل من ساعة ونصف أقضيها في تحاشي النظر إليك على المائدة، رغم أنني استطعت أن أفعل ذلك في المساء الأول. فإذا كانت هناك ضرورة تقنية ـ مثلا، لو كنت تقع في شريحة الإثارة بالنظرة الموحية من ضمن الشرائح التي صنفها «كرنر» (وهو احتمال غير وارد طبقا لتأكيد زوجي) ـ فقد كنت سأفتح النور لكي أكشف عريي كلما كانت هناك ضرورة. لم يكن إحساسي بالخجل يضايقني، فقد اختفى مع ألبرتو، ولم يعد هذا الإحساس إلا بعد رحيلك. أما الإظلام التام، فقد كان بسبب إحساسي بأنني لا أملك الحق في إخفاء التماثيل الصغيرة للإله وللقديسين التي تصاحبني دائما. وفي الوقت نفسه لم أكن أحتمل رؤيتها أو أن يراها غريب بجواري. فهي ليست شريكة في كل هذا. لقد حافظت بصرامة على أن يكون الرب خارج الخطة، إلى حد أنني خلال تلك الأيام لم أتوقف مرة أبدا عن

تلاوة صلواتي. لكني لم أسأل مساعدة السماء أبدا في أن أصبح حاملا. وباختصار، لأنني لم أرك، ظللت غير معروف لي شكلا، وجسدا، حيث إنني كنت دائما أكثر انشغالا بعملي من أن أحس بثقلك. كنت شيئا تجريديا يسهل نسيانه. وربما أحسست بحاجة لا واعية لمحوك كاملا. وفيما بعد، عندما بدأت الذاكرة تستحضر الأشياء واحدا بعد الآخر، قررنا أنا وألبرتو أنه إذا كان موتك قد حدث بالفعل، مؤكدا اختفاءك النهائي، ربما كان هناك أمل لنا. وقد هجر هو هذه الفكرة في الحال، لكني لم أفعل. ففي سنوات نضجي، لم أعد أوافق موافقة عمياء على كل وجهات نظر زوجي، رغم أنني لم أتراجع عن الاعتراف بتفوقه الطاغي. لقد تفرقنا في اتجاهات مختلفة تبعا لظلال طباع كل منا. كبرياء زوجي واعتداده بنفسه، واعتدادي بشكل أكثر هدوءا بكثير. في سنواتنا السعيدة، كان هذا الاختلاف في الطباع يصهرنا معا في فرحة الأبوة والأمومة . ربما لا أعرف كيف أصف السعادة التي جلبها لنا الطفل. وقد يكون من القسوة أن أتحدث عنها. فمنذ نعومة أظفاره كان طفلنا نسخة أخرى من معدن ألبرتو الأصيل. بالإضافة إلى ذلك كانت له قدرة رائعة على التصرف تجاه كل من لم يستطع زوجي المسكين التعرف عليه. وفي فترة المراهقة، كان موهوبا ومجسدا للفضيلة، كان شابا جميلا. وهذا هو الوقت الذي بدأت طبيعة ألبرتو تظلم فيه. فقد اتخذ وجهه نظرة إدراك عميق، وسرعان ما توغلت فيه خطوط الشيخوخة. وحيث إنه كان هو الذي يتولى قيادة مناقشاتنا، فقد انتظرت بهدوء في خشية من أن يفصح حقا عما كان في خاطره. وبدأ تغير طبعه يخلق أزمة، تظهر دائما في سلوكه على المائدة، فقد يحدق في الولد بإمعان حتى يصل إلى إشعاره بالارتباك. بعد ذلك، كان ألبرتو يقوم في صمت ويقضي الساعات في المكتبة يدون أرقاما، أو ـ وهو ما كان أسوأ ـ يحبس نفسه في غرفة النوم ليبكي. كان ابننا يمتلك جمالا غامضا نوعا ما، كذلك الذي يأتي مع سن البلوغ، وسألت نفسي، وأنا أتذكر قراءاتنا القديمة عن الجنس، ما إذا كان مايضايق ألبرتو هو الخوف من أن يكون الصبي مصابا بشذوذ جنسي. لكن الولد، الذي كنت لا أزال أراه طفلا، سرعان ما وجد صديقة، وبدأ

علاقة تتماشى مع طراز علاقات شباب هذه الأيام. لكن ألبرتو ظل متوترا وصامتا. وبمرور الوقت، بدأ الولد يقضي وقتا أقل في البيت.. الجامعة، الفتاة، عمله، أصدقاؤه العديدون، التزامات كثيرة جدا لم أكن أعرف شيئا عنها، وأخيرا الشقة التي استأجرها مع فتاته، كل هذا حرمنا من رؤيته غالبا. قد يتناول العشاء معنا في مناسبات ميلاده أو ميلاد أحدنا. لم أكن أشكو، لفهمي كم من المؤلم لشاب مثله أن يرى معاناة أبيه غير المفهومة. كان فزعي يشتد حين أجد سلة المهملات مليئة بأوراق مكومة.. أرقام، لاشيء إلا أرقام مرتبة في تراكيب متنوعة للغاية ومصحوبة بعلامة الجمع أو الطرح، وخالية ـ رغم ذلك ـ من أي وظيفة حسابية. كانت الحسابات من نوع يستغلق على فهمي. فقد كانت تستحوذ عليه قراءة كتب مستوردة، كانت هذه أيضا كتبا مستغلقة على الفهم بالنسبة لي بسبب لغتها وأسلوبها. رغم أن قلقي الشديد كان يزداد، إلا أنني لم أفكر أبدا في إرغامه على الذهاب للطبيب، لأنني كنت أعرف أن زوجي لم يكن مجنونا، لكنه كان يعطي هذا الانطباع، خاصة في حفلات ميلاد ابننا، إلى درجة أنني فكرت في إلغاء هذه الاحتفالات. لم تكن ضرورية. في اليوم الذي بلغ فيه خمسة وعشرين عاما، لم يظهر الولد وخطيبته عند العشاء الذي أعددته بعناية خاصة، وقد عقدت العزم على أن يكون الأخير. فقد جلب اقتراب يوم الميلاد هذا أزمة أكبر من المعتاد لألبرتو.. انسحب إلى الصمت التام، ولم يعد حتى يلمس الطعام الذي أحضره له في الفراش. فنزوله إلى غرفة الطعام أصبح أمرا بعيد المنال، مما أراحني إلى حد كبير. في تلك الليلة المشئومة ذهبت إلى غرفة نومنا لأستعد، حيث كنت أريد أن أظهر بمظهر لائق أمام الشابين، كنت سعيدة لسماع صوت ألبرتو، رغم أنه تكلم في نغمة مذعورة. قال إنه إذا كان ابننا سيأتي، فهو يريد إخباره، إلا أنه لم يكن يريد رؤيته تلك الليلة، ولذلك فيجب أن يعود في اليوم التالي. تعجبت ماذا يمكن أن تعني «إذا» هذه، وفكرت فيها مرة أخرى، عندما وجدت نفسي، في وقت متأخر جدا، أتناول العشاء وحدي على المائدة العامرة المزينة بالزهور التي لم تلمس تقريبا. وفي لحظة معينة، أدركت

أن ألبرتو قد استيقظ، وكان يستمع خافق القلب، إلى صمت البيت. بعد لحظات قليلة سمعت أصواتا غريبة، وجريت إلى غرفة النوم حيث وجدته وقد جحظت عيناه، تكادان تخرجان من رأسه، في حالة تبدو أشبه بسكرات الموت. وخلال الأسابيع التالية لم أكن أفكر إلا في إنقاذ حياة ألبرتو، ولم أفعل إلا شيئا واحدا، حاربت لكي يعيش. لم يستطع الأطباء تشخيص مرضه، ولم يفعلوا أكثر من أن يكتبوا بإحساس من الشك وصفات طبية لأدوية تجريبية. وإذا لم يكن قد مات، فهذا لأنني لم أتركه يموت، ولأنه لم يكن يريد أن يتركني. وبمجرد أن تحسنت حالته، ذهبت إلى شقة ابني في «فيلا بواركه» لكن البواب لم يكن يعرف سوى أن الزوجين الشابين قد انتقلا قبل ذلك ببعض الوقت. حاولت أن أعرف المزيد من الرجل، وأخبرته من أكون، وأن والد الشاب كان مريضا جدا، وأنني أريد أن أخبره. وهل يمكن أن يخبرني عمن يعرفه من الجيران أو الأصدقاء؟ كان لابد أن أعرف عنوانه الجديد. لكن الرجل، الذي كان قد جاء من الشمال الشرقي، لم يفعل سوى أن هز كتفيه، لم يستطع إخباري بشيء آخر. عدت إلى البيت وحدي، لكن ألبرتو الذي كان يخرج شيئا فشيئا من تعبه وصمته، لم يسألني عن شيء. والآن كان تماثله للشفاء سريعا بقدر غير متوقع. لقد ملأته طاقة جديدة، وسرعان مابدأ يخرج يوميا، في جولات لم أعرف هدفها أبدا. وأيضا بدأ يقلق كثيرا بشأني مرة أخرى، محاولا أن يخفف عني بالنسبة لاختفاء ابننا. ثم ذات يوم أخبرني أن الفتى كان قد قبض عليه، لكنه أضاف أنه لاداعي للقلق الزائد، فالقبض على الشباب قد أصبح شيئا شائعا. نعم، فقد اتخذ بعض الخطوات المهمة بالفعل، وعلى المرء أن يلزم الهدوء. أخيرا، وبحذر شديد، أخبرني أن ابننا قد مات يوم ميلاده. وكان الدور على ألبرتو ليهتم بي، ولا يسمح لي بالموت. وكانت معركته أكثر صعوبة، لأنني لم يكن لدي تردد في الموت وتركه وحيدا. وعندما تمت استعادتي إلى العالم مرة أخرى (رغم أنني كنت ضحية نوبات مؤلمة لالتهاب المفاصل حتى إنها في الواقع كان لها أثر على استقامة تفكيري) استأنف ألبرتو رحلاته، أحيانا يقضي شهورا بعيدا عن البيت، إنني واثقة أنه عرف كل

شيء، كل شيء تماما، وأنه، بما ينسجم مع شخصيته، لم يقتنع ويهدأ إلا بعد أن استنفد كل مصادر المعلومات الممكنة. عرفت فقط أن ابني تم القبض عليه تحت اسم مزيف ـ وهو ما لم يخبرني به أحد أبدا ـ وأنه بعد بضعة أيام، مات في السجن. ولم أسمح لنفسي أبدا بأن أعرف المزيد، وحتى أثناء أشد حالات هذيانه عنفا، احترم ألبرتو جهلي دائما. وفي المناسبتين أو الثلاث التي كانت مثل ليلة الأمس عندما كاد أن ينسى نفسه، وهو على حافة الهذيان العنيف بالفعل، كانت لمسة يدي كافية لجعله يتوقف. وكما لم أسمح لنفسي أبدا، بأي تدريب على التخيل، فسوف أذهب إلى قبري.. لا أعلم إلا أن ابني قبض عليه ومات في اليوم الذي أكمل فيه خمسة وعشرين عاما. وقمت باستثناء واحد بالنسبة لخطيبته وسألت عنها. فعرفت أنها أيضا قبض عليها وفقدت عقلها. وأن أحد جديها غني، وأنها الآن تعالج في سويسرا، ربما لبقية حياتها، التي أدعو الله أن تكون قصيرة. أكمل ألبرتو مهمته وعاد إلى البيت، ومنذ ذلك الحين لا يغادر البيت إلا مرتين في العام ليصحبني إلى هنا. وفي الفترة الأخيرة كان يحضر القداس اليومي المبكر لأبرشية برديزيس. لم يفتح بعدها كتاباً أبدا، وهو يقرأ فقط داخل نفسه ، جامعا المادة من ذكرياته التي لا تتوقف. لم يكن أبدا متكلما هكذا. قبل المأساة كان يعتبر نفسه بالفعل مستحقا للوم على كل شيء، ولم يتذبذب عن هذا الاعتقاد الجوهري. وقد وصل إلى هذا الاعتقاد بالدخول في أفكار متنوعة متعاقبة، والتي يمكن حصرها، باستبعاد التنويعات والتداخلات، في فكرتين، الأولى: كانت متخيلة بالفعل قبل موت ابننا، والأخرى، التي من المؤكد أنه اعتنقها. وخلاصتهما الشيء نفسه: أنه ارتكب جريمة، وعقابه كان موت الولد. وما يميز كل فكرة عن الأخرى هو طبيعة الجريمة. وكانت نقطة الانطلاق هي الفكرة القديمة الخاصة بـ «النصيب»، والتي تحدد عدد الناس الذين من حقه أن يحبهم في هذا العالم، مع شفرة رقم اثنين الحاضرة بصورة لا فكاك منها. لقد جاء بفكرته من «علم معاني الأعداد»، وهو علم استنفده دراسة في الفترة الأخيرة. هذا القلق الذي كانت له ـ كما تعلم ـ تلك الأهمية بالنسبة لنا عندما قررنا أن نزود

أنفسنا بطفل، كان قد اختفى في سنوات طفلنا الأولى وشبابه. واليوم أسأل نفسي ألم يكن ما أطلق خيال ألبرتو هو التشابه التام الذي رآه بين ابننا وبينك. ليس لدي وسيلة لأعرف ما إذا كان الرجل الذي ذهبت معه إلى الفراش في كامبوس دو جورداون، ولكني لم أره أبدا، كان يشبه ابني. في هذين اليومين الأخيرين كنت أفحصك، محاولة أن أكتشف ما إذا كان ابني، لو عاش حتى يصبح في سنك، سيكون شديد الشبه بك. لكن هذا جهد عبثي، لأنه سيبقى دائما ابن خمسة وعشرين عاما حتى لحظة موته الثانية والأخيرة، عندما نترك أنا وألبرتو هذا العالم. الجزء الذي لعبه رقم خمسة وعشرين في هذه المأساة كان دورا حاسما. في علم معاني الأعداد يمكن أن يكون الجمع بين رقمي اثنين وخمسة قاتلا، وعندما تذكر ألبرتو أنك بلغت الخامسة والعشرين في اليوم نفسه الذي منحتني فيه الحمل، لم يتوقف أبدا عن البحث والعمليات الحسابية بأمل رؤية النحس القدري الذي لا يمكن تجنبه وقد أبطله خطأ ما. مصادفة التواريخ والأعمار، والتي كانت مذهلة لدرجة أنها لايمكن أن تكون مجرد مصادفة، دعمت نظرية ألبرتو في فكري. ومنذ ذلك الحين فصاعدا، لم يكن من الصعب إقناعي بأن الجريمة التي كانت معرفة زوجي بعلم معاني الأعداد سببا في توضيحها، قد ارتكبت أساسا ضدك أنت. لم يكن لألبرتو الحق في استبدالك، ولا استبدالي، في عواطفه. لقد كنا غير قابلين للإحلال، وحبه لنا كان غير قابل للنقل. وأي تمرد أيا كان نوعه يمكن بشكل مباشر أن ينتهك «القانون الأعظم»، الذي أعطاه إشارة وتحذيرا، بالعلامة التي لا جدال فيها: العقم... معتقدا أن لديه الحق في تعويض شخص بآخر طالما احترم «النصيب». لجأ ألبرتو إلى الاحتيال، مع الجريمة المضافة بتعيين الشخص الذي تم حذفه بشكل جائر ـ وهو أنت ـ لمهمة زرع بذرة التعويض نفسها. وقد جعله هذا أعمق انتهاكا لحرمة المنطقة الممنوعة. ومن خلال علامة لم أعلم بها، تم إنذاره بالجريمة التي ارتكبها، وفكر في استعادتك إلى المكانة التي كنت تحتلها في حياتك سابقا. لكن هذا كان متأخرا جدا. فقد كان العوض ـ ابننا ـ على وشك أن يولد، وتمنى زوجي المسكين

والباسل ـ ضائعا في متاهة جهنمية ـ من خلال موتي أن يملأ ابننا وأنت «النصيب» الذي له الحق فيه. وأخيرا، في هذيانه بالأمل بأن كيمياء الحياة ربما يمكن خداعها بشكل ما، كان لديه أمل متوهج أن تكون أنت قد مت، حتى إن الثالوث المكون منه ومن ابننا ومني أنا ربما لا يتغير. هذه الفكرة قادت ألبرتو لهجر الفكرة الأولى التي لم أكن أقبلها فقط، بل التي ظللت أخلص لها على الرغم من جدله المقنع، وتعنيف قس الاعتراف. كانت هذه هي المرة الأولى التي لم يتمكن زوجي فيها من كسر تسلسل حججي. هذا الفشل يؤكد جدارته ومقدرته كمعلم، لأنه يبدو لي شيئا أشبه بالمعجزة إن كانت لدي القدرة على مواجهته، وشخصيتي العادية تماما على ما هي عليه. ومع القس، كان احتفاظي بمكانتي أقل صعوبة، حيث إنني منذ اكتشفت عدم إمكانية جعله يفهم ازدواجية الكون، جعلت عالمه من المعرفة منفصلا عن عالم زوجي. وعلى أي حال، كانت فكرة الثالوث هي التي قادت ألبرتو إلى اتخاذ الموقف الذي يدافع عنه اليوم. لقد بحث ليسبر طبيعة التناقض بين رقمي ثلاثة واثنين. كانت إمكانية الاندماج بين الثلاثة والواحد تبدو جلية أمامه. وفي المناسبات النادرة التي حاول فيها أن يجد مصطلحات محددة «للحقيقة السماوية»، كان يستنتج بتفاؤله المعتاد أنه يجب ألا تكون هناك أسباب لتناقضها مع «الحقيقة غير السماوية». فإذا كان رقما الثلاثة والواحد يجذب أحدهما الآخر بلا مقاومة، فإن التنافر بين رقمي الاثنين والثلاثة هو أيضا لا يمكن التحكم فيه. وعندما أكمل الدراسة النظرية الأكثر عمقا للمشكلة، أعتقد أنه وجد المفتاح لفهم قدره. فقد فسر خطأ الرقم اثنين على أنه «نصيبه» عندما نسب إلى نفسه مقدرته على الحب وتبادل الحب مع ما لا يزيد على اثنين من البشر. في الحقيقة، لم يكن لديه الحق إلا في واحد فقط، حيث إن كبرياءه ـ أو بتحديد أكبر حبه لذاته ـ قد ملأ بالفعل نصف «النصيب» منذ البداية.

ليس من حقي مناقشة هذه الفكرة الأخيرة معه، والتي لا تقدم أي منفذ. فإذا كنت أقاومه فذلك لأن دموعي تستثيرها الإنسانية الغامرة

والهشة التي تشع من ألبرتو. إن استعداده الإنساني البطولي ليس فقط لتحمل كل اللوم عن كل شيء، ولكن أيضا، لتقليص حقوقه إلى الحياة، والدفاع، والاحتجاج. إن القناعة التي وصل إليها جديرة، وحدها دون أي فكرة أخرى، في ترقية التصالح النفسي التدريجي لروحه. والآن، وقد تمت التضحية بك وبابننا، ولم يعد هناك سواه وسواي، فهو يعرف الآن أنني لم أكن أشكل تهديدا ثقيلا آخر للتوازن الكوني. وقد تبدد تمرده تقريبا، وفاصل الأمس كان استثناء لن يتكرر، وكان سببه وقع اللقاء بك، حدث ملأته احتمالات العواقب التي لا يجب أن نخاطر بحدوثها. فإذا كان الحب المتبادل بين ألبرتو وبينك يجب أن يولد ثانية، فسيبدأ كل شيء مرة أخرى. لقاء الأمس كان اللقاء الأخير. لقد بدأت توا أيام علاجي التي تستمر خمسة وعشرين يوما، وأجواس دو سان بدرو أصغر من أن نتواجد فيها ثلاثتنا. وأنا أصر على رحيلك اليوم. إنني أريد أن أوضح أن ألبرتو وأنا لا نتوقع منك إدانة أو غفرانا، فعليك أن تفهم أنه ليست لديك السلطة ولا المقدرة على الحكم. ولكي تحمينا من أي خدعة من القدر الذي قد يستغل الفرصة للإساءة إلى إنسانية ألبرتو الواهنة، فسوف أقول إنك لم تحترم خطورة الحالة، وإنك سخرت منا بصفتنا مخبولين عصبيين. ولابد أن أسرع الآن إليه، فخلال هذه السنوات القليلة الأخيرة، لم أتركه أبدا وحده وقتا طويلا كهذا. وأعرف أنه لا يوجد في العالم من يستحق هذه التضحية غير اثنين، الخطيبة المجنونة وأنت. وداعا.

كنت مذهولا بالدهشة والانفعال، حتى إنني لم ألحظ أن هيلينا قد تركتني. وعندما وجدت نفسي وحدي على المقعد، محاطا بالأقزام، جريت في الحال نحو فندقي، عابرا وسط المرجة لأكسب وقتا. كان جانب التل هناك أكثر انحدارا مما هو بالقرب من طريق السيارات، وصلت إلى مكتب الاستقبال منقطع الأنفاس حتى إنني كنت غير قادر على الكلام، وكان لابد أن ألتقط أنفاسي قبل أن أعلن أنني راحل وأريد الفاتورة. نظر موظف الاستقبال إلي في دهشة، دون أن يفهم ما كنت

أحاول قوله. واكتشفت أنني في الساعات القليلة الماضية قد فقدت عادة الحديث، وأنني أحتاج إلى التركيز لكي أستخدم الكلمات بمعناها الوظيفي المعتاد.

وبينما كنت أقود سيارتي عائدا إلى سان باولو، كانت الطرق خالية في تلك الساعة من الليل، وهكذا كان القدر المطلوب من الانتباه لقيادة السيارة لا يتدخل في سياق أفكاري. وفي الحال تخليت عن الصورة التي أحملها في رأسي لوجه هيلينا الحزين والمظهر التراجيدي للبروفيسور لأركز بدلا من ذلك على الابن الذي رزقت به وفقدته في مثل هذا الوقت القصير. الحدود الهيكلية لوجوده - ميلاده، دراساته، حبه، معركته، موته، وعذاباته - كلها مجتمعة ألقت علي فراغا ثقيلا لايمكن أن يملأه إلا ذكراه. والفكرة جعلتني أرجع إلى مفسري الدراما الآخرين عندنا. وعندما أقول «عندنا»، فأنا أعي أسلوبي «الطنان»، حيث إنني لم أكن أكثر من «كومبارس». لكنني قررت إطالة دوري، حيث إنني لم أكن أستطيع أن أسلم ذكرى ابني إلى رعاية ثلاثة من فاقدي العقل: واحدة محبوسة في سويسرا، والاثنان الآخران يستكملان دورة جنونهما في هدوء في سان باولو. قررت أن أسأل ابني أن ينقذني ويثريني، وهكذا أنا مستعد لفعل أي شيء، حتى لو كان رؤية هيلينا والبروفيسور مرة أخرى. وحيث إن هذا غير ممكن، فأنا أريد أن أستفيد لأقصى ما يمكن من الأسابيع التي سيقضيانها في أجواس دو سان بدرو.

عندما وصلت إلى البيت، قضيت باقي الليلة أفكر في الحالة وأكتب هذا السرد، الذي سيكون دفاعي إذا ما قبض علي عند اقتحامي بيتنا في باكايمبو. أنا ذاهب إلى هناك الآن، هذا الصباح، يوم الخامس والعشرين من الشهر، والذي فيه أكمل عامي الخمسين، وأحتفل لأول مرة بذكرى تاريخ الحمل بابني وموته. وإذا لم يحدث شيء غير متوقع، لن أعود من دون صورة له على الأقل، وبعض الكتب التي أحتاج لدراستها. هذا التراكم لذكرى أعياد الميلاد، اليوم من الشهر الذي لحظته الآن

فقط، والذي إذا ضربناه في اثنين يكون الناتج عدد السنوات التي عشتها، كل هذا يتجه إلى زيادة الاهتياج الذي سيطر على أعمق أعماق كينونتي، ولكنه لن يعوق رحيلي إلى باكايمبو في خلال دقيقتين اثنتين، أو ثلاثة على الأكثر، ولكي أصل هناك من ألتو دوس بينييروس سوف يستغرق الأمر خمسا وعشرين دقيقة. أما احتمال أن أتعرف على ـ أو تتعرف علي في النهاية ـ صور هيلينا المقدسة، فهو أمر لا يمثل أهمية كبيرة بالنسبة لي.

وفي نهاية هذه الوثيقة أوقع باسمي الكامل بدلا من الحرف الأول «ب» الذي اعتدت وضعه قبل لقبي. إن اسمي في الحقيقة هو «بوليدورو»، مجموعة متألقة من خمسة حروف ساكنة وثلاثة حروف متحركة * (والعلاقة بينها تغيرها الطريقة الجديدة في الكتابة)، اسم مهرج أعطى لي لتكريم أحد الأجداد كان مشهورا، اسم كان شؤما على طموحاتي في الانسجام والجمال في عالم قاس واعتباطي، كنت أجهل منطقه الخفي إلى اليوم رغم الفرصة النادرة التي توفرت لي: معرفة البروفيسور العظيم.

ترجمة: سحر توفيق

---

* في الأصل البرتغالي- المترجمة.

أضأل امرأة في العالم

كلاريس ليسبكتور

كلاريس ليسبكتور Clarice Lispector (١٩٢٥ ـ ١٩٧٧)

- ابنة أسرة من يهود أوكرانيا هاجرت إلى البرازيل وهي في الشهر الثاني من عمرها.
- في العقد التالي لموتها تم الاعتراف بها باعتبارها أعظم كتاب القصة القصيرة المحدثين في اللغة البرتغالية.
- عاشت أسرتها في فقر في شمال شرق البرازيل ثم انتقلت في ١٩٣٧ إلى ريو دي جانيرو، حيث قررت كلاريس، التي كانت في الثانية عشرة من عمرها، أن تصير روائية.
- في الأربعينات التحقت بمدرسة القانون، وعملت محررة في وكالة صحفية، وفيما بعد مراسلة لصحيفة يومية في ريو.
- تزوجت في ١٩٤٣ من طالب قانون زميل لها وبعد عام حصلت على شهادتها ونشرت أول رواية لها (١٩٤٤).
- طوال الخمس عشرة سنة التالية، عاشت وكتبت في الخارج حيث عمل زوجها دبلوماسيا في إيطاليا وسويسرا وبريطانيا والولايات المتحدة. وعندما انتهى الزواج في ١٩٥٩، عادت كلاريس بطفليها إلى ريو.
- في السنة التالية، نشرت مجموعة فريدة من القصص القصيرة بعنوان «روابط أسرية» (١٩٦٠)، والقصة المترجمة هنا مأخوذة منها.
- ظهرت روايتها «التفاح في الظلام» في ١٩٦١، وجلبت لها ماتستحقه من اعتراف باعتبارها «كاتبة ذات دقة أسلوبية استثنائية وأهمية فلسفية هائلة».
- لها أيضا مجموعة قصصية بعنوان «الفرقة الأجنبية» (١٩٦٤)، واثنتان من أجمل رواياتها «عذابات ج. هـ.» (١٩٦٤) و«ساعة النجمة» (١٩٧٧)، ولها عمل نشر بعد موتها: «تيار الحياة» (١٩٧٨).

أضأل امرأة في العالم

كلاريس ليسبكتور

في أعماق إفريقيا الاستوائية، عثر الرحالة الفرنسي مارسيل بريتر، الصياد والرجل المحنك، بمحض المصادفة على قبيلة من الأقزام ذوي الحجم الضئيل إلى حد مدهش، ولهذا ازداد دهشة عندما أخبروه أن هناك شعباً أضأل حتى من ذلك، بعد اجتياز غابات ومسافات. وعلى هذا اندفع متوغلاً أعمق فأعمق.

وفي شرقي الكونغو، بالقرب من بحيرة كيفو، اكتشف بالفعل أضأل الأقزام في العالم. ومثل علبة داخل علبة داخل علبة، وربما امتثالاً للحاجة التي تشعر بها الطبيعة أحياناً إلى التفوق على نفسها كان هناك بين أضأل الأقزام في العالم أضأل أضأل الأقزام في العالم.

وهناك وسط البعوض والأشجار اللامبالية، وسط أعشاب المروج الأكثر خصوبة وهدهدة، وجد مارسيل بريتر نفسه وجهاً لوجه أمام امرأة طولها سبع عشرة بوصة وثلاثة أرباع البوصة، ناضجة، سوداء، صامتة- «سوداء مثل قرد»، كما قال للصحافة- كانت تعيش فوق قمة شجرة مع قرينها الضئيل. ووسط أبخرة الأدغال الكثيفة الفاترة، والتي تنضج الفاكهة مبكراً جداً، وتكسبها حلاوة لا تطاق تقريباً، كانت حبلى.

هكذا وقفت هناك، أضأل امرأة في العالم. وبدا للحظة، في قيظ الحر، وكأن الفرنسي بلغ بغيته الأخيرة فجأة وبطريقة غير متوقعة. وربما فقط لأنه لم يكن مجنوناً، فإن روحه لم يصبها الوهن ولا هي تجاوزت حدودها. وأحس بحاجة مباشرة إلى النظام، وإلى تسمية ماهو قائم فسماها الزهرة الصغيرة. ولكي يكون بوسعه تصنيفها بين الوقائع الملموسة، بدأ فوراً في جمع الحقائق

عنها.

إن جنسها سينقرض في القريب العاجل. ذلك أنه لم يتبق سوى نماذج قليلة لهذا النوع الذي كان من شأنه أن يتضاعف لولا الأخطار الخبيثة التي تحيط بإفريقيا. فإلى جانب المرض، وأبخرة الماء المهلكة، ونقص الطعام، والحيوانات المفترسة التي تطوف في كل مكان، يتمثل الخطر الكبير على قبيلة «الليكوالا» في قبيلة «الباهوندا» المتوحشين، وهو خطر يحيط بهم في الهواء الساكن، مثل فجر المعركة. فالباهوندا يصطادونهم بواسطة شباك كالقرود ويأكلونهم. هكذا يوقعونهم في الشباك ويأكلونهم. وانتهى الأمر بهذا الجنس البالغ الضآلة، المتقهقر دوما، إلى الاختباء في قلب إفريقيا، حيث اكتشفهم الرحالة المحظوظ. ومن أجل الدفاع الاستراتيجي، يعيشون فوق أطول الأشجار. والنساء يهبطن لطحن وخبز الغلال وجمع الخضروات، والرجال للصيد. وعندما يولد طفل يتركونه حراً طليقاً في الحال تقريباً. وصحيح أن الطفل لا يمكنه غالباً، بسبب الحيوانات المفترسة، أن يستمتع بهذه الحرية طويلاً، لكنه بالتالي لم يعد هناك عمل شاق من أجل هذه الحياة القصيرة. وحتى اللغة التي يتعلمها الطفل مختصرة وبسيطة، الأساسيات لا غير. ذلك أن الليكوالا يستخدمون أسماء قليلة، ويسمون الأشياء بالإشارات وأصوات الحيوان. أما بالنسبة للأمور الدينية فلديهم طبلة. وعندما يرقصون على صوت الطبلة، يقوم ذكر ضئيل الحجم بالحراسة ضد الباهوندا الذين يأتون من حيث لا يعلم أحد.

كانت تلك - إذن - الطريقة التي اكتشف بها الرحالة، واقفاً على قدميه، أضأل الكائنات البشرية الموجودة. وكان قلبه يدق، لأنه ليست هناك زمردة في العالم بمثل هذه الندرة. وتعاليم حكماء الهند ليست بمثل هذه الندرة. وأغنى رجل في العالم لم تقع عيناه على مثل هذه الرقة الغريبة. حقاً كانت هناك امرأة ما كان بوسع

شراهة أروع حلم أن تتصورها قط. وكانت تلك هي اللحظة التي قال فيها الرحالة باستحياء، وبرقة شعور، ما كان بوسع زوجته قط أن تتصور أنه قادر عليها: «أنت الزهرة الصغيرة».

في تلك اللحظة، حكّت الزهرة الصغيرة جسمها حيث لا يحك أحد. الرحالة- وكأنه كان يتلقى أسمى جائزة للعفة، يجرؤ شخص صاحب مثل عليا أن يطمح إليها- بكل تجارب حياته، نظر إلى الجهة الأخرى.

نشرت صورة فوتوغرافية للزهرة الصغيرة في الملاحق الملونة لجرائد الأحد، بالحجم الطبيعي. كانت ملفوفة في قماش، وكان بطنها كبيراً جداً بالفعل. الأنف الأفطس، الوجه الأسود، القدمان العرجاوان. كانت أشبه بكلب.

في ذلك الأحد، في إحدى الشقق، شاهدت امرأة صورة الزهرة الصغيرة في الجريدة فلم تشأ أن تنظر إليها مرة أخرى لأنها «تصيبها بالقشعريرة».

في شقة أخرى، أحست سيدة بحنان منحرف نحو أضأل نساءإفريقيا إلى حد أنه- حيث إن درهم وقاية خير من قنطار علاج- كان لا يمكن أبداً ترك الزهرة الصغيرة وحدها لحنان تلك السيدة. فمن يدري إلى أي حب شنيع يمكن أن يقود الحنان؟ ظلت المرأة متكدرة طول اليوم، وكأنها تقريباً كانت تفتقد شيئاً ما. إلى جانب ذلك، كان الوقت ربيعاً، وكان في الجو تسامح خطر.

في بيت آخر، شاهدت الصورة بنت صغيرة في الخامسة، وسمعت التعليقات، فاندهشت للغاية. ففي بيت مملوء بالكبار، كانت هذه الفتاة الصغيرة أضأل كائن بشري إلى ذلك الحين. وإذا كان هذا مصدر جميع الملاطفات فقد كان أيضاً مصدر أول خوف من طغيان الحب. إن وجود الزهرة الصغيرة جعل البنت الصغيرة تحس- بانزعاج عميق لن ينقلب إلا بعد سنين وسنين، ولأسباب

مختلفة للغاية، إلى فكر- في بداية نضجها العقلي، بأن «الأسى لا نهاية له».

في بيت غيره، في مستهل الربيع، أحست فتاة توشك على الزواج بفيض من الشفقة: «ماما، انظري إلى صورتها الضئيلة، يا لها من مسكينة ضئيلة! تصوري فقط كم هي حزينة!»

«لكن»، قالت الأم، قاسية ومحبطة ومزهوة: «إنه حزن حيوان. إنه ليس حزناً بشريا».

«أوه، ماما!»، قالت البنت، بخيبة أمل.

في بيت غيره، كانت لدى صبي صغير ذكي فكرة ذكية: «مامي، ليتني كنت أستطيع أن أضع هذه المرأة الضئيلة من إفريقيا في فراش بول الصغير وهو نائم، ألم يرتعب عندما يستيقظ؟ ألم يصرخ عندما يراها جالسة على فراشه؟ وعندئذ كنا سنلعب بها! كانت ستصبح لعبتنا!»

كانت أمه تصفف شعرها أمام مرآة الحمام في تلك اللحظة، وتذكرت ما قاله لها أحد الطباخين عن الحياة في ملجأ يتيمات. لم يكن لدى اليتيمات أي لعب، وبأمومة مفزعة كانت تنبض بالفعل في قلوبهن، أخفت البنات الصغيرات موت طفلة عن الراهبة. احتفظن بالجثة في دولاب وعندما تخرج الراهبة كن يلعبن بالطفلة الميتة، فيقمن بتحميمها ويقدمن لها أشياء لتأكلها، ولا يعاقبنها إلا لتكون قادرة على التقبيل، وكن يواسينها. في الحمام، تذكرت الأم هذا، وأسقطت يديها الحانيتين المليئتين بالتجاعيد. كانت تفكر في الحاجة القاسية إلى الحب، وفكرت في رغبتنا في السعادة، وفكرت في كم نحتاج احتياجاً وحشياً إلى اللعب. كم من مرات سنقتل في سبيل الحب. عندئذ نظرت إلى طفلها الذكي، وكأنها تنظر إلى غريب خطر. وكان بداخلها فزع من روحها ـ أكثر من جسدها ـ التي أوجدت ذلك الكائن البارع في الحياة والسعادة.

نظرت إليه باهتمام وكبرياء، ذلك الطفل الذي فقد اثنتين من أسنانه الأمامية، حيث يتواصل النمو، وتتخلع الأسنان لتفسح المكان لتلك التي يمكنها أن تعض أفضل. «سأذهب لشراء بذلة جديدة له»، قررت، ناظرة إليه، مستغرقة في التفكير. بعناد، كانت تزين ابنها المخلع الأسنان بالملابس الفاخرة، بعناد، كانت تريده نظيفاً جداً، وكأنما كان بوسع نظافته أن تؤكد سطحية ملطفة، عاملة بعناد على الوصول بالجانب المهذب للجمال إلى حد الكمال. منتزعة بعناد نفسها وابنها بعيداً عن شيء ما «أسود مثل قرد». ثم، ناظرة إلى مرآة الحمام، ابتسمت الأم ابتسامة مهذبة وودودة عن عمد، محتفظة بمسافة من حاجز آلاف السنين الذي لايمكن تخطيه بين الخطوط التجريدية لملامحها والوجه الفج للزهرة الصغيرة. لكنها كانت تعرف، بحكم سنين من العادة، أن هذا الأحد سيكون أحداً ينبغي أن تخفي فيه عن نفسها القلق والأحلام وآلاف السنين المفقودة.

في بيت غيره، انهمكوا في المهمة الساحرة، مهمة أن يقيسوا على الحائط طول الزهرة الصغيرة الذي يبلغ سبع عشرة بوصة وثلاثة أرباع البوصة. وكانت مفاجأة سارة حقاً. كانت أضأل حتى مما كان بوسع خيال أن يصوره. وفي قلب كل فرد من أفراد الأسرة تولدت الرغبة، جارفة الحنين، في أن يمتلك ذلك الشيء الضئيل والذي لا يقهر في حد ذاته، ذلك الشيء الضئيل الذي تفادى أن يؤكل، ذلك النبع الدائم للمحبة. لقد رغبت الروح الأسرية الشرهة في أن تكرس نفسها. وإذا شئنا الحقيقة، من ذا الذي لم يرغب في أن يمتلك كائناً بشرياً لنفسه فقط؟ الأمر الذي لن يكون ملائماً دائماً، هذا صحيح. فهناك أوقات لا يريد فيها المرء أن تكون لديه مشاعر.

«أراهن على أنها لو كانت تعيش هنا لانتهى الأمر إلى قتال»، قال الأب، جالساً في الكرسي المريح وهو يقلب صفحة الجريدة

بعزم وتصميم. «في هذا البيت ينتهي كل شيء إلى قتال»

«أوه، أنت يا جوزيه متشائم دوماً»، قالت الأم.

«لكن، يا ماما، هل فكرت في الحجم الذي سيكون لطفلها؟»، قالت كبرى البنات الصغيرات، وهي في الثالثة عشرة، متلهفة.

تحرك الأب منزعجا وراء جريدته.

«لابد أنه سيكون أضأل طفل أسود في العالم»، أجابت الأم، وهي تذوب من فرط البهجة. «تصوروها تخدم على مائدتنا، ببطنها الضئيل الضخم!»

«كفى»، زمجر الأب.

«لكن عليك أن تسلم بأنها (تحفة) نادرة. إنك أنت المتبلد الشعور»، قالت الأم متضايقة بصورة غير متوقعة.

والتحفة النادرة نفسها؟

في الوقت نفسه، في إفريقيا، كانت التحفة النادرة نفسها تحمل في قلبها- ومن يدري ما إذا كان قلبها أسود، أيضاً، حيث إنه حالما تكون الطبيعة أخطأت لا يعود بالإمكان أن نثق بها- شيئاً أكثر ندرة، وكأنه سرها: أضأل طفل ممكن. بطريقة منهجية، درس الرحالة ذلك البطن الضئيل لأضأل كائن بشري كامل النمو. وهذه هي اللحظة التي أحس فيها الرحالة، لأول مرة منذ عرفها، بدلاً من الإحساس بالفضول أو الغبطة أو الانتصار أو الحماس العلمي، أحس بالاشمئزاز:

كانت أضأل امرأة في العالم تضحك.

كانت تضحك، بدفء، بدفء. كانت الزهرة الصغيرة تستمتع بالحياة. كانت التحفة النادرة نفسها تذوق الإحساس الذي لايوصف المتمثل في أنها لم تؤكل بعد. فكونها لم تؤكل بعد شيئاً

من شأنه في أي وقت آخر أن يعطيها الحافز الرشيق للقفز من غصن إلى غصن. لكنها، في لحظة الهدوء هذه، وسط الأعشاب الكثيفة لشرقي الكونغو، لم تكن تضع هذا الحافز موضع التنفيذ. كان مركزاً تماماً في ضآلة التحفة النادرة ذاتها. لهذا كانت تضحك. كانت ضحكة لا يضحكها سوى شخص لا يتكلم. كانت ضحكة لم يكن بوسع الرحالة، المرتبك، أن يصنفها. وظلت تستمتع بضحكتها الناعمة، هي التي لم تفترس بعد. إن كون المرء لم يفترس بعد هو أكمل إحساس. إن كون المرء لم يفترس بعد هو الغاية الخفية لحياة بكاملها. وما دامت لم تكن تؤكل في تلك اللحظة، كانت ضحكتها الهمجية رقيقة رقة البهجة. وارتبك الرحالة.

ومن ناحية أخرى، إذا كانت التحفة النادرة ذاتها تضحك فإنما كان ذلك لأنه، بداخل ضآلتها، بدأ يتحرك ظلام دامس.

أحست التحفة النادرة ذاتها بدفء في قلبها ربما أمكن أن يسمى الحب. لقد أحبت ذلك الرحالة ذا الوجه الشاحب، ولو كانت تستطيع أن تتكلم، وأخبرته بحبها، لانتفخ غروراً. ذلك الغرور الذي كان سيتهاوى عندما تضيف أنها أحبت أيضاً خاتم الرحالة حباً جما، وكذلك حذاء الرحالة «البوت». وعندما يحدث هذا التهاوي، لم تكن الزهرة الصغيرة تفهم لماذا، لأن حبها للرحالة - بل ربما أمكن القول «حبها العميق» - لم يكن ينتقص منه على الإطلاق واقع أنها أحبت أيضاً حذاءه. وهناك سوء تفاهم قديم فيما يتعلق بكلمة «حب»، وإذا كان كثير من الأطفال ولدوا من سوء التفاهم هذا فإن كثيرين آخرين فقدوا الفرصة الوحيدة لأن يولدوا، فقط بسبب الحساسية التي تقتضي أن أكون أنا! أنا! المحبوب، وليس نقودي. غير أنه في رطوبة الغابة لا توجد هذه التدقيقات القاسية. فالحب هو ألا يؤكل المرء، الحب هو الحصول على حذاء جيد، الحب هو الميل إلى اللون الغريب لرجل ليس أسود، هو

الضحك حباً لخاتم لامع. ولمعت عينا الزهرة الصغيرة حبا، وضحكت بدفء، ضئيلة، حبلى، دافئة.

حاول الرحالة أن يرد بابتسامة، دون أن يدري بالضبط لأي هاوية استجابت ابتسامته، ثم ارتبك كما لا يمكن إلا لرجل عظيم جداً أن يرتبك. وتظاهر بأنه يعدل من وضع قبعة الرحالة التي يلبسها، واحمر وجهه خجلا، بمنتهى الاحتشام، وانقلب إلى لون فاتن، لون وردي ضارب إلى الخضرة، كلون الجير عند شروق الشمس. ولاشك في أنه كان متكدراً.

ومن الجائز أن تعديل وضع الخوذة الرمزية ساعد الرحالة على أن يسيطر على نفسه، وعلى أن يسترد بصرامة نظام عمله، وعلى أن يواصل تدوين ملاحظاته. وكان قد تعلم كيف يفهم بعض الكلمات القليلة الملفوظة التي تستخدمها القبيلة، وكيف يفسر إشاراتهم. وكان يمكنه أن يوجه أسئلة.

أجابت الزهرة الصغيرة: «نعم» إنه لطيف جداً أن تملك شجرة خاصة بها تعيش فوقها، لأنه- لم تقل هذا، غير أن عينيها أظلمتا بحيث قالتاه- من الخير أن نملك، من الخير أن نملك، من الخير أن نملك. وغمز الرحالة بعينيه مراراً.

مر مارسيل بريتر بلحظات صعبة مع نفسه. غير أنه ظل مشغولا على أي حال بتدوين ملاحظاته. وكان على أولئك الذين لم يدونوا ملاحظات أن يتدبروا أمورهم بأفضل ما كان بوسعهم.

«حسنا»، أعلنت فجأة سيدة عجوز، وهي تطوي الجريدة بإصرار، «حسنا، كما أقول دائما: الله وحده يعلم ماذا يفعل».

ترجمة: خليل كلفت

قلوب محطة

روبن فونسيكا

روبن فونسيكا Rubem Fonseca (١٩٢٥-   )

- ولد في ميناس جيرايس، وتعلم في ريو دي جانيرو التي انتقلت إليها أسرته وهو في السابعة من عمره، وقد تخرج في مدرسة القانون ودرس الإدارة العامة في الولايات المتحدة.
- عمل في شرطة الولاية، وشركة الكهرباء والإنارة، كما عمل في العديد من الصحف قبل أن يصير كاتباً متفرغاً. ويبدو أن هذه التجارب هي التي شكلت الدعامات العنيفة، والفظة أحياناً، والصريحة جنسياً عادة، لقصصه المدينية المعقدة.
- نشر أول مجموعة من قصصه في ١٩٦٣، وفي ١٩٧٦ نشر مجموعته «عام جديد سعيد» التي أخذت منها القصة المترجمة هنا. ونشر مجموعة تالية في ١٩٧٩ . ونشر روايتين رائعتين: «الفن الرفيع» في ١٩٨٣، ورواية كوميدية: «بوفو وسبالانزاني» في ١٩٨٥. وكان عمله التالي «عواطف عظيمة وأفكار معيبة» في ١٩٨٨ الكتاب الأفضل مبيعاً بصورة غير مسبوقة في البرازيل.

قلوب محطمة

روبن فونسيكا

كنت أعمل مراسل شرطة لجريدة شعبية. وكان قد مر وقت طويل منذ شهدت المدينة جريمة مثيرة حول سيدة مجتمع شابة، جميلة، ثرية، موت، اختفاء، فساد، أكاذيب، جنس، طموح، نقود، عنف، فضيحة.

قال المحرر: «مثل هذه الجرائم لا تحدث حتى في روما، أو باريس، أو نيويورك. نحن في زمن سيئ. لكن كل شيء سيتغير سريعاً. إنها دائرة تدور. فقد تتفجر إحدى هذه الفضائح حيث لاتتوقع، فتعطيك مادة طوال سنة. كل شيء متعفن. تمام جداً، كل ما علينا هو الانتظار».

وقبل أن تتفجر الفضيحة المنتظرة، فصلوني.

«كل ما نجده رجال أعمال صغار يقتلون شركاءهم، لصوص تافهون يقتلون رجال أعمال صغار، رجال شرطة يقتلون لصوصاً تافهين. بطاطس صغيرة»، هكذا قلت لأزوالدو بيسانيا، رئيس تحرير جريدة «المرأة» وصاحبها.

قال بيسانيا: «هناك أيضا الالتهاب السحائي، عدوى الشيستوسوما، مرض شاجاز»

قلت: «هذا خارج تخصصي».

سأل بيسانيا: «هل قرأت جريدة (المرأة)؟»

اعترفت بأني لم أفعل، فأنا أفضل قراءة الكتب.

أخذ بيسانيا صندوقاً من السيجار من فوق مكتبه، وقدم لي واحداً. أشعلنا السيجارين. وسرعان ما أصبح الجو خانقاً. كان السيجار من نوع رخيص، وكنا في الصيف، والنوافذ مغلقة، وتكييف الهواء لا يعمل جيداً.

«المرأة» ليست واحدة من تلك الإصدارات الملونة للسيدات البورجوازيات عن الريجيم. إنها مخصصة لامرأة الطبقة الدنيا، التي تأكل الأرز والفول، وإذا أصبحت الواحدة منهن بدينة، فهذا من سوء الحظ. الق نظرة عليها»

قذف لي بيسانيا نسخة من الجريدة. في حجم التابلويد، بعناوين زرقاء، وبعض الصور المهزوزة. قصة حب مصورة فوتوغرافياً، الأبراج الفلكية، لقاءات مع ممثلي التليفزيون، ونماذج للحياكة.

«هل تظن أنه يمكنك تحرير باب (من امرأة إلى امرأة)، عمود النصائح اليومي؟ (الجدع) الذي كان يكتبه ترك الجريدة»

كان باب «من امرأة إلى امرأة» يحمل اسم محررته إليزا جابرييللا. عزيزتي إليزا جابرييللا، يعود زوجي إلى البيت كل ليلة مخموراً، و...

قلت: «أظن أنني أستطيع».

«عظيم، ابدأ اليوم. ما الاسم الذي تريد استخدامه؟»

فكرت قليلاً.

«ناثانابيل ليسا»

«ناثانابيل ليسا؟» قال بيسانيا ذلك في دهشة وقرف، وكأنني قلت كلمة قبيحة أو أهنت أمه.

«ما عيبه؟ إنه اسم ككل الأسماء.. مع كل الإجلال والثناء»

نفخ بيسانيا سيجاره بعصبية.

«أولاً، ليس ككل الأسماء. ثانياً، ليس اسما من أسماء الطبقة الدنيا. إننا هنا لا نستخدم سوى أسماء تسعد الطبقة الدنيا، أسماء جميلة. ثالثا، الجريدة تأوي فقط من أريد أنا، وأنا لا أعرف أي شخص باسم ناثانابيل ليسا. وأخيراً، «كان توتر بيسانيا يزداد تدريجياً، وكأنه يحصل على متعة خاصة من هذا التوتر، أكمل: «لا أحد هنا، ولا حتى أنا،

يستخدم أسماء أقلام ذكورية. اسمي ماريا دي لوردس!»

ألقيت نظرة أخرى على الجريدة، بما في ذلك أسماء الكتاب. لم أجد سوى أسماء نساء.

«ألا تظن أن الاسم الذكوري يجعل الإجابات أكثر احتراماً؟ الأب، الزوج، رجل الدين، الرئيس. ليس لهن إلا رجال يقولون لهن ما يجب فعله. ناثانابيل ليسا سوف يكون أكثر رواجاً من إليزا جابرييللا».

«هذا بالضبط ما لا أريده. فهنا يحس كل واحد أنه رئيس نفسه، إنهن يثقن بنا، وكأننا جميعا أصدقاء. إنني في هذه المهنة منذ خمس وعشرين سنة. فلا تضع لي نظريات غير مجربة. (المرأة) جريدة تقوم بتثوير الصحافة البرازيلية، إنها نوع مختلف من الجرائد لاينشر الأخبار البائتة من قنوات التليفزيون»

وكان متوترا لأنني لم أسأل ماذا تنوي جريدة «المرأة» بالضبط أن تفعل. سيخبرني عاجلا أو آجلا. لم أكن أريد سوى الوظيفة.

«ابن عمي، ماشادو فيجيريدو، الذي لديه خمسة وعشرون عاما من الخبرة في بنك البرازيل، يحب أن يقول إنه دائما يرحب بالنظريات غير المجربة». كنت أعرف أن جريدة «المرأة» مدينة للبنك. ويوجد على مكتب بيسانيا رسالة توصية من ابن عمي.

شحب وجه بيسانيا، عندما سمع اسم ابن عمي. وعض على سيجاره ليتحكم في نفسه، ثم أغلق فمه، وكأنه على وشك أن يصمر، وارتعشت شفتاه الغليظتان كأن على لسانه ذرة فلفل. فتح فمه على اتساعه ونقر على أسنانه التي لونها النيكوتين بظفر سبابته بينما كان ينظر إلي بطريقة لابد أنه ظن أنها مشحونة بمغزى خاص.

«يمكنني أن أضيف (د.) إلى اسمي، د. ناثانابيل ليسا»

«اللعنة! وهو كذلك، وهو كذلك» نخر بيسانيا من بين أسنانه، «ابدأ اليوم».

كانت تلك هي الطريقة التي أصبحت بها عضوا في فريق جريدة «المرأة».

كان مكتبي بالقرب من مكتب ساندرا مارينا*، الذي كان يحرر باب الأبراج الفلكية. وكان ساندرا معروفا أيضا باسم مارلين كاتيا، فيما يتعلق باللقاءات الصحفية. وهو شخص شاحب اللون ذو شارب طويل خفيف، وكان يعرف أيضا باسم جوان ألبر جاريا دوفال. ولم يكن قد مضى وقت طويل على تخرجه من مدرسة الاتصالات، وكان يشكو دائما قائلا: «لماذا لم أدرس طب الأسنان، لماذا؟».

سألته ما إذا كان قد جاء أحد برسائل القراء إلى مكتبي. فطلب مني أن أتكلم مع جاكلين في المكتب. كان جاكلين رجلا ضخما أسود بأسنان ناصعة البياض.

«ليس حسنا أن يكون المرء هو الوحيد الذي ليس له اسم امرأة هنا، سيظنون أنني شبح. رسائل؟ لا توجد أي رسائل. هل تظن أن نساء الطبقات الدنيا يكتبن رسائل؟ كل هذه الرسائل فبركتها إليزا»

«عزيزي د. ناثانابيل ليسا. حصلت على منحة دراسية لابنتي ذات العشر سنوات في مدرسة رائعة تقع بالقرب منا. كل زميلاتها يذهبن إلى مصفف الشعر مرة واحدة على الأقل في الأسبوع. وليس لدينا مايكفي لذلك من المال، زوجي يقود حافلة في خط جاكاري كاجو، لكنه يقول إنه سيعمل وقتا إضافيا ليرسل تانيا ساندرا، ابنتنا الصغيرة، إلى مصفف الشعر. ألا تظن أن أطفالنا يستحقون كل تضحية؟ الأم المحبة: فيا كنيدي»

الرد: اغسلي رأس ابنتك الصغيرة بصابون جوز الهند ثم لفيه باسطوانات ورقية. وهذا هو ما يفعله مصفف الشعر. وعلى أي حال

* يستخدم الكاتب الأسماء المؤنثة للرجال كما هو الواقع فيمن يعملون بهذه الجريدة، ولهذا لجأ إلى استخدام المذكر (الضمائر، الإسناد،... إلخ) رغم الاسم المؤنث لإظهار المفارقة، وقد اتبعنا في ترجمته الأسلوب نفسه. المترجمة.

فإن ابنتك لم تولد لتكون دمية. ولا ابنة أي أحد آخر ولدت لتكون كذلك. وخذي نقود العمل الإضافي واشتري بها شيئاً أكثر فائدة. طعاماً مثلا.

عزيزي د. ناثانابيل ليسا، أنا قصيرة...، وممتلئة الجسم، وخجولة. عندما أخرج إلى السوق، أو البقالة، أو سوق الخضر، يسرقونني دائما. يغشونني في الوزن، يأكلون علي (الفكة)، والبقول أجدها مسوسة، والنشا تالف، مثل هذه الأشياء. كل هذا كان يضايقني كثيراً، لكني الآن مستسلمة. فالله يراقبهم، وسيدفعون يوم الحساب. الخادمة المستسلمة: بينيا».

الرد: الرب لا يعين من لا يعين نفسه. يجب أن تنتبهي لنفسك. وأقترح أن تصرخي، أن تصيحي، أن تعملي فضيحة. أليس لك قريب يعمل في الشرطة؟ يمكن أن يفي بالغرض لص أيضا. تحركي يا «بطة».

«عزيزي د. ناثانابيل ليسا، عمري خمسة وعشرون عاما، ناسخة على الآلة الكاتبة، وعذراء. قابلت هذا الفتى الذي يقول إنه يحبني حقاً. وهو يعمل في وزارة النقل، ويقول إنه يريد أن يتزوجني، لكنه يُريد أن نجرب أولا، فما رأيك؟ العذراء الملتاعة: بارادا ده لوكاس»

الرد: انظري أيتها العذراء الملتاعة، اسألي الفتى ماذا ينوي أن يفعل إذا لم تعجبه التجربة. إذا قال إنه سوف يلقيك في سلة المهملات، فأعطيه ما يريد، لأنه رجل صادق. وأنت لست فاكهة برية ولا تسبيكة خضار لكي يتم اختبارك. لكن ليس هناك الكثير ممن يتصفون بالصدق اليوم، وهذا يستحق التجربة. حافظي علي إيمانك، وانطلقي إلى الأمام بكل سرعة.

ذهبت إلى الغداء.

عندما عدت، أرسل بيسانيا يطلبني. كان يمسك بمسودة موضوعي في يده.

قال: «هناك ما لا يعجبني هنا»

سألته: «ما هو؟»

«آه، يا إلهي الطيب. تلك الفكرة التي لدى الناس عن الطبقة الدنيا»، هتف بيسانيا بهذه الكلمات وهو يهز رأسه بأسى، بينما كان ينظر إلى السقف ويزم شفتيه. وأكمل: «نساء الطبقة العليا هن اللاتي يروق لهن أن يعاملن باللعنات والركلات. تذكر اللورد الإنجليزي الذي قال إن نجاحه مع النساء يرجع إلى أنه يعامل السيدات كما لو كن بغايا، والبغايا كما لو كن سيدات»

«حسنا، فكيف أتعامل مع قارئاتنا؟»

«لا تدخل في جدل معي. لا أريدك أن تعاملهن كبغايا. انس اللورد الإنجليزي. ضع بعضا من السعادة، بعضا من الأمل والهدوء والطمأنينة في الرسائل، هذا كل ما أريد»

«عزيزي د. ناثانييل ليسا، توفى زوجي وترك لي معاشا صغيرا جدا، لكن ما يعذبني هو أنني وحيدة في سن الخمسين. ولأنني فقيرة، قبيحة، عجوزة، وقد أظل على قيد الحياة لمدة قد تطول، أخشى ما يخبئه لي القدر. الوحيدة في سانتا كروز»

الرد: انقشي هذا في قلبك، يا وحيدة في سانتا كروز: لا المال، ولاالجمال، ولا الشباب، ولا السكنى في الأحياء الراقية تجلب السعادة. كم من الأغنياء ذوي الجمال يقتلون أنفسهم، أو يفقدون أنفسهم في أهوال الرذيلة؟ السعادة تكمن داخلنا، في قلوبنا. فإذا كنا منصفين وطيبين فسوف نجد السعادة. كوني طيبة، كوني منصفة، أحبي جارك كما تحبين نفسك، ابتسمي للصراف عندما تذهبين لتقبضي معاشه.

في اليوم التالي طلبني بيسانيا وسألني ما إذا كان يمكنني أيضا أن أكتب سيناريو قصة الحب المصورة: «إننا ننتج قصصنا، فهي ليست مجرد ترجمات عن الإيطالية. اختر اسما».

اخترت اسم كلاريس سيمون.

جاء مصور قصص الحب ليتحدث معي.

قال: «اسمي مونيكا توتسى، لكن يمكنك أن تدعوني أجنالدو. هل أعددت الرضعة؟»

كانت «الرضعة» هي قصة الحب. شرحت له أنني أخذت التكليف بهذه المهمة توا من بيسانيا، وسأحتاج إلى يومين على الأقل لأكتبها.

«يومان؟ ها ها» قهقه، مصطنعا صوتا غليظا لكلب أليف ضخم ينبح لسيده.

وسألته: «وما المضحك إلى هذا الحد؟»

«نورما فيرجينيا كان يكتب القصة في ربع ساعة. كانت لديه صيغة جاهزة»

«أنا أيضا عندي صيغة. خذ لك تمشية وارجع بعد ربع ساعة، ستكون قصتك جاهزة»

ماذا يظنني هذا المصور الأبله؟ إن مجرد حقيقة أنني كنت مراسلا للشرطة لا يعني أنني غبي. إذا كان نورما فرجينيا أو أيا كان اسمه، قد كتب قصة في ربع ساعة، فأنا أيضا أستطيع ذلك. وعلى الأقل، فقد قرأت التراجيديات الإغريقية وأعمال إبسن وأونيل وبيكيت وتشيكوف وشيكسبير، وأفضل أربعمئة مسرحية تليفزيونية. وكل ما كان علي أن أفعله هو أن أقترض فكرة من هنا وفكرة من هناك، وهذا كل شيء.

فتى من أسرة ثرية خطفه الغجر، واعتبروه في عداد الموتى. يكبر الطفل معتقدا أنه غجري حقا. وذات يوم يلتقي بفتاة غنية جدا، ويقعان في الحب. وهي تعيش في قصر رائع ولديها سيارات عدة. بينما يعيش الولد الغجري في عربة متحركة. والعائلتان لا توافقان على زواجهما. وتثور خلافات. المليونيرات يأمرن الشرطة بالقبض على الغجر وأحد الغجر تقتله الشرطة. يغتال الغجر ابن عم الفتاة الثري. لكن حب الشابين أعظم من كل هذه الأحداث المتعاقبة. ويقرران الهرب، ومقاطعة أهليهما. وفي أثناء هربهما يصادفان راهبا تقيا وحكيما يقيم مراسيم زواجهما

في دير قديم رائع وروما نسي وسط غابة مزهرة. وينسحب الشابان إلى غرفة العرس. كل منهما جميل، رشيق، أشقر، بعينين زرقاوين. يخلعان ملابسهما وفجأة تقول الفتاة: آه.. ما هذه السلسلة الذهبية ذات الميدالية المرصعة بالماس التي تلبسها حول رقبتك؟». إن لديها سلسلة تماثلها تماما! إنهما أخ وأخت! تصيح الفتاة: «أنت أخي الذي اختفى!» ويتعانقان. (ملحوظة يا مونيكا توتسي: ما رأيك في نهاية غامضة؟ بإظهار نشوة غير أخوية على وجهيهما، هه؟ يمكنني أيضا أن أغير النهاية وأجعلها أقرب إلى نهايات سوفوكليس المأساوية: يكتشفان أنهما أخ وأخت بعد وقوع المحظور، وتقفز الفتاة اليائسة من نافذة الدير وتلقي بنفسها إلى الأرض).

قال مونيكا توتسي: «أعجبتني قصتك!»

قلت بتواضع: «حبة، من روميو وجولييت، ملعقة شاي من أوديب ملكا».

«لكني لا أستطيع تصويرها، يا رجل. لابد أن أنهي الموضوع كله في ساعتين. فأين أجد القصر؟ السيارات؟ الدير الرائع؟ الغابة المزهرة؟».

«هذه مشكلتك»

«أين أجد الشابين الرشيقين؟..» استمر مونيكا توتسي وكأنه لم يسمع ما قلت، «الأشقرين بعيونهما الزرق؟ كل العاملين عندنا نماذج للقصص المصورة خلاسيون. أين أجد عربة الغجر؟ حاول مرة أخرى، يا رجل. سأعود بعد ربع ساعة. ثم ما معنى سوفوكليس؟»

روبرتو وبتى مخطوبان لبعضهما. روبرتو الذي يكد في العمل، وفر نقوده ليشتري شقة ويجهزها، بتليفزيون ملون، وستيريو، وثلاجة، وغسالة، ومكنسة كهربائية، وغسالة أطباق، وتوستر، ومكواة كهربائية، ومجفف شعر. بتى تعمل أيضا. كلاهما عفيف. تم تحديد الموعد. أحد أصدقاء روبرتو واسمه تياجو، يسأله: «هل ستتزوج دون أية تجربة؟ لابد أن يتم تأهيلك في أسرار الجنس». ثم يأخذ تياجو روبرتو إلى منزل «السوبر

بغى بيتاترون». (ملحوظة يا مونيكا توتسي: الاسم مستوحى من الخيال العلمي). عندما يصل روبرتو يكتشف أن السوبر بغى هي بتى، خطيبته العزيزة. ياللسماء ! أي مفاجأة مهولة! شخص ما، ربما البواب، سوف يقول: «لكي تنضج لابد أن تعاني». نهاية القصة.

قال مونيكا توتسي: «كلمة واحدة تساوي ألف صورة، دائما أحب النهايات القصيرة. سأعود سريعا».

د. ناثانابيل، أحب الطبخ. أحب أيضا التطريز والكروشيه. وأكثر ماأحبه هو أن ألبس ثوبا نسائيا مسائيا طويلا، وأضع أحمر شفاه ثقيلا، والكثير من البودرة وظل العيون. ما أمتع هذا! كم يحزنني أنني يجب أن أبقى محبوسا في غرفتي. لا أحد يعرف أنني أحب أن أفعل هذه الأشياء. هل أنا على خطأ؟ بدرو ريدجريف. تيجوكا».

الرد: ولماذا يكون هذا خطأ؟ هل تسيء إلى أحد؟ كان لي قارئ آخر يتمتع، مثلك، بأن يلبس ثياب النساء. وكان يعيش حياة طبيعية ومفيدة ومثمرة اجتماعيا، حتى إنه اختير عارضا للأزياء. ارتد ثيابك النسائية الطويلة، واصبغ شفتيك باللون القرمزي، ضع بعض الحيوية في حياتك.

ذكرني بيسانيا: «كل الرسائل يجب أن تكون من نساء».

قلت: «لكن هذه الرسالة حقيقية».

«لا أصدق»

أعطيت الرسالة لبيسانيا. نظر فيها وعلى وجهه تعبير شرطي يفحص شيكا مزورا تزويرا ساذجا.

سأل بيسانيا: «هل تظنها مزحة؟»

قلت: «ربما، وربما لا»

استعاد بيسانيا نظرته التأملية، ثم قال:

«أضف عبارة تشجيع لرسالتك. مثلا، اكتب ثانية»

جلست إلى الآلة الكاتبة:

اكتب ثانية يا بدرو، أعرف أن هذا ليس اسمك الحقيقي لكن لا يهم، اكتب ثانية. اعتمد على ناثانابيل ليسا.

«عجبا»، قالها مونيكا توتسي، وأكمل: «ذهبت لأصور رائعتك الدرامية، لكنهم قالوا لي إنها مسروقة من فيلم إيطالي»

«حقراء، عصابة من البلهاء. فقط لأنني كنت مراسلا للشرطة يقولون إنني منتحل»

«هون عليك، يا فرجينيا»

«فرجينيا؟ اسمي كلاريس سيمون»، هكذا أجبت، وأكملت: «كم من البلاهة أن نتصور أن الخطيبات الإيطاليات فقط هن البغايا؟ انظر هنا، لقد عرفت ذات مرة امرأة مخطوبة، شخصية جادة، أخت للفضيلة بعينها، ولكنهم اكتشفوا أنها كانت بغيا أيضا»

«حسنا يا رجل. سأصور القصة. هل يمكن أن تكون بيتاترون خلاسية؟ ما معنى بيتاترون؟»

قلت: «لابد أن يكون شعرها أحمر، وذات نمش. والبيتاترون جهاز لإنتاج الإلكترونات، يملك إمكانية طاقة هائلة وسرعة عالية، مدفوعا بفاعلية حقل مغناطيسي سريع التغير».

«عجبا، هذا حقا اسم يناسب بغيا». قال مونيكا توتسي ذلك بإعجاب، وهو في طريقه إلى الخارج.

«ناثانابيل ليسا المتفهم، لبست أرديتي الطويلة متألقا، وكان فمي أحمر كدم النمر وانبلاجة الفجر. أفكر في لبس رداء من الساتان والذهاب إلى مسرح البلدية. ما رأيك؟ والآن سأقول لك سرا كبيرا ومدهشا، لكنك يجب أن تحتفظ باعترافي سرا عميقا. هل تقسم على ذلك؟ آه، لاأعرف ما إذا كان يجب أن أقول أم لا. لقد عانيت طوال حياتي من خيبة الأمل في ثقتي بالآخرين. إنني أساسا شخص لم يفقد براءته

أبدا. الخيانة، القسوة، الوقاحة، الدناءة، كل هذه الأشياء تصدمني. كم أحب أن أعيش منعزلا في عالم يوتوبي من الحب والود. عزيزي ناثانايل الرقيق الشعور، دعني أفكر. أعطني الوقت. في رسالتي القادمة سأقول المزيد، ربما كل شيء. بدرو ريدجريف»

الرد: بدرو، أنا في انتظار رسالتك، مع أسرارك، التي أعدك بحفظها في مناطق حصينة في أعماق شعوري. استمر بهذه الطريقة، مواجها بلا اكتراث الحسد والغدر الخبيث لفقراء الروح. اعبد جسدك، الجائع للشهوة، بممارسة تحديات عقلك الشجاع.

سألني بيسانيا: «هل هذه الرسائل أيضا حقيقية؟»

«رسائل بدرو ريدجريف حقيقية»

«غريب، غريب جدا» قال بيسانيا، وهو ينقر بأظافره على أسنانه: «ماذا تستنتج منها؟»

قلت:« لا أستنتج منها شيئا».

بدا مشغولا بشيء ما. سأل عن قصة الحب المصورة، لكنه لم يبد أي اهتمام بإجاباتي.

سألت: «ماذا عن رسالة الفتاة العمياء؟»

أمسك بيسانيا برسالة الفتاة العمياء، وإجابتي عليها، وقرأ بصوت عال:

«عزيزي ناثانايل، لا يمكنني قراءة ما تكتبه. جدتي الحبيبة تقرؤه لي. ولكن لا تظن أنني جاهلة. إنني عمياء. جدتي الحبيبة تكتب لي هذه الرسالة، لكن الكلمات أمليها أنا. أريد أن أرسل كلمة عزاء لقرائك لعلهم- وهم الذين يعانون كثيرا من متاعب صغيرة- يرون أنفسهم في المرآة. إنني عمياء لكن سعيدة. أعيش في سلام، مع الرب، ومع رفيقي. السعادة للجميع. تحيا البرازيل ويحيا شعبها. عمياء لكن سعيدة. طريق اليونيكورن. نوفا إجواكو. ملحوظة: نسيت أن أقول إنني أيضا مشلولة.

«أشعل بيسانيا سيجارا». مؤثر، لكن طريق اليونيكورن لا تبدو صادقة. الأفضل أن تجعلها طريق طاحونة الرياح أو شيئا من هذا القبيل. والآن دعني أرى إجابتك. «عمياء لكن سعيدة، أهنئك على قوتك، على إيمانك الذي لا يتزعزع بالسعادة، وبالخير، وبالناس، وبالبرازيل. إن أرواح هؤلاء الذين يئسوا من اجتياز محنهم لابد أن تستمد الغذاء من قدوتك المضيئة، مشعل منير في ظلمة الشقاء»

أعطاني بيسانيا الأوراق: «لك مستقبل في الأدب. هذه مدرسة عظيمة عندنا هنا. تعلم، تعلم، كرس نفسك، لا تتوان، اعمل باجتهاد».

جلست إلى الآلة الكاتبة:

تيسيو، موظف بنك، يعيش في بوكا دو ماتو، في لينس دي فاسكونسيلوس، متزوج من فريدريكا، وهو زواجه الثاني. له ابن، إيبوليتو، من زوجته الأولى. تقع فريدريكا في حب إيبوليتو. يكتشف تيسيو حبهما الآثم. فريدريكا تشنق نفسها على شجرة مانجو في الحديقة الخلفية. إيبوليتو يطلب الصفح من أبيه، ويترك البيت، ويهيم يائسا في شوارع المدينة القاسية إلى أن يلحق به، ويقتل في أفنيدا برازيل.

سأل مونيكا توتسي: «ما الموحي بالفكرة هنا؟»

«يوريبيدس، الخطيئة والموت. دعني أقول لك شيئا: أنا أفهم الروح الإنسانية، ولا أحتاج إلى الأدب الإغريقي القديم ليلهمني. فمع رجل في مثل ذكائي وحساسيتي، يكفي أن أنظر حولي. انظر إلى عيني عن قرب، هل رأيت أبدا إنسانا أكثر يقظة؟ أكثر انتباها؟»

نظر مونيكا توتسي في عيني مليا، ثم قال: «أعتقد أنك مجنون».

واصلت:

«إنني أستلهم الكلاسيكيات فقط لأظهر معرفتي. ولأنني كنت مراسل شرطة، إذا لم أفعل هذا فلن يحترمني المخبولون. لقد قرأت آلاف الكتب. كم كتابا قرأ بيسانيا في ظنك؟»

«ولا واحد. هل يمكن أن تكون فريدريكا سوداء؟»

«فكرة جيدة. لكن تيسيو وإيبوليتو لابد أن يكونا أبيضين»

«ناثانابيل، أنا أحب، حبا ممنوعا، حبا محرما، حبا سريا، حبا في الخفاء. أحب رجلا آخر. وهو أيضا يحبني. لكننا لا نستطيع أن نسير في الطريق ويدانا متشابكتان، كالآخرين. لانستطيع أن نتبادل القبلات في الحدائق ومقاعد السينما، كالآخرين، لا نستطيع أن نرقد متعانقين على الشواطئ الرملية، كالآخرين، لا نستطيع الرقص معا في النوادي الليلية، كالآخرين. لا يمكننا أن نتزوج كالآخرين، ولا أن نواجه، معا، الشيخوخة، والمرض، والموت، كالآخرين. ليست لدي القوة للمقاومة والصراع. والأفضل أن أموت. وداعا، هذه رسالتي الأخيرة. اجعلهم يتلون قداسا من أجلي. بدرو ريدجريف»

الرد: ماذا تقول يا بدرو؟ هل تستسلم الآن وقد وجدت حبك؟ لقد عانى أوسكار وايلد معاناة عظيمة، تعرض للسخرية، حوكم، وحكم عليه، لكنه صمد في وجه كل شيء. إذا لم يكن الزواج ممكنا، عيشا معا. وليكتب كل منكما وصية لصالح الآخر. دافعا عن نفسكما. استخدما القانون والنظام لصالحكما. كونا أنانيين، كالآخرين، كونا ماكرين، حقودين، غير متسامحين، منافقين. استغلا. انهبا. إنه الدفاع عن النفس. لكن، أرجوك، لا تنفذ أي بادرة مجنونة.

أرسلت الرسالة والرد لبيسانيا. فقد كانت الرسائل تنشر بناء على موافقته فقط.

جاء مونيكا توتسي ومعه فتاة.

وقال مونيكا توتسي: «هذه مونيكا»

قلت: «يا لها من مصادفة»

قالت الفتاة مونيكا: «أي مصادفة؟»

قلت: «انتما الاثنان تحملان الاسم نفسه»

سألت مونيكا مشيرة إلى المصور: «هل اسمه مونيكا؟»

«مونيكا توتسي. هل اسمك توتسي أيضا؟»

«لا، مونيكا أميليا»

وقفت مونيكا أميليا وهي تقرض أحد أظافرها، وتنظر إلى مونيكا توتسي.

قالت: «أنت قلت لي إن اسمك أجنالدو»

«اسمي أجنالدو في الخارج، أما هنا فاسمي مونيكا توتسي»

قلت: «وأنا اسمي كلاريس سيمون»

فحصتنا مونيكا أميليا بانتباه، دون أن تفهم شيئا. لقد رأت رجلين فطنين، أكثر تعبا من أن يمزحا، غير مهتمين باسميهما نفسهما.

قلت: «عندما أتزوج، سوف أسمي ابني أو ابنتي هاي يوو»

سألت مونيكا: «هل هذا اسم صيني؟»

وقلت مصفرا: «أو ربما هويت هوو»

قال مونيكا توتسي، وهو ينسحب خارجا مع مونيكا الأخرى: «إنك تتحول *إلى* شخص عدمي».

«ناثانابيل. هل تعرف ماذا يعني أن يحب إنسانان كل منهما الآخر؟ هذا كان حالنا نحن الاثنين، ماريا وأنا. هل تعرف ماذا يعني بالنسبة لشخصين أن يكونا منسجمين تماما؟ هكذا كنا، ماريا وأنا. طعامي المفضل هو الأرز، والفاصوليا، والكرنب المقطع جيدا، ودقيق المانيهوت، والسجق المقلي. هل يمكنك أن تخمن ماذا كان طعام ماريا المفضل؟ الأرز والفاصوليا، والكرنب المقطع جيدا ودقيق المانيهوت، والسجق المقلي. الحجر الكريم المفضل عندي هو الياقوت. وحجر ماريا المفضل، لابد أنك خمنت، كان الياقوت أيضا. رقم الحظ ٧، اللون الأزرق، يوم السعد هو الاثنين، السينما أفلام الغرب الأمريكي، الكتاب «الأمير الصغير»،

المشروب البيرة الجاهزة، المرتبة أناتوم، فريق كرة القدم فاسكو دا جاما، الموسيقى السامبا، التسلية الحب، كل شيء مشترك بيني وبينها، رائع. ما نفعله في الفراش يا رجل- ولا أقصد التباهي- لكنه لو كان في سيرك وأخذنا رسم دخول، لأصبحنا أغنياء. في الفراش لم يكن هناك زوجان في مثل هذا الجنون المتألق، يقدران على مثل هذا الأداء البارع، الخيالي، المبتكر، المتواصل، الرائع، المنجز مثل أدائنا. وقد نكرر هذا مرات عدة في اليوم. لكنه لم يكن هذا وحده الذي يصل بيننا. فقد تقول هي لي: لو كانت ساقك مبتورة لاستمررت في حبك، وقد أجيب أنا قائلا: لو كنت حدباء الظهر ما توقفت عن حبك. وقد تقول هي: لو كنت أصم وأبكم لاستمررت في حبك. وقد أجيبها أنا: لو كنت حولاء العينين ما توقفت عن حبك. وقد تقول هي: لو كان لك كرش وكنت قبيحا لاستمررت في حبك. وقد أجيب أنا: لو كان وجهك كله مغطى بندوب الجدري ما توقفت عن حبك. وقد تقول هي: لو كنت عجوزا عنينا لاستمررت في حبك. وكنا نتبادل هذه العهود عندما تملكتني رغبة في الصدق الكامل، عميقة كطعنة خنجر، وسألتها: ماذا لو لم تكن لي أسنان، هل كنت تحبينني رغم ذلك؟ وأجابت هي: إذا لم تكن لك أسنان لاستمررت في حبك. عندئذ انتزعت أسناني ورميتها على السرير أمامها بإيماءة وقورة دينية وميتافيزيقية. وجلسنا معا ننظر إلى الأسنان فوق الملاءة، حتى قامت ماريا، ولبست فستانا، وقالت: سأخرج لشراء سجائر. وحتى اليوم لم تعد. ناثانايل، اشرح لي ماذا حدث. هل ينتهي الحب فجأة؟ هل يمكن لبضع أسنان، بضع قطع بائسة من العاج، أن تعني كل هذا؟ أودونتوس سيلفا»

وبينما أتهيأ للرد، جاء جاكلين وقال إن بيسانيا يطلبني.

وفي مكتب بيسانيا، كان هناك رجل يرتدي نظارة وله لحية صغيرة مهذبة.

قال بيسانيا: «هذا د. بونتيكورفو، إنه.. .. «واتجه إليه متسائلا: «ماذا تعمل بالضبط؟»

أجاب بونتيكورفو: «باحث دوافع، كما كنت أقول نحن نقوم أولا بعمل مسح لخصائص العوالم التي نبحثها، مثلا: من هو قارئ مجلة «المرأة»؟ فلنفترض أنها امرأة الطبقة الدنيا. في بحثنا السابق بحثنا كل شيء عن امرأة الطبقة الدنيا.. من أين تشتري طعامها؟ كم سروالا تملك؟ في أي الأوقات تمارس الحب؟ متى تشاهد التليفزيون، وبرامج التليفزيون التي تشاهدها؟ وباختصار، صورة كاملة».

سأل بيسانيا: «وكم سروالا لديها؟»

أجاب بونتيكورفو دون تردد: «ثلاثة»

«متى تمارس الحب؟»

أجاب بونتيكورفو فورا: «في التاسعة والنصف مساء»

«وكيف عرفت كل هذا؟ هل تقرع باب دونا أورورا في مشروع الإسكان، فتفتح الباب، وتقول لها: صباح الخير يا دونا أورورا، متى تمارسين الحب؟ انظر يا صديقي، إنني في هذا العمل منذ خمسة وعشرين عاما، ولا أحتاج لمن يخبرني ما هي ملامح نساء الطبقة الدنيا. إنني أعرف من تجربتي الشخصية. إنهن يشترين مجلتي، هل تفهم؟ ثلاثة سراويل... ها!»

قال بونتيكورفو بهدوء: «إننا نستخدم طرق البحث العلمي. ولدينا علماء اجتماع ونفس وأنثروبولوجيا، وإحصائيون وعلماء رياضيات من ضمن مجموعة العمل».

قال بيسانيا باحتقار واضح: «كل هذا للاستيلاء على نقود المغفلين»

قال بونتيكورفو: «في الحقيقة، قبل أن آتي هنا، جمعت بعض المعلومات عن مجلتك، أعتقد أنها ستثير اهتمامك».

قال بيسانيا ساخرا: «وكم تكلفني؟»

قال بونتيكورفو: «هذه أقدمها لك مجانا». كان الرجل يبدو في برودة

الثلج. «لقد أجرينا بحثا صغيرا على قرائك، ورغم صغر العينة فأستطيع أن أؤكد لك ـ بلا أي ظل من الشك ـ أن معظم قرائك، بل كلهم تقريبا، من رجال الطبقة الوسطى».

صرخ بيسانيا: «ماذا؟!».

«هذا صحيح، رجال الطبقة الوسطى»

في البداية شحب وجه بيسانيا، ثم بدأ يتحول إلى اللون الأحمر، ثم البنفسجي، كما لو كان يختنق. انفتح فمه، جحظت عيناه، نهض من مقعده، ذراعاه ممدودتان، يترنح كغوريلا مجنونة متجها إلى بونتيكورفو. مشهد يصدم، حتى بونتيكورفو .. ذلك الرجل الصلب، حتى مراسل شرطة سابق. تراجع بونتيكورفو أمام تقدم بيسانيا حتى قال، وظهره للجدار، محاولا الاحتفاظ بهدوئه ورباطة جأشه: «ربما ارتكب فنيونا خطأ ما!»

بيسانيا، الذي كان على بعد سنتيمتر من بونتيكورفو، ارتجف رجفة عنيفة، وعلى عكس ما توقعت، لم يقفز على الآخر ككلب سريع، بل أمسك شعر رأسه بعنف، وبدأ يمزقه، وهو يصرخ: «ممثلون هزليون، غشاشون، لصوص، مستغلون، كذابون، نفاية الأرض»، وبذكاء، اتخذ بونتيكورفو طريقه نحو الباب، بينما جرى بيسانيا خلفه يقذفه بالشعر الممزق المنتزع من رأسه هو. وهو يصرخ بجنون: «رجال، رجال، الطبقة الوسطى!».

وفيما بعد، بعد أن هدأ– أظن أن بونتيكورفو هرب عن طريق السلم– قال لي بيسانيا، جالسا خلف مكتبه ثانية: «هذا هو نوع الناس الذي وقعت البرازيل في أيديهم... إنهم متلاعبون بالإحصاءات، ومزيفو المعلومات، محتالون مزورون بأجهزة الكمبيوتر، كلهم يخلقون الأكذوبة الكبرى، لكنهم لن يفعلوها معي. لقد وضعت هذا النفاية في مكانه حقا، ألم أفعل؟».

قلت شيئا ما موافقا. أخذ بيسانيا صندوق السيجار من الدرج،

وقدم لي واحدا. دخنا وتحدثنا عن «الأكذوبة الكبرى». ثم أعطاني رسالة بدرو ريدجريف وردي عليها، مع موافقته لآخذها إلى غرفة الجمع.

في الطريق لاحظت أن رسالة بدرو ريدجريف لم تكن هي التي أرسلتها إليه. لقد كان النص مختلفا:

«ناثانابيل العزيز. رسالتك كانت بلسما لقلبي الموجع. لقد أعطتني القوة للمقاومة. لن أقوم بأي بادرة مجنونة، أعدك بأن.. ..»

انتهت الرسالة هنا. لقد انقطعت في وسط الكتابة. غريب، لم أفهم. هناك خطأ ما.

ذهبت إلى مكتبي، جلست وبدأت أكتب ردي على رسالة أودنتوس سيلفا:

إن من لا توجد في فمه أسنان لا يعاني من وجع الأسنان. وكما قال بطل المسرحية المشهورة: «لم يكن هناك فيلسوف أبدا يستطيع تحمل ألم الأسنان بصبر». وإلى جانب ذلك، الأسنان أيضا آلات انتقام، كما جاء في سفر التثنية: العين بالعين، السن بالسن، اليد باليد، والقدم بالقدم. الديكتاتوريون يكرهون الأسنان. هل تذكر ما قاله هتلر لموسوليني عن لقاء آخر بفرانكو: أفضل أن أتحمل ألم انتزاع أربع أسنان. إنك في موقف بطل مسرحية «كل شيء طيب إذا لم يكن أحد موضعا للسخرية» لا أسنان، لا طعم، لا شيء. نصيحة: ضع أسنانك في فمك وعض. إذا لم يف العض بالغرض، حاول أن تلكم وتركل.

كنت في منتصف رسالة أودونتوس سيلفا عندما فهمت فجأة كل شيء. بيسانيا هو بدرو ريدجريف. بدلا من أن يعيد لي الرسالة التي طلب بدرو فيها أن أجعلهم يقيمون قداسا على روحه والتي أعطيتها له مع ردي عن أوسكار وايلد، سلمني بيسانيا رسالة جديدة، لم تكتمل، بالمصادفة ولا شك، وكان من المفترض أن تصلني بالبريد.

أخذت رسالة بدرو ريدجريف وذهبت إلى مكتب بيسانيا.

سألت: «هل يمكن أن أدخل؟».

قال بيسانيا: «ما الأمر؟ ادخل»

أعطيته رسالة بدرو ريدجريف. قرأ بيسانيا الرسالة، واكتشف الخطأ الذي ارتكبه، شحب وجهه كما كانت عادته. وبعصبية بحث بين الأوراق التي على مكتبه.

«لقد كان الأمر كله مزحة»، قال، محاولا إشعال سيجار، «هل أنت غاضب؟»

قلت: «حقيقة أو مزحة، الأمر سيان عندي»

«حياتي قد تصلح رواية..» قال بيسانيا ذلك، وأضاف: «فلنجعل هذا سرا بيننا نحن الاثنين، موافق؟»

لم أكن واثقا مما يريده أن يكون سرا بيننا نحن الاثنين. إن حياته قد تصلح رواية أم كونه بدرو ريدجريف، لكني أجبت:

«بالطبع، بيننا نحن الاثنين فقط»

«شكراً» قال بيسانيا هذا. وتنهد تنهيدة قد تحطم قلب أي إنسان لم يكن مراسل شرطة سابق.

ترجمة: سحر توفيق

الفراشة البيضاء

دالتون تريفيزان

دالتون تريفيزان Dalton Trevisan (١٩٢٥ -)

- بعد حادث قاتل تقريبا في ١٩٤٥، بدأ الكتابة، وفي ١٩٤٦ أسس مجلة أدبية «جواكين».
- بعد سنوات من الكتابة ظهر عمله «روايات غير نموذجية مطلقا» في ١٩٥٩ وجلبت له الشهرة في الحال. والقصة المنشورة هنا مأخوذة من «ملك الأرض» (١٩٧٢).
- ودالتون تريفيزان «كاتب قصة قصيرة يتسم بعنف الحذف والإيجاز، ويستكشف، (.....) في إطار حضري معاصر، حياة الأشخاص العاديين الذين يتضح في النهاية أنهم استثنائيون، بطرق مرعبة».

الفراشة البيضاء

دالتون تريفيزان

«هي منتهية تقريبا، فالرئة متعفنة تماماً»

كان أوان إجراء عملية أو علاج بالكوبالت قد فات تماما.

«فلماذا لا تشتكي من ألم؟»

«ليس هناك أي ألم أو ارتفاع في الحرارة»

ويتعذر عليها التنفس، والنافذة مفتوحة على مصراعيها.

«لم يبق لها سوى مزقة من الرئة»

وأنت تعاتبها لأنها تحب التدخين وتشعل - هي الأم المبتلاة - سيجارة من أخرى. ودائما السعال، الذي يجبرها على النهوض جالسة، ملتوية فوق فراشها.

«لا أستطيع أن أنام، يا ابني، الجو خانق، هذه الغرفة لا هواء فيها»

ويذهب الشاب إلى فراشه، وهو يسمع السعلة الخفيفة التي تكتمها في وسادتها حتى لاتزعجه.

«هل هو مرض خطير، يا ابني؟»

«أمي، ما هذا الكلام الفارغ»

«لماذا لم يعطني الطبيب دواء ما؟ كل ما فعله هو أنه منع السجائر!»

وكل أسبوع يطلب الابن روشتة جديدة من الطبيب، وببعض الفيتامينات، تقفز هي إلى خارج الفراش، وتطبخ الطبق المفضل للابن، وتنزل إلى الشارع من أجل شلتين من الصوف الأزرق.

«متعبة جدا... استندت إلى الحائط»

ورغم إدراكها كم يكلفها، هي الأرملة الفقيرة، أن تربي ابنين. كانت

مضطرة إلى أن تأخذ سيارة أجرة. أما الآن فهي لم تعد تخرج، هادئة في ركنها، وهي تلف خيطا على إصبع صغير مرتعش، وفمها فاغر أمام النافذة.

«نفسها مقطوع، ويمكن أن تسقط من النافذة»، يحذر الطبيب «أو تلقي بنفسها منها».

كل ليلة يعطيها الابن حقنة، وتغفو بالكاد، وتشعر بآلام شديدة وتمزق قميص نومها فوق صدرها النحيل الضامر، وهي الممتلئة الجسم بنعومة دوما، تسعل وتزداد تحولا، يرقص شبشبها القطيفة على قدمها وخاتم زواجها على إصبعها.

«ماذا سيحدث لك؟ وعندما تكون سكران، من الذي سيمسك جبينك؟»

«هذه الحقنة ستجعلك على ما يرام»

وفي الأيام الأخيرة تعتني بها ممرضة شابة حلوة، وهي لم تفق بعد تماما، وحقنة أخرى لتخديرها. إنها لا تشكو من ألم، فقط ذلك التلهف على ابتلاع الهواء كله.

ويندفع الصبي نازلا على السلالم، ويدخل أول حانة، وعندما يعود يرى وجه أمه الشاحب، وفمها الممصوص إلى الداخل خاليا من أسنانه، ونادرا ما تتكلم، وهي ترسم إشارة الصليب وتغطي وجهها بالملاءة.

«ليتها تصاب بسكتة قلبية»، تهمس الممرضة.

وصرخة في منتصف الليل، ويستحم وجهه في الدموع. مرة أخرى ذلك الحلم الذي يدخل فيه المصعد، ومهما يضغط على المفتاح بقوة، لاينغلق الباب، وهو مسمر في قاع بئر المصعد. وهناك، في الأعلى، سعال أمه، وهو لا يستطيع أن يساعدها.

وعلى جبينه الملتهب، ملاطفة الفتاة بحنان.

«نامي معي»

«حرارتك مرتفعة، ياجوان»

«أطلب منك معروفا، إني أموت حزنا»

رغم أنها ترفض أن تستلقي، يأخذها على الواقف متكئة على الحائط، ثم تلك الراحة الكبرى، ويسقط نائما.

في الثالثة صباحا تناديه الفتاة. الزبد الأسود يفور من أنف المرأة المحتضرة. أمي المسكينة أكثر تعبا من أن تسعل، العينان مفتوحتان دون أن تريا التشنجات التي تهز الفراش.

أنين خافت، ابتسامة، سكون تام.

«انظر يا جوان»

ومن خلال النافذة تطير فراشة كبيرة بيضاء.

ترجمة : خليل كلفت

جــــرأة

لويس فيليلا

لويس فيليلا Luiz Vilela (١٩٤٣-)

● ولد في ولاية ميناس جيرايس.

● درس الفلسفة في «بيلو أوزيزونته» عاصمة الولاية، حيث عمل في مجلة «إستوريا»، والجريدة الأدبية «تكستو» (النص).

● فاز كتابه الأول، وكان مجموعة قصص قصيرة بعنوان «الزلزال» (١٩٦٧) بجائزة قومية في القصة.

● وكان كتابه الثاني «في الحانة» أيضا مجموعة قصص قصيرة.

جرأة

لويس فيليلا

وضع الرجل المجلة على المنضدة دون أن يحدث صوتا، ثم أعاد توجيه ضوء المصباح نحو الأرضية، تاركا الفراش في الظل. الوسادة التي تركها كما هي، ظلت مسنودة إلى رأس السرير، وبقي هو أيضا في الوضع نفسه الذي كان فيه من قبل، ناظرا عندئذ إلى ما كان أمامه مباشرة، في خط رؤيته، فقط الوضع الناتئ لقدميه تحت الملاءات. استدار قليلا لينظر إلى المرأة، كان وجهها نحو الاتجاه الآخر، وكانت الملاءة تصل إلى ذقنها، وبدت نائمة بالفعل.

«زازا»، قال برقة، بطريقة تجعلها ترد إذا كانت لا تزال مستيقظة، ولا تجعلها تستيقظ إذا كانت نائمة بالفعل.

«آه...» تأوهت المرأة، دون أن تتحرك.

«هل أنت نائمة بالفعل؟» سأل الرجل بالنغمة نفسها.

«لا»، ردت المرأة، بالنغمة نفسها أيضا، ليس بعد، لكن بدا من صوتها، وكأنها نائمة تقريبا. ظلت بلا حراك، ولاحظ الرجل من خلال الملاءة التنفس الهادئ المنتظم لشخص على وشك أن يسقط نائما.

شبك يديه وراء رأسه، بين رأسه والوسادة.

«زازا، كنت أفكر...»

«ماذا؟» غمغمت المرأة.

استدار وانحنى نحوها، واضعا يده على خاصرتها. أخذ يربت عليها برقة من فوق الملاءة.

«هل أنت نائمة بالفعل، يا عزيزتي؟»

فتحت المرأة عينيها دون أن تحرك رأسها.

«لست نائمة... فقط أغمضت عيني...»

«لا تنامي، ليس بعد»، قال، وربت على ردفها ربتة خفيفة.

حركت المرأة رأسها على الوسادة موافقة وأغمضت عينيها مرة أخرى. وعاد فأسند رأسه مرة أخرى على الوسادة وشبك يديه وراء رأسه، بعد أن تركهما مهجورتين لحظة على جسمه.

«كما تعلمين، كنت اليوم أفكر. هل تصغين، يازازا؟»

«نعم»، غمغمت المرأة.

«كنت أفكر في مجموعة هائلة من الأمور»

كان الرجل يتكلم فيما كان ينظر ناحية قدميه من فوق الملاءات، ومن وقت لآخر، كان يلويهما لكن دون أن ينتبه إلى ذلك. «علينا أن نحرك حياتنا أكثر، يا زازا، علينا أن نفعل أشياء جديدة مختلفة... علينا أن نخرج من هذا الروتين. الروتين هو الذي يسمم حياة المرء. الروتين أحد أكبر الشرور في الحياة. إنه هو الذي يقتلنا، الذي يجعلنا نشيخ قبل الأوان. دعينا نتركه للوقت الذي نشيخ فيه، نحن لم نشخ بعد، لا يزال أمامنا العديد من السنوات. تذكري.. الحياة تبدأ في الأربعين. عمرنا سبع سنوات فقط. نحن لا نزال في طفولتنا». ونظر إلى المرأة من الجانب: «زازا، هل تصغين إلي أم أنك نائمة بالفعل؟»

تأوهت المرأة لتقول إنها تصغي.

«علينا أن ندخل في حياتنا بعض الحركة. علينا أن نبتكر، أن نخلق أشياء جديدة. أن نستخدم ما لا يزال من الشباب بداخلنا: الجوع إلى الجديد، إلى التنويع، إلى الأشياء الطريفة. توقف للحظة. بدا أنه يختار من بين مجموعة متنوعة من الأشياء ما سيقوله بعد ذلك. مرة أخرى نظر إلى المرأة، لكنه لم يقل لها شيئا هذه المرة».

«هذا، حتى في أصغر الأشياء، أو حتى في معظم...» تردد لأنه لم يستطع أن يعثر على الكلمات، أو لأنه اعتقد أن من الأفضل ألا يقولها،

وبدأ جملة جديدة. «هذا ما يجعل الإنسان يعيش ويظل شابا دائما. على المرء أن يملك الشجاعة... على المرء أن يملك الجرأة...» مرة أخرى بدا أنه لا يعرف ما أراد أن يقول، أو أنه يخشى أن يقوله.

نظر إلى المرأة، وظل يراقبها بعض الوقت ، متفحصا جسدها بعناية، الذي كانت معالمه مرسومة بالملاءة البيضاء الرقيقة، ثم سحب نفسه إلى أعلى ليقوم ببادرة ما، غير أن تنفسا أعمق من المرأة أوقفه في منتصف الطريق، تاركا إياه بيده معلقة فوق خاصرتها. غير أنها كانت مجرد تهيدة، فلم تتحرك. ومع ذلك، عاد إلى وضعه السابق. وعندئذ حركت ساقيها قليلا، لكنها لم تستدر كما اعتقد، وخشي أن تفعل، وارتخى وجهه وكأنه نجا للتو من خطر.

كان ينظر بالفعل إلى قدميه، ويحركهما، بالعصبية الهائلة المكبوتة لقط يهز ذيله.

«زازا، هل تتذكرين ما نويلينو؟» سأل.

لم ترد المرأة، وأدار هو رأسه قليلا على الوسادة وكرر بصوت موجه مباشرة إلى المرأة. «زازا».

«ماذا؟»

«هل تتذكرين مانويلينو؟»

«مانويلينو؟» تريثت لحظة، ثم قالت: «أتذكر»، وأكدت ذلك، من أجله أكثر مما لنفسها، لتعفيه من أن يسأل مرة أخرى عما إذا كانت نائمة. «صديقك ذاك...» وأضافت سعيدة بأنها تذكرت: «ذلك الذي في البنك...»

«في البنك؟ لا، يا زازا. كان ذلك ماركولينو. أنا أتحدث عن مانويلينو، الشخص الذي أتى إلى هنا في تلك المرة، الشخص الذي يلبس القبعة، لقد أضحكك ذلك أيضا...»

لم تقل المرأة شيئا.

«ألا تتذكرين؟ الشخص الذي يلبس قبعة، يازازا»

«أتذكر.. نعم، أتذكر، الشخص الذي يلبس القبعة»

«حسنا، إذن، جرت بيننا من قبل مناقشة حول هذا، بالضبط حول ما أتحدث عنه الآن. شخص ممتاز مانويلينو ذاك»، وابتسم الرجل. «صديق حقيقي. كنا نتحدث عن كل هذا، عن هذه الأشياء، ثم بدأت أفكر. أنت تعلمين يا زازا، هناك مجموعة هائلة من الأشياء التي لانفعلها- أعني بضمير «نحن» الذي أتحدث عنه هنا أنت وأنا - أشياء لم يفعلها المرء بعد في هذه الحياة، ويمكن للمرء أن يفعلها. نعم، يمكن للمرء أن يفعلها. هذه هي المسألة! لماذا توجد أشياء لا يمكن للمرء أن يفعلها، حتى إذا رغب في هذا. مثلا، فيم يفيدني أن أرغب في الذهاب إلى اليابان إن لم يكن عندي المال اللازم لهذا؟».

«اليابان؟»، غمغمت المرأة.

«أنا أقول فقط: فيم يفيدني أن أرغب في الذهاب إلى اليابان إن لم يكن عندي المال اللازم لهذا؟» أو، من جهة أخرى، أن أرغب في أن يكون عندي ظبي إفريقي، فيم يفيدني ذلك؟ أو أن أرغب.. «لم يستطع أن يتذكر فيم رغب أيضا. «وهكذا.. أن يرغب المرء في أشياء مستحيلة. هذا تخريف. كلام فارغ. صبيانية. أما ما هو ممكن، فإنني أستطيع أن أرغب فيه. الكلمة ذاتها تقول هذا: ممكن، بمعنى ما يمكن للمرء أن يملكه. مثل هذه الأشياء، يمكنني أن أرغب فيها، ليس فقط يمكنني، إنني مجبر على أن أرغب فيها! هناك أشياء كثيرة جدا يمكن للمرء أن يفعلها.. أشياء جيدة، هذا ما أقوله، هذا بديهي، أشياء كثيرة جدا لايفعلها المرء، ولماذا؟ لماذا لا يفعلها؟ بسبب الخوف، الإهمال، العرف، الآراء المسبقة. تحدثنا كثيرا عن ذلك، أنا ومانويلينو.. مانويلينو وأنا» صحح نفسه كرجل اعتاد مراعاة أدق قواعد آداب السلوك. «تحدثنا كثيرا عن ذلك.. الآراء المسبقة، التحيزات. إنها هي التي تمنعنا من أن نفعل كثيرا من الأشياء، وهي أشبه بسلاسل تقيد حركتنا، كما يقول مانويلينو، أو

بالأحرى، كما يقول أيضا، الآراء المسبقة تحكم حياتنا. هناك كل ضروب الآراء المسبقة: اجتماعية، سياسية، دينية، أخلاقية، عدد لا نهائي منها. هناك تحيزات من كل الأنواع، من أدناها إلى أسماها».

تحركت المرأة، وتوقف هو عن الكلام وأخذ يراقبها، لكنها، بدلا من أن تستدير كما اعتقد أنها ستفعل، لفت نفسها بإحكام أكثر حتى من ذي قبل، ومع ذلك ظلت في وضع وسط بين الرقاد بالوجه إلى أسفل والرقاد على جانبها، وبرزت خاصرتها حتى بوضوح أكثر من ذي قبل.

بدأ الرجل يتكلم من جديد، غير أنه هذه المرة ظل ينظر إلى المرأة، إلى خطوطها الخارجية، «هناك حتى آراء مسبقة جنسية، في الحقيقة، هناك تحيزات جنسية كثيرة... »، وبدا أنه عاد إلى العصبية كما كان حاله من قبل، وكأن شيئا ما أصابه، أخذ يمرر يده بصورة متكررة فوق رأسه، مسويا شعره، الذي كان ناعما تماما، والذي كان قد بدأ يخف.

«أحيانا توجد هذه الآراء المسبقة حتى عند «الأزواج والزوجات. أي حتى بين الأشخاص الذين لا ينبغي أن توجد بينهم أية آراء مسبقة، الذين ينبغي أن تكون الألفة مطلقة بينهم، الذين ينبغي أن تتوفر لديهم حرية كاملة ليفعلوا ما يريدون، ليفعلوا كل ما يطلبه الجسد»

مرة أخرى انحنى الرجل نحو المرأة، وبإصرار أكثر الآن أخذ يربت على فخذيها.

«أنا متعبة جدا اليوم يا حبيبي»، غمغمت المرأة دون أن تفتح عينيها.

ظل يربت عليها برقة. «ليس الأم ر كذلك، إنه شيء آخر»، غمغم الرجل، وهو يمدد جسمه خلفها على طول جسمها، وعند هذه النقطة استدارت على ظهرها. «ما الأمر؟»، قالت، وهي تبذل جهدا حقيقيا لتستيقظ.

ظل في الوضع الذي كان فيه، ناظرا إليها، ثم استدار بجفاء ليرقد على ظهره.

«ما الأمر؟»، سألت مرة أخرى.

«أنت لا تعيرينني اهتماما»، قال بضيق أكثر مما بررته الكلمات، غير أن المرأة كانت أكثر نعاسا من أن تلاحظ، «ظللت أتكلم معك طوال أكثر من نصف ساعة، وأنت لا تصغين إلي»

«أنا لم أكن أعير اهتماما؟ لا، بل كنت، يا حبيبي. ألم أرد على كل شيء قلته؟ فقط ظلت عيناي مغمضتين، لم أكن نائمة»، قالت المرأة، ناهضة في الراش ومتكئة على مرفقيها. «هل تريد مني أن أكرر كل شيء قلته، من البداية؟ أستطيع أن أقول كل شيء، من البداية، هل تريد مني أن أفعل؟»

«حسنا، يالها من فكرة»، قال متهكما.

«عملت اليوم عملا شاقا، يا حبيبي، إني متعبة، عيناي تؤلماني من كثرة الخياطة، كنت أغمضهما فقط، لم أكن نائمة، كنت أصغي إلى كل ما كنت تقوله»

«حسنا»، قال، ليضع حدا للأمر. «حسنا، دعينا ننام الآن»

مد يده وأطفأ النور، ثم أعاد ترتيب الوسادة، ورقد على جنبه، وظهره إلى المرأة، التي كانت قد رقدت أيضا عندئذ من جديد.

لم يغمض عينيه بعض الوقت، وفي الظلام ظل يحملق في المجلة التي كانت على المنضدة، متذكرا صورة فوتوغرافية.. شقراء تلبس مايوه بيكيني، منحنية على نصف جنبها ونصف ظهرها، على أريكة قرمزية.

ترجمة: خليل كلفت

المحتويات

المترجمان في سطور

خليل كلفت

● كاتب ومترجم مصري.

● ترجم عن الإنجليزية والفرنسية العديد من الكتب في مجالات الأدب (من رواية وقصة قصيرة وشعر) والنقد الأدبي، والفكر، والسياسة، والاقتصاد، ومنها:

- دون كازمورو (رواية)للكاتب البرازيلي ماشادو ده أسيس.
- السراية الخضراء (رواية قصيرة) للكاتب البرازيلي ماشادو ده أسيس.
- الأسطورة والحداثة - حول رواية دون كازمورو تأليف بول ب. ديكسون
- عوالم بورخيس الخيالية لمجموعة من الكتاب
- تغريب العالم تأليف: سيرج لاتوش
- الأساطير والميثولوجيات السياسية تأليف: راؤول جيرارديه
- مصير العالم الثالث تأليف توماكوترو وميشيل إسون
- العاصفة تهب (حول انهيار النموذج السوفييتي) تأليف كريس هارمان

سحر توفيق

● روائية ومترجمة مصرية.

● كتبت العديد من القصص القصيرة، وقصص الأطفال، ولها رواية، كما ترجمت (عن الإنحليزية) في مجالات الأدب (القصة والرواية)، والنقد الأدبي، والتاريخ.

● ومن أعمالها.

- آن تنحدر الشمس (مجموعة قصص)
- طعم الزيتون (رواية) (تحت الطبع)
- شجرة وحيدة تزهر في طوبة(مجموعة قصص) (تحت الطبع)
- فلاحو الباشا- الارض والمجتمع والاقتصاد في الوجه البحري من ١٧٤٠ - ١٨٥٨ (ترجمة عن الإنحليزية) للكاتب والمؤرخ الأمريكي: كينيث كونو.

إصدارات قادمة

شذرات
من خطاب عاشق

تأليف: رولان بارت

ترجمة: د. إلهام سليم حطيط

حبيب حطيط

كشاف سنوي ٢٠٠٠

٣٢٢ - السكرتير الخصوصي　　　　تأليف: ت.س. إليوت

للاستفسار:
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ص. ب ٢٨٦٢٣ - الصفاة - 13147 -
دولة الكويت - تليفون ٢٤٣١٣٥٣ - فاكس ٢٤٣٢٢٣١

سلسلة إبداعات عالمية

سلسلة شهرية محكمة.. تعنى بنشر الترجمات الإبداعية الراقية من اللغات المختلفة لأهم ما يصدر من أشكال الأدب العالمي عموماً: الرواية - المجموعات والمختارات القصصية - أدب السيرة الإبداعية وأدب الرحلات الحديث العالمي- إضافة للنصوص المسرحية الرفيعة ومجموعات الشعر ومختاراته.

قواعد النشر بالسلسلة

١- أن يكون النص ذا قيمة فنية عالية، والمؤلف من كبار الكتاب، أو المتميزين على الساحة الأدبية العالمية.

٢- ألا تكون قد نشرت من قبل ترجمة للنص بالعربية.

٣- أن تكون الترجمة عن اللغة الأصلية للنص، وليس عن لغة وسيطة.

٤- تقبل النصوص المترجمة المقدمة للنشر من نسختين على الآلة الطابعة، مع نسخة من النص الأصلي. ولا ترد الأصول إلى أصحابها سواء نشرت أو لم تنشر.

٥- تخضع النصوص المترجمة للتحكيم العلمي على نحو سري.

٦- تحال النصوص عند الموافقة المبدئية عليها إلى المراجعة قبل النشر. وتجرى الإشارة إلى اسم المراجع مع المترجم.

٧- يمكن للسلسلة أن تنشر مقدمة للمترجم أو للمراجع مع النص المترجم وفق صلاحيته الفنية.

* تقدم السلسلة مكافأة مالية عن النصوص التي تقبل للنشر، وذلك وفقاً لقواعد المكافآت الخاصة بها.

ترسل النصوص باسم:

الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص.ب. ٢٨٦٢٣ الصفاة 13147 الكويت

قسيمة اشتراك

البيان	إبداعات عالمية		مجلة الثقافة العالمية		مجلة عالم الفكر		سلسلة عالم المعرفة	
	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار	دك	دولار
المؤسسات داخل الكويت	٢٠	-	١٢	-	١٢	-	٢٥	-
الأفراد داخل الكويت	١٠	-	٦	-	٦	-	١٥	-
المؤسسات في دول الخليج العربي	٢٤	-	١٦	-	١٦	-	٣٠	-
الأفراد في دول الخليج العربي	١٢	-	٨	-	٨	-	١٧	-
المؤسسات في الدول العربية الأخرى	-	٥٠	-	٣٠	-	٢٠	-	٥٠
الأفراد في الدول العربية الأخرى	-	٢٥	-	١٥	-	١٠	-	٢٥
المؤسسات خارج الوطن العربي	-	١٠٠	-	٥٠	-	٤٠	-	١٠٠
الأفراد خارج الوطن العربي	-	٥٠	-	٢٥	-	٢٠	-	٥٠

الرجاء ملء البيانات في حالة رغبتكم في : تسجيل اشتراك ☐ تجديد اشتراك ☐

الاسم :
العنوان :
اسم المطبوعة : مدة الاشتراك :
المبلغ المرسل : نقداً / شيك رقم :
التوقيع : التاريخ : / /٢٠٠٠ م

تسدد الاشتراكات مقدما بحوالة مصرفية باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب مع مراعاة سداد عمولة البنك المحول عليه المبلغ في الكويت.

وترسل على العنوان التالي :

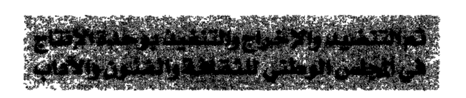
السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص . ب : ٢٨٦٢٣ - الصفاة - الرمز البريدي 13147

دولة الكويت

سعر النسخة:

الكويت ودول الخليج	٥٠٠ فلس
الدول العربية الأخرى	ما يعادل دولارا أمريكيا
خارج الوطن العربي	دولاران أمريكيان





طبع في مطابع دار السياسة

قصص برازيلية

في هذا المشوار الطويل حقا للقصة القصيرة البرازيلية الحديثة، من النصف الثاني للقرن التاسع عشر إلى أواخر القرن العشرين، نعيش مع «دونا باولا» التي تثير نزوة ابنة أختها ذكرى أيامها الخوالي، ولكنها تعجز بصورة مأساوية عن نفخ الحياة في شبابها الذي ولى (ماشادو ده أسيس)، ومع عائلة أوليفيرا التي تضطر أمام ضغوط ومقتضيات حياة جافة إلى التخلص من البيانو بكل تلك الموسيقى في تاريخ العائلة، بإغراقه في المحيط الأطلنطي (آنيبال مونتيرو ماشادو)، ومع الصبي الذي عاش أسطورة انتقال أبيه إلى الشاطىء الثالث لنهر حياتنا وموتنا إلى أن يشيخ ويوشك ذلك الشاطىء ذاته على ابتلاعه بدوره (روزا)، ومع تارسيزو (ده كيروس)، ومع برسيونكولا الخلاسي الذي يحقق لماريا ذات الطرحة، بعد موتها، حلم حياتها وموتها بأن تزف عروسا إلى إنسان يحبها (جورج أمادو)، ومع ساحر مطعم مينيوتا، الساحر الخالد رغم أنفه (موريلو روبياون)، ومع البروفيسور ألبرتو الذي يرتكب جريمة نظرية مدمرة مسخرا زوجته الشابة الحسناء هيلينا وصديقه الشاب ليعيش الثلاثة في جحيم الجنون (باولو جوميس)، ومع امرأة إفريقية من قبائل الأقزام تفجر بدا ينابيع الحب للإنسان في كل تجلياته (كلاريس ليسبكتور) عذابات قلوب محطمة (روبن فونسيكا)، ومع الفراشة البـ (دالتون تريفيزان)، ومع طاقة «جرأة» يعجز البشر في آن عن فتحها أو إغلاقها (لويس فيليلا).

ردمك X - ٠٣٥ - ٠ - ٩٩٩٠٦
ISBN 99906 - 0 - 035-X